

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

جامعة أم درمان الإسلامية

المكتبة

قسم الأبحاث الجامعية

رقم التسجيل ٨٤٣٥

الشعر الأندلسي في عصر الطوائف

اتجاهاته وخصائصه الفنية

(١١٤١، ١٠١٩، ٥٣٦، ٤٠٠)

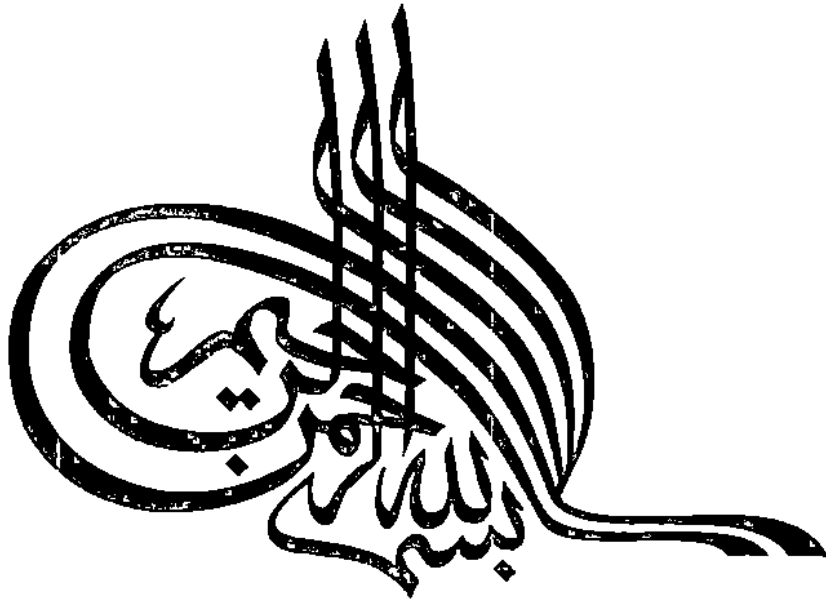
رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

٥٠٨٤٢٥

اعداد الطالب / نميري تاج السر احمد لقمان

اشراف : الاستاذ الدكتور / صالح ادم بيلو

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿قَالَ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ نَبِيًّا وَمُحَمَّدًا نَبِيًّا وَجَعَلْنَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ نَبِيًّا وَمُحَمَّدًا نَبِيًّا وَجَعَلْنَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ نَبِيًّا وَمُحَمَّدًا نَبِيًّا﴾

صَلَّى
عَلَيْهِم
وآلِهِم
الطَّيِّبِينَ

سورة البقرة " ٣٢ "

الإهداء

إلى رُوح أمِّي

طيب الله ثراها

وإلى أبي
أطال الله عمره

شكر وتقدير

يقول الله تعالى في محكم تنزيله : " ولئن شكرتم لأزيدنكم " صدق الله العظيم الشكر أولاً واخيراً للمولي عز وجل رب العالمين الذي منحنا الصحة والعافية ومكننا من إتمام هذا البحث على النحو الذي خرج به .

وأنتقدم بخالص شكري وامتناني للحبر الدكتور صالح آدم بيلو ، الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث . منفقاً الكثير من وقته في رعايتي وتوجيهي بالإضافة والحذف إلى أن شهد النور .

كما أتقدم بالشكر إلي الدكتور بابر البدوي دشين الذي اشرف على رسالة الماجستير التي قدمتها وأفادني بكثير من التوجيهات . وأخص بالشكر الدكتورة سميرة محمد خلف الله صبير ، وسهام تاج السر ، ومحمود جعفر وكل من ساعدني في إتمام هذا البحث .

كما أتقدم بشكري الجزيل لجامعة أم درمان الإسلامية لإتاحتها لي فرصة الدراسة فيها ، وشكري موصول إلي أسرة مكتبتها الذين تعاونوا معي في إتمام هذا البحث .

وشكري أيضاً لأسرة مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض ومركز فيصل للدراسات الإسلامية والبحوث .

ولا يفوتني أن أشكر أخي عبد الهادي عبد الله الذي قام بطباعة هذا البحث . والشكر كل الشكر لكل الأيادي البيضاء التي قدمت لي يد العون في إخراج هذا البحث .

والله الموفق .

الباحث

المقدمة

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .
أما بعد ،

فلقد شغل عصر الطوائف في الأندلس في الفترة ما بين ٤٠٠ هـ - ٥٣٦ هـ / ١٠١٩-١١٤١م وهذا العصر يعتبر من ازهي العصور الأدبية في الأندلس . إذ ضم أضخم شعراء الأندلس ابن زيدون ، وابن خفاجة وابن حمد يس وغيرهم . وكان للأدب في هذه الفترة قيمة كبيرة لان عصر الطوائف يعتبر نقطة تحول في الأدب العربي في الأندلس ففيه ظهرت شخصية الشاعر الأندلسية . وأصبحت شخصية قائمة بذاتها غير مقلدة بل مبتكرة . وفيه أيضا اكتملت صورة الموشحات التي هي من نتاجهم .

أهميته في حقل الدراسة :

بعد دراسة أمضيت فيها فترة من الزمن بين المكتبات جيئة وذهابا وجدت أن الباحثين لم يلتفتوا لدراسة الشعر في عصر ملوك الطوائف بصورة متخصصة . ويمكنني إجمال الدوافع التي كانت ذات أثر بالغ في توجيهي إلى الكتابة في هذا الموضوع .

- ١- العناية بدراسة الأدب في الأندلس ، ومحاولة إجلاء الغموض عن الشعراء في عصر الطوائف فأغلبهم من المغمورين .
- ٢- الحضارة التي شكلها العرب في تلك البقعة من الغرب المأسوف على زوالها ، وهي جديرة بالدراسة وإظهارها للعيان .

٣- إظهار شعر الكثير من الشعراء المغمورين ولفت نظر أهل البحث والأدب اليهم . وشعرهم على درجة من الرقي تستحق معها الدراسة والتحليل .
٤- أغلب الكتاب لم يتناولوا دراسة عصر الطوائف وحده بل تجد احدهم يدرس الأدب العربي في الأندلس بصورة عامة . وتجد الآخر يأخذ عصرين يدرسهما مثلما فعل الدكتور منجد مصطفى في دراسته لشعر الجهاد والمعارك الإسلامية في الأندلس في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين . ومثله فعل الدكتور أحسان عباس فدرس تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين . وهناك وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين -
والحق أنني قد أفدت الكثير من دراساتهم ولهذا وجدنتي مندفعاً لدراسة الشعر-
تقليدي كان أم شعبي- في عصر الطوائف وبيان خصائصه الفنية . حتى أضيف للمكتبة العربية شيئاً جديداً .

الصعوبات والعقبات التي واجهت البحث وكيف ذلك :

ولعل من أهم الصعوبات ضياع الكثير من شعر الشعراء ودواوينهم في عصر الطوائف أما بسبب الحروب التي سادت العصر أو بسبب إهمال الكتاب والمؤرخين الذين يترجمون للشعراء كابن بسام وغيره فكان كل واحد منهم يعني بالشعراء الكبار وهم شعراء البلاط دون غيرهم . ويجتزئ بعض الأبيات من قصائد طوال لبعض الشعراء . فاتصلت بكثير من المكتبات واقتنيت الكثير من كتب التراجم . وبعد جهد غير قليل بحمد الله أتممت بحثي وقسمته الي ثلاثة أبواب ثم إلي فصول ومباحث .

كان السبب الأول . . . لصورة العصر درست فيه الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والحالة الأدبية والفكرية.

وكان الباب الثاني: الشعر التقليدي في عصر الطوائف:

درست في الفصل الأول طبقات الشعراء.

وفي الفصل الثاني درست الشعر الوجداني وقسمته إلى خمسة مباحث

المبحث الأول: شعر الطبيعة

المبحث الثاني: شعر الغزل

المبحث الثالث: وصف الخمر

المبحث الرابع: الشكوى والغربة والحنين

المبحث الخامس: شعر الفخر

وفي الفصل الثالث درست الشعر الديني وقسمته إلى مبحثين

المبحث الأول: درست فيه شعر الزهد، وشعر التصوف - وشعر الحكم

المبحث الثاني: درست فيه شعر الجهاد والمعارك الإسلامية

و درست في الفصل الرابع الشعر الاجتماعي وقسمته إلى خمسة مباحث

المبحث الأول: درست فيه شعر الرثاء وتعرضت فيه لرثاء المدن

والممالك الزائلة

المبحث الثاني: شعر الهجاء بنوعيه الهجاء الاجتماعي، والهجاء

السياسي

المبحث الثالث: الاخوانيات

المبحث الرابع: درست فيه شعر المدح

المبحث الخامس: الشعر الفلسفي

وكان الباب الثالث: للدراسة الفنية لشعر القصيد التقليدي عندهم

درست في الفصل الأول منه بناء القصيدة، وبناء المقطوعات وقسمته إلى

ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقدمة القصيدة

المبحث الثاني: التلخيص والخروج

المبحث الثالث: خاتمة القصيدة، وأوضحت خصائص بناء المقطوعات الشعرية ثم درست الأخيلة والصور الشعرية المتمثلة في التشبيه ودوره في تشكيل الصور والأخيلة، والاستعارة ودورها في تشكيل الصور والأخيلة. والكناية ودورها في تشكيل الصور والأخيلة. ثم درست ترأسل الحواس في شعرهم.

و درست في الفصل الثاني اللغة والأسلوب وقسمته إلى مبحثين:

المبحث الأول: درست فيه اللغة

المبحث الثاني: درست فيه الأسلوب

وفي الفصل الثالث درست الوحدة الموضوعية والعضوية في قصيدهم أما الفصل الرابع فخصصته لدراسة الموسيقى والأوزان والقوافي وقسمته

إلى مبحثين:

في المبحث الأول : درست الموسيقى الخارجية في قصيدهم وأشفعتها بدراسة موسيقا الموشحات التي هي تطور للموسيقا التقليدية. وأشرت إلى بنائها ومضامينها ولغتها، ثم درست القوافي في قصيدهم، وأشرت إلى تنوع القوافي في موشحاتهم.

وفي المبحث الثاني: درست الموسيقى الداخلية. ثم ختمت البحث.

بأهم النتائج التي توصل إليها والتوصيات.

الباب الأول : صورة العصر

الفصل الأول: الحالة السياسية

الفصل الثاني: الحالة الاجتماعية

الفصل الثالث: الحالة الأدبية والفكرية

المبحث الأول الحالة السياسية

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسي، أكثرها تشعباً، وأوفرها تبايناً واضطراباً، لا تكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر، من أشق المهام التاريخية.

ويشغل عصر الطوائف من تاريخ أسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً، منذ انهيار الخلافة الأندلسية، على إثر انهيار الدولة العامرية.. وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى، وانقسامها إلى وحدات متعددة تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك "الطوائف" تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها، أية رابطة، إلا أن تكون المناقسة، أو الحرب الأهلية في سبيل التوسع، وهذا البحر الخضم من المنافسات هو قوام عصر الطوائف^(١).

وهذه الدول الصغيرة المتخاصمة.. تعرف بدول الطوائف، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف وهم ما بين وزير سابق، وقائد من ذوى النفوذ والصب، وحاكم لإحدى المدن، وشيخ للقضاء، وزعيم من ذوى المال والحسب.. وقد ظهروا جميعاً إبان الفتنة، وبسط كل سلطانته، على ما أتيح له من المدن والأراضي.

لقد ألقينا رقعة الوطن الأندلسي الكبرى، قد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ستة مناطق رئيسية:

الأولى: منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضي الوسطى، والثانية منطقة طليطلة أو النجر الأوسط، والثالثة منطقة إشبيلية وغربي

(١) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي/ تأليف. محمد عبدالله عنان ط ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م القاهرة. مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر ص: ٣.

الأندلس وما إليها من الأراضي حتى المحيط الأطلنطي، والرابعة غرناطة وريّة والفرنثيرة، والخامسة منطقة شرقي الأندلس أو منطقة بلنسية، والسادسة منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. وهذا كله إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية التي استقلت بنفسها، واعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى، ثم اختفت تبعاً بالإنضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الأخرى^(١).

* دولة بني هود:

في سرقسطة وما إليها، ودام ملكها من سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م إلى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، وهي دولة عربية، ومن أشهر ملوكها المقتدر بالله وكان شاعراً، وابنه يوسف المؤتمن كان عالماً بالرياضيات.

* بنو رزين:

بالسهلة وحاضرتهم شنتمرية الشرق، أو شنتمرية عبود بن رزين، حكموا من سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م إلى ٤٩٧هـ/١١٠٦م. وبنو عبود من البربر الذين ولدوا بالأندلس، ومن ملوكهم عبدالملك بن عبود بن رزين.

* بنو حمود:

وهم ينتمون إلى علي بن حمود الحسني من عقب إدريس ملك فاس وبانيها. وقد عبر علي بن حمود مع البربر من المغرب إلى الأندلس بقصد إقامة دولة علوية فيها، وهناك دعا لنفسه بالخلافة، واستطاع أن يستولي على قرطبة سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م، وأن يقتل خليفة الأمويين سليمان المستعين وأن يلي الحكم بعده ويلقب نفسه بالناصر.

(١) دول الطوائف ص: ١٤ إلى ص: ١٧.

وقد تعاقب على الحكم في دولة بني حمود العلوية أحد عشر ملكاً، وتقلوا بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء، ثم انقرضت دولة الأشراف الحموديين بمقتل آخر ملوكها القاسم الواصل سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م .. وصارت الجزيرة الخضراء من بعدهم للمعتضد بن عباد.

* بنو عامر:

من أعظم ملوك الطوائف الموالي العامريون، وكانت حاضرتهم بنفسية، ومنهم زهير العامري الذي أخرج المؤيد هشام بن الحكم من "المرية" .. وقد حكم بنو عامر من سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م إلى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(١).

* بنو الأفتس:

كان أول من استبد بأمرها مولى فارسي الأصل يسمى سابور "توفى في ١٠ شوال ٤١٣هـ/ ٨ نوفمبر ١٠٢٢م"، وكان رجلاً أمياً قام بأمر دولته ابن مَسَلْمَة "٤١٣هـ/١٠٢٢م - ٤٣٧هـ/١٠٤٥م" مؤسس أسرة بني الأفتس "ومعناه بنو القرد" وأصلهم من برابر مكناسة. وأكبر أمراء هذه الدولة المظفر محمد بن عبدالله بن الأفتس "٤٣٧هـ/١٠٤٥م - ٤٤٥هـ/١٠٦٣م"، والمتوكل أبو محمد عمر بن محمد بن الأفتس "٤٦٠هـ/١٠٦٧م - ٤٨٨هـ/١٠٩٥م"، وفي عهدهما بلغت الإمارة أوجها"^(٢).

(١) الأدب العربي في الأندلس. الدكتور عبدالعزیز عتيق ط ٢ ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م. دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ص ٩٤ وما بعدها.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي آنخل جتال بالنيا. نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ببلون تاريخ ص:

* بنو عباد ومملكة إشبيلية:

تمكن القاضي أبو القاسم محمد بن عبّاد "المتوفي سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م" من القبض على نواصي الحكم في إشبيلية قبيل انتشار عقد خلافة بني أمية، وخلفه ابنه عباد الذي تلقب بالمعتضد^(١) ٤٠٣هـ/١٠١٢م - ٤٦٢هـ/١٠٦٩م^(٢)، وقد وصفه ابن بسام بـ "قطب رحي الفتنة ومنتهى غاية المحنة"^(٣). وولى ابنه المَعْتَمِدَ على الله سَلْبَ إلى أن توفى المعتضد بالله وخلفه المعتمد^(٤).

وما كانت سنة ٤٨٤هـ تطل حتى كان الزحف المرابطى يلبسهم دول الطوائف الواحدة تلو الأخرى، بقيادة سير بن أبي بكر، حتى وصلت جيوشهم إشبيلية فحاصرتها حتى استسلمت المدينة في أيديهم^(٥).

* بنو جهور:

في قرطبة من سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م إلى سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية. فتولى الأمر عميد طبقة الخواص في قرطبة أبو الحزم بن جهور^(٦). واستمرت حكومة ابن جهور زهاء اثنتي عشرة عاماً.. وكانت قرطبة في أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين، مثل عبدالعزیز البكري صاحب وُكُوبه وجزيرة شلطيش الذي لجأ إلى قرطبة حينما حاصره ابن عبّاد ونزع سلطانه، وكذلك القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء حين استولى عليها ابن عبّاد^(٧). ومن بعد جهور توارث الحكم أبناؤه.

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ص: ٨٦-٨٧.

(٢) المصمورة في عمارن أهل الجزيرة/ تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشترين/ تحقيق سالم مصطفى البديري ط١/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م منشورات دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ج٢ ص: ١٠٠.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ تأليف عبدالواحد المراكشي ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ط١/ ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م مطبعة الاستقامة القاهرة ص: ١١٧.

(٤) الشعر في ظل بني عباد/ تأليف محمد حميد السعيد/ ساعدت وزارة التربية علي نشره بدون تاريخ ص: ٣٨.

(٥) في الأدب الأندلسي. دكتور جودت الركابي. الناشر دار المعارف بدون تاريخ ص: ٢٤.

(٦) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ لابن عنزاري المراكشي/ تحقيق ومراجعة ج. س كولان وليسي بروفسال طه / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م. دار الثقافة بيروت - لبنان ص ٢٣١/٣.

* بنو ذي النون:

في طليطلة، ودام ملكهم من سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م إلى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م. وأصلهم من بربر المغرب، وكانت لهم دولة كبيرة، وبلغوا في البذخ والترف الغاية^(١).

* مملكة المريّة:

كان أول من استقل بالمريّة هو خيران الفتى العامري "٤٠٥-٤١٩هـ / ١٠١٤-١٠٢٨م" ثم صار الأمر من بعده إلى صاحبه زهير الفتى العامري "٤١٩-٤٢٩هـ / ١٠٢٨-١٠٣٧م" ثم ملكها المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور العامري ٤٢٩-٤٣٣هـ / ١٠٣٧-١٠٤١م ثم معن بن صمادح "٤٣٣-٤٤٣هـ / ١٠٤١/١٠٥١" ثم ابنه المعتصم "٤٤٣-٤٤٤هـ / ١٠٥١-١٠٩١م"^(٢).

* موقعة الزلاقة:

لم تكن موقعة الزلاقة نصراً لملوك الطوائف بقدر ما كانت نقلة مباشرة نحو انهيار حكمهم فما كانت سنة ٤٨٤هـ تطل حتى كان الزحف المرابطي يلتهم دول الطوائف الواحدة تلو الأخرى^(٣).

(١) الأدب العربي في الأندلس ص: ٩٨.

(٢) مملكة المريّة في عهد المعتصم بن صمادح / تأليف الدكتورة مريم قاسم طويل ط ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م. دار الكلب العلمية

بيروت - لبنان ص: ٢٩.

(٣) الشعر في ظل بني عباد ص: ٣٧ - ٣٨.

المبحث الثاني الحالة الاجتماعية

تألف المجتمع الأندلسي - عصر الطوائف - من أجناس متنوعة وأصناف متعددة من الأقوام التي عاشت متأخية .. وكانت غالبية المجتمع تتألف من السكان الأصليين الذين كانوا في الأندلس قبل فتح المسلمين، وأصولهم مختلفة، لأن بلاد الأندلس تعرضت لموجات كثيرة من الغزو، فنزلها السلتيون والجلالقه والقرطاجنيون ثم استولى عليها الرومان، والوندال والقوط، وقد أطلق على الذين دخلوا الإسلام منهم "الأسامة" والمسالمة.

وكان المسلمون من العرب والبربر يأتون بالدرجة الثانية فالعرب منهم يمنية وقيسية .. وأما البربر فكانوا زناتيين وصنهاجيين.

كان الخلفاء لا يميزون بين المستعربين، فتمتعوا بكامل حريتهم في ممارسة طقوسهم وشكلوا وحدات مزدهرة، لها كنائسها، وأديرتها، ورئيسها المسؤول، وجابيتها الخاص وقاضيها الذي يطبق في محكمته القانون القوطي القديم^(١)، وشغل عدد منهم مناصب حيوية مثل ابن المرعزي النصراني الإشبيلي الذي ظهر في دولة المعتمد بن عباد، وكان من مداحه^(٢) وابن النعزيلة اليهودي وزير باديس بن حبوس بغرناطة.

١ / الفقهاء:

كان للفقهاء مقام كبير لدى ملوك الطوائف، وتحدثنا المصادر الأندلسية عن دورهم، وكيف أنهم كانوا رافداً عظيماً من روافد الحياة الاجتماعية، لهم

(١) حضارة العرب في الأندلس. ليفي برونسال/ ترجمة فوقان مبحث قرقوط/ ط دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ. ص : ٧١ / وراجع الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين/ الدكتور منجد مصطفى مبحث ط١/١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م. مؤسسة الرسالة بيروت ص : ٢٦ - ٢٧.

(٢) المغرب في حلى المغرب/ لابن سعيد المغربي، حققه وعلق عليه د. شوقي ضيف ط٣، دار المعارف بدون تاريخ وراجع ١/٢٦٩. الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ص : ٢٧ - ٢٨.

رقابة شديدة على ما يجري في المجتمع وما يمارسه الخليفة، الذي لم يكن له الحق في التغيير أو التدخل في الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي، إنما كان يستعين بهم على حل المعضلات والمشكلات التي تدهم الدولة^(١) وقد سعى بعض ملوك الطوائف لتقريب كبار الفقهاء إما بترك حكم المدينة بيدهم، أو بإعفائهم من المغارم وهي وسيلة للتقريب^(٢).

٢ / مظاهر الترف في عهد الطوائف:

كانت الضرائب التي فرضها الأمراء على الناس. باهظة لحاجتهم إليها في سد ثغرات فتحوها على أنفسهم، وأكبر الثغرات ثلاث: الضريبة السنوية التي يتقاضاها الأذفونش، ثم الضريبة المفروضة لدفع مرتبات الجنود، وترفع كلما كانت الحروب والفتن دائرة بين الأمراء أنفسهم، وهي في الأحوال العادية "جزية" على الرؤوس تسمى - القطيع - وتؤدي مشاهرة، وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب وقبالات على كل ما يباع في الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد^(٣).

وقد زاد ثراء الأمراء بدرجة بالغة، وبالغوا في بناء القصور واقتناء الجواري^(٤)، ولم يكن هذا الثراء خاصاً بذوي القصور والأمراء، بل كان يشمل طبقات أخرى من أبرزهم التجار، وبخاصة تجار الرقيق، والمقربون من الحكام وطبقات الفقهاء^(٥).

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ص : ٢٨.

(٢) رثاء المدن في الشعر الأندلسي/ عبدالله عمدة الزيات ط١/١٩٩٠م منشورات جامعة قارون ص : ٥٩.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين/ إحسان عيسى ط ١٩٩٧م دار الشروق ص : ٣٣ - ٣٤.

(٤) الحلة السراء/ لامين الأبار "أبي عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي بكر القاضي". حقيقه وعلق حواشيه الدكتور حسين موسى ط ١ سنة ١٩٦٣م دار المعارف ص ٤٣/٢.

(٥) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص : ٣٥.

مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي - عصر الطوائف:

أُتيح للمرأة في المجتمع الأندلسي فرص التعليم والتنقيف، وكان لها دور كبير في النهضة الأدبية .. فسطع اسم الكثيرات من نساء الأندلس في دنيا الأدب مثل ولادة بنت المستنكي، وحمدة بنت زياد المؤدب وغيرهما، ولكن تعلم المرأة كان له آثاراً سلبية، إذ أتاح لها فرصاً كثيرة للهو والترف والمجون، وذلك لأن تعلمها حتم إختلاطها بالرجال كثيراً، وأبرزها إلى الأماكن العامة، والتجمعات المختلفة من أندية أدبية وتعليمية .. إلى أماكن للهو والخمر، والليالي الحمراء^(١).

(١) رثاء المدن في الشعر الأندلسي ص: ٥٣ - ٥٤.

المبحث الثالث الحالة الأدبية والفكرية

عندما انتهت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس في عهد الفتنة نوت الحضارة الأندلسية وخبث مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها وسطعت شمس الأدب والفكر، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفي سنة ٤٦٩هـ والشاعر ابن زيدون المتوفي سنة ٤٦٣هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفي سنة ٥٢٠هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكرهم ابن خاقان في "قلائد العقيان" والمقري في "تفح الطيب". بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا في طليعة الأدباء والشعراء^(١).

وقد كان من بين قصور الطوائف ثلاثة امتازت بنوع خاص، بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية، هي بلاط بني عبّاد بإشبيلية، وبلاط بني الأقطس ببطليوس، وبلاط بني صمادح بالمرية.

كان بنو عبّاد، من أعظم رواد النهضة الأدبية والفكرية التي سادت هذا العصر فقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عبّاد، وولده المعتمد، وكان بنو عبّاد .. يجمعون في بلاطهم جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه .. مثل إبي بكر بن عمار، وأبي الوليد بن زيدون وغيرهما.

وكان بنو الأقطس ملوك بطليوس، كذلك من حماة الشعر والأدب، وكان بلاطهم ولا سيما في عهد عميدهم المظفر، وولده عمر المتوكل، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر، وفي مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب أبو محمد عبدالمجيد ابن عبدون، وبنو القبطرنة الثلاثة أبوبكر وأبو محمد وأبو الحسن أبناء عبدالعزيز

(١) في الأدب الأندلسي ص: ٥٥.

البطليوسي .. وكان المظفر من أكابر أدباء عصره، وقد اشتهر بكتابه الأدبي التاريخي المسمى "بالمظفري".

وكان يجتمع في بلاط المرية حول بني صمادح، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب، في مقدمتهم أبو عبدالله بن عبادة المعروف بابن القزاز، وابن شرف وابن الحداد وغيرهم. وكان المعتصم بن صمادح من أكبر شعراء عصره، وكذا ولداه يحيى الملقب برفيع الدولة وأبو جعفر الملقب برشيد الدولة، وابنته أم الكرام من الشعراء الموهوبين بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب، لم تبلغ في القصور البربرية مبلغاً كبيراً، فلم تزدهر النهضة الأدبية في ظل بني ذي النون بطليطلة، ولم تجتمع في بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء .. وكذلك لم تشهد غرناطة في ظل بني مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن.

أما قصور الطوائف في شرق الأندلس، وفي سرقسطة، فكان لها شأن خاص في رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام^(١).

وكان عهد ملوك الطوائف متنفساً للعلوم العقلية فلقبت الدراسات الفلسفية التشجيع الكبير، واعتنى بصناعة المنطق الفقيه الأديب ابن حزم .. الذي خلف تآليف بلغت أربعمئة مجلد في نحو ثمانين ألف ورقة .. في الفقه والحديث والأصول، والملل والنحل والتاريخ وكتب الأدب.

ونبع في عصر الطوائف أيضاً ابن سيدة اللغوي الذي عني بعلم المنطق إلى جانب النحو، واللغة والأدب. وأيضاً ابن السيد البطليوسي، وكان عالماً باللغات والأدب، بالإضافة إلى علم الفلسفة الذي خلف فيه كتاب "الحدائق"^(٢).

(١) دول الطوائف ص: ٤٠٨ وما بعدها.

(٢) رثاء المدن في الشعر الأندلسي ص: ٦٢-٦٣. وللتنوع في هذا الموضوع راجع ملامح الشعر الأندلسي د. عمر السحاق/ دار الشروق بيروت بدون تاريخ ص: ١٨-١٩، وراجع جنوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس/ تأليف الحميدي أبي عبدالله محمد بن أبي نصر". ك١ ج١. حققه وقدم له ووضع فهرسه إبراهيم الأبياري ط٢ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار الكتاب المصري القاهرة ص: ٦١ وما بعدها، وراجع وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان "٦٠٨هـ-٦٨١هـ". حققه وعلق حواشيه وصنع فهرسه محمد محي الدين عبدالحيد ط١. مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ج٤ ص: ١١٢ وما بعدها.

الباب الثاني

أغراض الشعر وموضوعاته في عصر الطوائف

الفصل الأول

طبقات الشعراء

الفصل الأول

طبقات الشعراء

كان الناس في الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس؟

إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسي نقول: إن الشعر قد استطاع التغلغل في مختلف طبقاته، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه مستفيدين من ثقافتهم التي جاءتهم عن طريق التعليم، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة ينظمون الشعر^(١).

وإذا أردنا التعرف على حال الشعر وطبقات الشعراء في عصر ملوك الطوائف فإننا نتكى على ثلاثة أشياء هي:

- أولاً: الفرق بين شعر الملوك وشعر عامة الشعراء
- ثانياً: تفاوت أقدار الشعراء لدى الأمراء وأثر ذلك في شعرهم
- ثالثاً: الشعبية وأثرها في الشعر.

أما أولاً: فقد كان شعر الملوك يصور نفوسهم وواقعهم، بالرغم من عدم جزالته. فقد كان المتوكل بن الأقطس شاعراً وله نظم: "يزري بالدرُّ النظيم" كما قال ابن سعيد^(٢).

وقد طرق هؤلاء الملوك مختلف أغراض الشعر من غزل، ووصف طبيعة ووصف خمر ومراسلات شعرية، إلى غير ذلك من أغراض الشعر. وقل عندهم شعر المدح - وهذا أمر طبيعي - بينما كثر عند عامة الشعراء كثرة لافتة للنظر. وقد طغى شعر الغزل عند الملوك وكان غزلاً لاهياً ومتاعاً حسيماً، أما غزل عامة الشعراء فقد شاع فيه الأسى ومعالجة أسباب الحرمان، كما كثر شعر الفخر عند الملوك وقل عند عامة الشعراء.

(١) في الأدب الأندلسي ص: ٧٤-٧٥.

(٢) المغرب في حلي المغرب ج ١ ص: ٣٦٤.

أما ثانياً: فلم يكن الشعراء في منزلة واحدة لدى أمراء الطوائف بل كانوا منازل متفاوتة تفاوتاً واضحاً ترك آثاراً بارزة في شعرهم، فلكل طائفة حياة وأهداف، وشعرهم صورة من حياتهم وأهدافهم، وأصبح لكل شاعر فنه الخاص، وحبسنا أن نجلي أهم السمات العامة التي اتسمت بها كل طائفة، فهناك طائفة يمكن أن نطلق عليهم "المستقلين" الذين غنوا بشعرهم استجابة لما تتصف به عواطفهم وأحاسيسهم لا تهمهم رغبة الأمراء ولا يعينهم رضاء الملوك. وطائفة ثانية هي على النقيض، ونستطيع أن نسميها "المختصين" ويتمثلون في شعراء البلاط الذين يعينهم رضاء الأمير.

وطائفة ثالثة، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وهم "الجوالون" لا يكادون يستقرون في إمارة حتى يرحلوا منها إلى أخرى.

فمن المستقلين: جَنَّان الأندلس "ابن خفاجة" والأديب أبوطالب عبد الجبار وكلاهما من جزيرة سقر، وأيضاً أبو اسحاق الإلبيري الشيخ الزاهد الذي تفرغ للزهد. ولكل شاعر اتجاهاته الخاصة به فإين خفاجة أخلص لطبيعة بلاده وهبها كل عواطفه ومواهبه، وعرف أبوطالب بالعلم والفلسفة. ويعلق الدكتور شلبي على شعر هؤلاء "بأنهم لم ينمقوا أشعارهم، ولم يرصعوها بالمحسنات ولم يتقلوها بالمجازات والتصاویر"^(١).

أما الشعراء المختصون الذين يلزمون الأمراء فمنهم الوزير أبو عامر ابن مسلمة الذي اهتم كثيراً بوصف الرياحيين. وقد جمع له الحميري صاحب البديع في وصف الربيع أمثلة كثيرة من شعره^(٢)، ومنهم أبو بكر بن القوطية، والأديب أبو جعفر بن الأبار، ومن هذه الفئة الشعراء الذين نشأوا في بيئة الملك وذكرهم ابن خاقان في كتابيه "القلائد والمطمح"، وشعرهم يمتاز بالعزة وترف السلطان. منهم أبناء المعتمد بن عبّاد، وأبناء المعتصم بن صمادح وغيرهما.

(١) البيعة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف / تأليف / د / سعد اسماعيل شلبي ط دار لمحة مصر للطبع والنشر بدون

تاريخ ص : ٤١٢ وما بعدها.

(٢) راجع البديع في وصف الربيع / للحميري^٣ أبي الوليد بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري الإشبيلي. اعتنى بنشره وتصحيحه

الأستاذ هنري بريس ١٩٤٠م - ١٣٥٩هـ المطبعة الاقتصادية بالرباط ص : ١٦ وما بعدها.

ومن الشعراء المختصين شعراء البلاط الذين إذا مدحوا بالغوا في مدحهم بغية رضاء الأمير. كابن زيدون وابن عمار وابن الأبنية، وقد اهتمت كتب الأدب بهؤلاء الشعراء أكثر من غيرهم، وشعر هذه الفئة منقل بالمحسنات البديعية، والصور البيانية والنسج على منوال الشعر القديم، وعموماً كان لشعرهم قيمة عالية في اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال.

أما الطائفة الثالثة التي كُتِبَ عليها أن تجوب البلاد طويلاً وعرضاً ينتقل شعراؤها بين الإمارات يتكسبون بالشعر، وينتجعون الأمراء، فكانت بمثابة المورد الأكبر للطائفة الثانية، فكثيراً ما كان يتحول الشاعر من جوال .. إلى شاعر مقيم، ومن هذه الطائفة الشاعر "أبو الخطار عمر بن أحمد" وابن شرف القيرواني والأسعد بن بليظة. وقد تفاوت شعرهم قوة وضعفاً^(١).

أما ثالثاً: فإن الشعبية لم تفصح عن نفسها في بيان ووضوح - عصر الطوائف - فأغلب الحكام كانوا عربياً، يساندهم اللسان العربي، ويؤيدهم الدين الإسلامي الذي لم يفقد سلطانه على نفوس العرب والمولدين معاً^(٢).

وكل ما عثرنا عليه في هذا العصر رسالة نثرية ألفها "ابن غرسية" مولى أقبال الدولة بن مجاهد - ملك دانية - وفيها فضل العجم على العرب وعارضها جماعة من الفضلاء برسائل^(٣) وما عدا ذلك لا يوجد غير النزعة للتعصب الديني، والتصرفات الفردية من اليهود والنصارى، وهي تصرفات تخفي وراءها نزعات شعبية قابلها العرب بالثورة، مثل ما حدث في غرناطة التي أثار شعبها على اليهود - الحاقدين على الإسلام - أبو اسحاق الالبيري^(٤) يوم قال نونيته المشهورة:

أَلَا قُلْ لَصْنَهَا جَمْعِيْنَ بُدُورِ النَّدَى وَأَسْدُ الْعَرِيْنَ^(٥)

(١) البيعة الأندلسية وأثرها في الشعر ص: ٤٢٢.

(٢) نفسه ص: ٤٢٦.

(٣) المغرب في حلى المغرب، ج ٢ ص: ٣٥٥-٣٥٦.

(٤) هو إبراهيم بن مسعود بن سعد التميمي، كني بأبي اسحاق توفي في حدود سنة ٤٦٠هـ. راجع مقدمة ديوان أبي اسحاق الالبيري الأندلسي/ حقيقه وشرحه وقدم له الدكتور محمد رضوان الداية ط ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ص: ٧ وما بعدها.

(٥) ديوان أبي اسحاق الالبيري ص: ٨٩.

الفصل الثاني

الشعر الوجداني ويحتوى على خمسة مباحث

المبحث الأول : شعر الطبيعة

المبحث الثاني : شعر الغزل

المبحث الثالث : وصف الخمر

المبحث الرابع : الشكوى والغربة والحنين

المبحث الخامس : الفخر

المبحث الأول

شعر الطبيعة

قبل أن نتناول مضامين الشعر بشئ من التفصيل عند شعراء العصر الذي ندرسه نقول: إنه يمكن تقسيم الفنون التي قالوا فيها الشعر إلى ثلاث مجموعات. مثلت المجموعة الأولى مجموعة الفنون التقليدية التي جاروا فيها المشاركة، وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزائها وهذه الفنون هي: الغزل، والمدح، والثناء، والحكمة والزهد، وشعر الجهاد والاستعطاف والهجاء. والمجموعة الثانية هي أيضاً من الفنون التقليدية ولكنهم توسعوا فيها بالقول، وهي شعر الطبيعة ووصف الخمر، والحنين، وثناء المدن والفن الثالث هو فن استحدثوه ولم يسبقوا إليه وهو فن الموشحات.

وعن شعر الطبيعة الذي توسعوا فيه بالقول نقول: لقد منح الله الأندلس طبيعة فائقة، فكانت أغنى بقاع المسلمين منظرًا وأوفرها جمالاً، ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة، وتجري فيها الجداول والأنهار، وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيوار وتتساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة، ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوها المعتدل ويساتئنها المشرقة. وقد تحدث عن جمالها كل من حلها^(١).

وقد شبهها "جنان الأندلس" "ابن خفاجة" ت ٥٣٣هـ "بجنة الخلد بمائها

وظلها وأنهارها وأشجارها في قوله:

| | |
|---|--|
| مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ | يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ إِلَهِي تَرَكُمُ |
| وَهَذِهِ كُنْتُ لَوْ حُكِّمْتُ أَخْتَارُ | مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ |
| فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ ^(٢) | لَا تَنْقُوا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا |

(١) الطبيعة في الشعر الأندلسي. د. جودت الركابي ط ٢ مطبعة الترقى بدمشق ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ص: ٢٢.

(٢) ديوان ابن خفاجة/ تحقيق/ د/ السيد مصطفى غازي/ الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٠م ص: ٣٦٤.

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها، بل إن الحياة اللاهية .. التي عاشها الشعراء كانت سبباً لهذا الإزدهار إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية، وفي أحضانها استسلم للهوى وحبه وخمره، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب، في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان^(١).

ومن خلال دراستي لشعر الطبيعة عند شعراء الطوائف. ألفيت هذه الطبيعة تسيطر على شعرهم سيطرة لافتة للنظر، وتمتزج بكل أعراض الشعر عندهم وأجمل ذلك في عدة نقاط.

أولاً: مطالع القصائد:

لقد سيطرت الطبيعة على مطالع قصائد الشعراء سيطرة تامة وبقي - عصر الطوائف - شعراؤه وقيانه، ورواة الشعر في عهده يهتفون بالطبيعة ويرددون ألحانها، ويرددون نتاج الشعراء فيها، فقد نقشى استغلال الطبيعة في مطالع قصائدهم، يضعونها تيجاناً على رؤوسها، ويقتبسون من أزهارها وشياً يطرزون به ما يخلعون على ساداتهم من حلل الثناء، وكان ذلك تأثراً بالموروث من جهة وانفعالاً بطبيعتهم واستجابتهم لمؤثراتها من جهة أخرى^(٢).

وكانت الأسرة العبادية، من أشد الأسر كلفاً بالأزهار والورود، وقد صدر الشاعر أبو الحسن بن الأستجي قصيدة مدح بها المعتضد، بوصف الطبيعة وخص منها الشقائق في قوله:

إِنَّ الشَّقَائِقَ مِنْ حَمْرِ الخُدُودِ قَدْ أَشْبَهَتْ وَنَقَتْ وَمَسُوذَهَا مِنْ حَالِكِ اللَّمَمِ^(٣)

وامتزجت الطبيعة بوصف الخمر، وتصدرت قصائد الغزل، حتى الرثاء

- الذي هو من أبعد الفنون عن تصور امتزاج الطبيعة الفرحة به - فإننا نجد

(١) في الألب الأندلسي ص: ١٣١.

(٢) البية الأندلسية وأثرها في الشعر ص: ٧٣ - ٧٤.

(٣) الذمعة ج ٢ م ٨ ص: ١٢٤.

بعض شعراء فترتنا قد قدموا له بالطبيعة ومناجاتها مناجاة أشبه بالتشكى وطلب العون.

فهذا ابن حمد يس "ت ٥٢٧هـ" يقول في مقدمة رثاء جاريته جوهره، وقد قدم القصيدة بوصف الطبيعة والغزل:

أَيَا رَشَاقَةَ عُصْنِ الْبَانِ مَا كَصَرَكَ
وَيَا تَأْلَفَ نَظْمِ الشَّمْلِ مَنْ نَشَرَكَ^(١)

ثانياً: المزج بين الطبيعة وفنون الشعر:

كان الحديث السابق عن ظهور الطبيعة في مطالع القصائد، ونتطرق الآن إلى أثر آخر للطبيعة ظهر في صلب القصيدة، فالشاعر عندما يمدح أو يتغزل أو يشكو، أو يعزى أو يزهّد فإنه يحاول نسيان غرضه الرئيس من قصيده ويسلك طرقاً جانبية تستهويه. ونود أن نشير إلى هذه الطرق التي جذبتة. ومن هنا يكون الحديث عن الطبيعة أو بعض مظاهرها في قصيدة لم تتشد أصلاً لوصف الطبيعة، وهذا دليل على مقدار أهمية الطبيعة ومكانتها في نفوس الشعراء.

ونلمس هذا المزج في مديحهم كقول الأستجي مادح الأسرة العبادية:

فَدُّ قُلْتُ لِلرَّوَضِ وَنَوَارِهِ نَوْعَانِ بَرِيٍّ وَفَضِيٍّ
وَعَرَفَهُ مُخْتَلَفٌ طَيِّبُهُ صِنْفَانِ خَمْرِيٍّ وَمِهْكِئِيٍّ
وَوَجْهَهُ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ لَاحَ لِي وَهُوَ مِنْ الْبَهْجَةِ دُرِّيٍّ^(٢)

وظهر هذا المزج في شعر الفخر والتشكى، ووصف الخمر، والغزل،

وخير من يمزج الطبيعة بالغزل الشاعر الضخم ابن زيدون فانظر مثلاً قوله:

(١) ديوان ابن حمد يس / صححه وقدم له د. إحسان عباس. دار صادر بيروت بدون تاريخ ص: ٢١٢.

(٢) النخبة ج ٢ م ٨ ص: ١٢٤.

وَرَامِشَةٌ يَشْفَى الْعَلِيلَ نَسِيمُهَا مُضْمَخَةٌ الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةٌ النَّشْرِ (١)

وبعد أن عرفنا مدى حب أهل الأندلس لطبيعتهم الساحرة، ومزجهم لها بمختلف فنون الشعر. يجمال بنا أن نقف أمام تصاويرهم للطبيعة بمختلف مجالها حية كانت أم صامتة، سماوية كانت أم مصنوعة.

المطلب الأول:

الطبيعة الحية:

لقد وصف شعراء - عصر الطوائف - الجمال الطبيعي الحي في بلادهم، ممثلاً في الخيل، والابل، والنئاب، والكلاب، والزراف إلى غير ذلك من الحيوانات، كما وصفوا العصافير، والحمام، والنسور وما شابهها من الطيور، وامتد وصفهم للنمل، والنحل، والعقرب وغيرها من الحشرات، كما وصفوا الزواحف كالشعابين، والفضاحف. وبالجملة لم تقع أعينهم على شيء كائن في محيط طبيعتهم إلا وقفوا عنده وفصلوه وصفاً.

وشعر الطبيعة قديم عرفناه منذ العصر الجاهلي. ممثلاً في وصف امرئ القيس لفرسه، ثم لمسناه أيضاً في العصور التي تلت العصر الجاهلي. ومثل هؤلاء القدماء كان شعراء الأندلس، يتناولون هذه الموصوفات القديم منها والحديث، كما يقول الدكتور سيد نوفل: "في أسلوب ذاتي وروح حديثة" (٢).

ولنا أن نتعرض لبعض موصوفاتهم لطبيعتهم الحية والتي تمثلت فيها براعة نظمهم.

١/ الفرس:

تناول شعراء - عصر الطوائف - وصف الفرس، فوصفوا سرعته، وألوانه المختلفة الأثهب، والأشقر، والأدهم، ولم يجدوا في أغلب وصفهم له فكاكاً من الأوصاف المشرقية القديمة. فهذا ابن حمد يس يصف فرساً أدهما كان

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله/ شرح وتحقيق على عبدالعظيم/ دار لمحة مصر للطباعة والنشر بدون تاريخ ص: ١٢٢.

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي. د. سيد نوفل. القاهرة مطبعة مصر ١٩٤٥ م ص: ٢٨٣.

المعتمد بن عبّاد يؤثر ركوبه. ولمحنا من خلال وصفه أنه فرس حرب، وقد جمع الشاعر في وصفه بين القديم والحديث، فمن القديم، قيد الأوابد، ومن الحديث ما ظهرت فيه أثر الطبيعة الأندلسية إذ استغل الشاعر السنابل والحصاد يقول:

وَمُنْعَمِينَ فِي صِبْغَةِ اللَّيْلِ يَمْتَطِي إِلَى آجَلِ الْأَسَادِ قَيْدَ الْأَوَابِدِ
يَخْتَمُّ يُمْنَاهُ قَبِيْعَةً صَارِمٍ لِمَا قَدْ طَغَى مِنْ سُنْبُلِ الْهَامِ حَاصِدِ
يَكْرَهُ فِكْمَ جِسْمٍ عَلَى الْأَرْضِ سَاقِطٍ صَرِيْعٍ وَكَمْ رُوحٍ إِلَى الْجَوِّ صَاعِدٍ^(١)

٢ / الذئب:

وكان مما عني به المشاركة في شعرهم وصف الذئب فجمعوا بين غربتهم وغربة الذئب في الصحراء وبين ما يعانون من ضيق وشدة وجوع .. وبين الذئب الذي يعاني مثلهم هذه الأمور، وكان من البدهي أن يهتم الأندلسيون بهذا الفن ويسهموا في معالجته أسوة بإخوانهم الشعراء المشاركة ولم يكونوا مقصرين في هذا، فتركوا العديد من النصوص الشعرية في وصفه^(٢).

فابن خفاجة يقدم لنا لوحة أدبية رائعة في وصف الذئب وقوته في الليل وتحت أستار الظلام مع ما يكابده من شدة الجوع، وقد تقاذفته الرياح القوية، فبدأ وكأنه عاجز عن بلوغ أمانيه لأنه وجد نفسه أمام فارس قوى، فوقف الذئب في هذا الموقف متردداً حائراً فقد كان جوعه يدفعه للهجوم ولكن سرعان ما يردده خوفاً من الفارس، وتركنا ابن خفاجة أمام هذه المعركة المتوقعة دون حسم أو ترجيح كفة واحد من الخصمين يقول:

وَأَطْلَسَ زَوَارٍ مَعَ اللَّيْلِ أَعْبَسُ سَرَى خَلْفَ أَسْتَارِ الدُّجَى يَنْتَكِرُ
تَنَاعَبَ مِنْ مَسِّ الطَّوَى فَهُوَ يَشْتَكِي فَيَعْوِي وَقَدْ لَقَّاهُ نَكْبَاءُ صَرُصَرُ

(١) ديوان ابن حمد بس ص: ١٢٧، وراجع ص: ٢٣١. و ص: ٢٢٩.

(٢) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف وللرابطين. د. حازم عبدالله محضر. دار الشؤون الثقافية بفساد ١٩٨٧م

وَدُونَ أَمَانِيهِ شَرَارَةٌ لَهُذِمَ
فَمِنْ جَوْعَةٍ تُغْرِيبُهُ بِي فَهُوَ يَنْبِي
يَقْلَبُ فِيهَا مِثْلَهَا حِينَ يَنْظُرُ
وَمِنْ رَوْعَةٍ تُثْنِيهِ عَنِّي فَيَقْصُرُ (١)

وهكذا يطيل الشعراء في وصف مختلف الحيوانات (٢).

* الطيور:

لقد عني شعراء - عصر الطوائف - بوصف مختلف أنواع الطيور، ولعل أكبر شاهد علي هذه العناية ما قاله ابن زيدون في وصف أنواع من الطيور، ووصفه هذا يخنينا ويبين لنا أنواع الطيور التي عاشت في الأندلس، فقد كتب هذا الشاعر إلى المعتمد بن عباد معنى غم معناه، وصعب مرامه ما لم يبح بسره طائر القمري أو العصفور، أو البلبل، واللفظ مكرور، ثم مضى يذكر أنواعاً كثيرة من الطيور، كالنسر، والشفنين - وهو نوع من الحمام -، ثم الغراب الأسود، والدراج، والزرزور، والغرنيق - وهو طائر مائي عريض الجناح طويل الساق - والمكاء - وهو طائر من القنابر أبيض اللون وله صفير حسن - ثم ذكر الشرشور - وهو طائر يسمى أيضاً البرقش، والباشق، وإذا حلق الشاهين - وهو نوع من الصقور الجارحة - فالعصفور مذعور، ثم يطلب من المعتمد أن يسأل

المكاء ليصدقه القول، فاستمع معي لابن زيدون وهو يقول:

| | |
|---|--------------------------------------|
| وَإفَّاكَ نَظْمٌ لِي فِي طَيْبِهِ | مَعْنَى مَعَمَى اللَّفْظِ مَسْتَوٍ |
| مَرَامُهُ يَصْعَبُ مَا كَمْ يَبْح | بِالنَّسْرِ قُمْرِيٍّ وَعُصْفُورٍ |
| وَبَلْبَلٍ؛ ثُمَّ يَكْرُرُ اللَّذَا | تَقَدَّمَ فَالْلَفْظُ مَكْرُورٌ |
| ثُمَّ تَرَى الْبَلْبَلَ، قَدْ حَنَّاهُ | نَسْرًا، بِهِ الشَّفْنِينُ مَنْسُورٌ |
| ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ يَتْلُوهُ فَمَ | رِيٍّ وَدُرَّاجٍ وَزُرُورٍ |

(١) ديوان ابن خفاجة ص: ١٨٠، ولوصف الكلاب راجع ص: ٥٤.

(٢) في وصف الأبل راجع ديوان ابن حمد يس ص: ٢٩٢، وراجع قول ابن مقان في وصف الخنازير في الذخيرة ج ٢ م ٣٠ ص:

٤٦٦. وفي وصف الزرافة راجع ديوان ابن شرف القيروان تحقيق د. حسن ذكري حسن، مكتبة الكليات الأزهرية بدون تاريخ:

ص: ٥٣ - ٥٤. وفي وصف السلاحف راجع وصف ابن سارة الشتريني في فلكلاند العقيان وحماسن الأعيان. تأليف أبي نصر

الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان. حققه وعلق عليه - د. حسين يوسف نجوبوش. مكتبة المنار

ط ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ق ٤ ص ٨٣٢.

نَمَّ يَلِي الدَّرَاجَ مِنْ بَعْدِ عِرِّ
 وَيَأْشِقُ نَمَّ إِذَا كَلَّفَ الشَّ
 نَمَّ سَلَّ الْمَكَاءَ يَصْدُقُكَ وَالْ
 وَإِنْ جَرَى الدَّرَاجُ فِي إِثْرِهِ الزَّ
 وَنَمَّ فَأَعْلَمَ أَنَّ مَوْضُوعَهَا
 وَفِي الَّذِي عَمَسَتْ نَصْحٌ لِمَنْ
 نَيْقٌ وَمَكَاءٌ وَسُرُّشُورٌ
 أَهَيْنُ فَالْعُصْفُورُ مَذْعُورٌ
 عُصْفُورٌ وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورٌ
 زُرُورٌ فَالْمَطْوِيُّ مَنَشُورٌ
 حَرْفٌ لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورٌ
 حَذَّ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَشْكُورٌ (١)

ويكثر الشعراء من وصف الطيور (٢) كما تناولوا في شعرهم أيضاً وصف
 بعض أنواع الحشرات كالنحل، والنمل، والعقرب، والبعوض، والفراش. وقد
 يشبهون حقارة الناس وقلة منزلتهم بالذباب مثلما صنع ابن زيدون عندما تحدث
 عن حساده واستصغر شأنهم مقابل مآثره في قوله:

إِذَا رَأَى حُسْنَ الرَّوْضِ أَوْ قَاحَ طَيْبُهُ فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابٌ (٣)

المطلب الثاني:

الطبيعة الصامتة:

أعنى بالطبيعة الصامتة ما جاء في وصف - شعراء الطوائف - للرياض
 والبساتين وأنواع الأزهار والرياحيين، والأشجار والثمار، والأنهار والغدران،
 إضافة إلى وصف الربيع وجماله وما يضيفه على الرياض من صفاء وبهاء.

(١) ديوان ابن زيدون ص: ٦١٧.

(٢) في وصف النسر راجع ما قاله أبو تمام بن رباح الحمام في رايات الموزين وغايات المميزين / لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد
 الأنلسي / حققه. د. محمد رضوان الداية ط ١٩٨٧ م. دار طلائع للدراسات والترجمة والنشر ص: ١٤٣. ولوصف العقاب
 راجع للشاعر نفسه الذخيرة ج ٣ م ٣٤ ص: ٥٤٢ وراجع وصف الديك للأسعد بن بليطة في نفع الطيب من غصن الأنلسي
 الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. للشيخ أحمد بن محمد المقرئ الطمساني. حققه ووضع فهرسه الأستاذ.
 يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ج ٥ ص: ١٩٤-١٩٥. وراجع
 ديوان ابن حمد يس في وصف الحمام ص: ٣٦١.

(٣) ديوان ابن زيدون ص: ٣٨٢.

وقد اهتم الشعراء كثيراً بوصف الرياض والبساتين، وكان من مظاهر هذا الإهتمام تأليفهم الكثيرة فيها وما يتصل بها يقول صاحب "الجنوة" عن محمد ابن عبدالله بن مسلمة: "أديب عالم شاعر .. رأيت له كتاباً سماه - كتاب الارتياح بوصف الراح - نكر ما قيل فيها، وفي الرياض، والبساتين والنواوير، واحتفل في ذلك^(١). وبين أدينا كتاب "البديع في وصف الربيع" ألفه الحميري، وقد نكر في مقدمته سبب تأليفه لهذا الكتاب. من أن شعراء أهل بلده قد أهملوا شعرهم ولم يسجلوه، وقسم كتابه إلى ثلاثة فصول، عنى في الفصل الأول بالقطع في الربيع التي لم يُسمَّ فيها نور ولا قصد بوصفها منه نوع، وفي الفصل الثاني، كانت القطع التي لم تتفرد بوصف نوار بل اشتملت على وصف نورين أو أنوار، وفي الفصل الثالث كانت القطع المنفردة كل واحدة منها بنور على حدة^(٢).

أولاً: الروضيات:

لقد ازدانت رياض الأندلس بكل أنواع الزهور والنواوير الجميلة وإزاء هذه المناظر الخلابة، كان لأبد للنفوس الشاعرة أن ترتشف من رحيق مفاتن الرياض، وتصوغه شعراً عذباً يدق في مسمع الدهر. فها هوذا الحميري، يحدثنا في "بديعه" عن أبيات لابن القوطية - أحد خواص المعتضد بالله - شبه فيها الأخير الروض بالصانع، وأبيض نوره وأصفره بدرامه ودنانيره. وانتشرت ريح الرياض الزكية كأنما فتها عليها العطار يقول:

وَكَأَنَّما الرِّوْضُ الأَنْبِقُ وَقَدْ بَدَتْ مُتَكَرِّمَاتُ غَضَّةٍ أَنْوَارُهُ
بَيْضاً وَصُفْراً فَأَقْعَاتُ صَانِعٍ لَمْ يَنَأْ بِرْهَمَةٍ وَلَا دِينَارُهُ
سَبَّكَ الخَمِيلَةَ عَسْجَداً وَوَدَّيَالَةَ لَمَّا عَدَّتْ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ نَارُهُ
فَتَوَسَّدَ الدِّيَاجَ وَافْتَرَشَ لُهُ التَّوَشَّى الَّذِي مِنْ غَيْرِ صُنْعَا دَارُهُ^(٣)

(١) حلوة المقيس ج ١ ص ٢١٣: ترجمة رقم : ٨٩.

(٢) راجع البديع في وصف الربيع ص : ٢ وما بعدها.

(٣) البديع في وصف الربيع ص : ٢٠ - ٢١.

ثانياً: الزهريات:

١/ الورد:

لقد أعجب الأندلسيون بالورد، وهاموا بحبه هياماً ظاهراً. فنحن نرى ابن حبيب يجعل الورد خد الربيع، وأقامه في طليعة الأزهار، فهو سابق وفي ركابه يأتي الربيع يقول:

أَنْظُرْ إِلَيَّ خَدَّ الرَّبِيعِ مُرَكَّباً فِي وَجْهِ هَذَا الْمَهْرَجَانِ الرَّائِقِ
وَرَدُّ نَفْسِي إِذْ تَأَخَّرَ وَأَعْتَدَى فِي الْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ أَوْلَسَابِقِ^(١)

٢/ البهار:

قال أبو الوليد: ويسمى البهار النرجس وأكثر أشعار المشرقين اسمه فيها النرجس وأما الأندلسيين فاستعملوا الإسمين وذكروا اللغتين^(٢) فأبو عامر بن مسلمة يجعل البهار رائد الربيع، ويصف حسنه الرفيع في قوله:

قَدْ جَاءَنَا رَائِدُ الرَّبِيعِ بِمَنْظَرِ رَائِقِ بَدِيعِ
هُوَ الْبَهَارُ الَّذِي تَعَلَّى وَجَلَّ فِي حُسْنِهِ الرَّفِيعِ^(٣)

٣/ شقائق النعمان:

ولعل من أجمل ما قيل في وصف الشقائق ما قاله ابوالحسن بن الأستجي عندما استغل وصف الشقائق، لمدح المعتضد بالله. -وعندي- أن الشاعر قد وفق غاية التوفيق في وصفه يقول:

إِنَّ الشَّقَائِقَ مِنْ حُمْرِ الْخُدُودِ قَدْ لَشَّ وَنَقَتْ وَمَسَّوْهَا مِنْ خَالِكِ اللَّمَمِ
كَأَنَّهَا فِي الْمُرُوجِ الْخَضِرِ أَنْبَاءُ حُمْرٌ قَدْ اضْطَرَبَتْ مِنْ قَائِي الْأَدَمِ

(١) البديع لى وصف الربيع ص: ١٢٨.

(٢) نفسه ص: ٩٦.

(٣) نفسه ص: ١٠١.

يَا ابْنَ الَّذِي قَدْ حَمَاهَا فِي مَنَابِتِهَا
 قَلَمٌ تَزَلُّ فِي حِمَى مِنْهُ وَفِي حَرَمِ
 مَعْرُوفَةٍ بِاسْمِهِ فِي كُلِّ مُطَّلَعٍ
 مَحْفُوظَةِ الْمُنتَمَى مَرَعِيَةِ الزَّمَمِ
 جَدَّدَ لَهَا مِنْ وَكَيْدِ الْعَهْدِ حُرْمَتَهَا
 وَصَلَّ لَهَا مُحَدَّثَ الْإِكْرَامِ بِالْكَرَمِ (١)

ويمضي شعراء الطوائف في رسم لوحات شعرية واصفة لمختلف أنواع
 الازهار من بنفسج، وياسمين، وسوسن، وخيري نام، وخيري أصفر، وخرم،
 وآس، ونيلوفر، وأقحوان. ومختلف أنواع النواوير. كنور اللوز، ونور الباقلاء،
 ونورالكتان. ومختلف أنواع الثمار كالتفاح، والعنب، والرمان والنانج،
 والسفرجل وغيرها (٢).

٤ / الأنهار والبحار والأساطيل:

تناول الشعراء وصف الأنهار والبحار، وتوجسوا خيفة من البحار
 فالمعتمد يبعث لأبي العرب الصقلي يستدعيه وكان الأخير بجزيرة صقلية فيرد
 أبو العرب بقوله:

أَلْبَحْرُ لِلرُّومِ لَا تَجْرِي الشِّفِينُ بِهِ إِلَّا عَلَى عَرَبٍ وَالْبَرْ لِلْعَرَبِ (٣)
 وبمرور الزمن تتوثق علاقة الشعراء بالبحر لكثرة الرحلات عليه.
 فأبوالحكم عمر بن مذحج يجوز البحر مع أبي العلاء بن زهر - طبيب المعتمد -
 ويمدحه بنفس هادئة غير فزعة. فالبحر عنده تهب ريحه رخاءً، وأبو العلاء أكثر
 سخاءً منه، والبحر يصفو هيبته منه، وإجلالاً له، فهيبته أقوى من البحر، والبحر
 أرض ذلول فالبحر ممدوحه يقول:

مَا تَرَى الرِّيحَ كَيْفَ هَبَّتْ رِخَاءً
 لَكَ بَعْدَ الْهُبُوبِ رِيحاً خَرِيقاً
 وَضَحَى الْبَحْرُ هَيْبَةً لَكَ لَمَّا
 جِئْتَهُ سَالِكاً عَلَيْهِ طَرِيقاً
 غَمَرْتَهُ مِنْ رَاحَتِكَ بِحَارٍ
 صَاحَ مِنْ مَوْجِهَا الْغَرِيقَ الْغَرِيقاً

(١) اللخيرة ج ٢ م ٨ ص : ١٢٤.

(٢) راجع البليغ في وصف الربيع ص : ١٤٧ وما بعدها.

(٣) راجع مقلعة ديوان ابن حمد يس ص : ٤.

فَرَقَ اللُّجَّ مِنْكَ حَتَّى اسْتَطَارَتْ مِنْهُ أَحْسَاؤُهُ فَرِيقًا فَرِيقًا
جَزَهُ يَا ابْنَ الْكِرَامِ أَرْضًا ذُلُولًا أَوْ فَقَدَهُ إِنْ شِئْتَ طَرْفًا عَنِّيكَ
وَأَنْتَضِ الْحَزْمَ حَيْثُ كُنْتَ حُسَامًا وَاصْحَبِ النَّجْحَ حَيْثُ كُنْتَ رَفِيقًا^(١)

أما الوصف الشائق الجذاب الذي يعد مظهرًا من مظاهر حضارتهم، ويدل على تقدمهم، فهو وصف الأساطيل ولعبها يوم المهرجان، إذ نرى من خلال الوصف أن رجال الأسطول كانوا يقومون باستعراض مهاراتهم في التعامل معها، على مشهد من الناس. فابن اللبانة^(٢) ت ٥٠٧هـ "يصف سفن الأسطول فيقتبس لوصفه قول الله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)^(٣) ثم يشبه هذه

السفن بطيور الشواهين الجارحة فيقول:

لَكَ الْمُنْشَآتُ الْجَارِيَاتُ كَأَنَّهَا ضَوَارِي شَوَاهِينِ عَلَى الْمَاءِ حَوْمٍ
هِيَ الْعَيْدُ وَاقَتْ مِنْكَ فِي الصَّدِّ عَيْدُهَا فَمِنْ مُوسِمٍ فِي مُوسِمٍ طَى مُوسِمٍ^(٤)

وعن وصف الأنهار، فابن ساره يتخيل نهره فتاة رقيق الخصر تسدل على جسمها ثوباً شفافاً مصبوغاً بالأحمر الوردي، عندما انعكست عليه أشعة الأصيل، ثم يأتي بصورة حسية مبتكرة، وهي تشبيهه لتحرك النهر بأواجه، بطيات خصور النساء التي تهزها أعجازها عند المسير يقول:

النَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غُلَّالُهُ صَبْغُهُ فَعَلَّيْهِ مِنْ صُنْعِ الْأَصِيلِ طِرَازُ
تَنْزَقُ الرُّقُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّه عَكَنُ الْخُصُورِ تَهْزُهَا الْأَعْجَازُ^(٥)

(١) الذخيرة ج ٢ م ٢٢ ص : ٣٥٠.

(٢) سورة الرحمن الآية : ٢٤.

(٣) شعر ابن اللبانة اللان. جمع وتحقيق. د. محمد مجيد السعيد. منشورات جامعة البصرة ١٣٩٧هـ/٢٢٩٧٧ م ص : ٩٧. وراجع

ديوان ابن حمد يس ص : ٢٥.

(٤) قلائد العقيان ق ٤ ص : ٨١٩.

المطلب الثالث:

الطبيعة السماوية:

ويدخل في ذكر الطبيعة السماوية ما وصفه الشعراء من بدر يشد الانتباه باكتماله، ومن نجوم، وشهب، وبرق، وليل. وقد أتوا بالبدیع الرائع في ذلك.

١/ البدر:

أكثر شعراء الطوائف من النظر إلى العلويات، وكثيراً ما أثارهم منظر البدر. فابن سارة يقف أمام البدر المنير يتأمله، ويصفه ويربط بينه وبين ما يحيط به، فقد كان البدر يعكس ضوءه المشرق على ماء الغدير، وعندما تنعكس صورته على سطحه يبدو كما لو كان حجر مسن أخضر، وقد نقشت عليه خطوط ذهبية لا معة يقول:

أَنْظُرُ إِلَى الْبَدْرِ وَإِشْرَاقِهِ
عَلَى غَدِيرٍ مَوْجُهُ يَزْهَرُ
كَمْشَحَذٍ مِنْ حَجَرٍ أَخْضَرٍ
خَطَّ عَلَيْهِ ذَهَبٌ أَحْمَرُ (١)

ومن طريف ما قيل في وصف الطبيعة السماوية ما قاله أبو عامر ابن مسلمة، حين جمع بين السحاب، والرعد، والبرق، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، وقد انتقبت الشمس بالسحاب، وبكى الغيم، وضحك البرق، وخطب الرعد، وحزن الجو، فهذه صور تشخيصية عمد إليها الشاعر لإبراز صورته لهذا اليوم الممطر يقول:

يَوْمٌ كَانَ سَحَابُهُ
كَجَبَّتْ بِهِ شَمْسُ الضُّحَى
وَالغَيْمُ يَبْكِي فَقَدْ ذَكَهَا
وَالرَّعْدُ يَخْطُبُ مَفْصِحاً
لَيْسَتْ عَمَامِي الْمَصَامِتُ
بِمِثَالِ أَجْنَحَةِ الْفَوَاحِشِ
وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ ضَحْكَ شَامِتٍ
وَالجَوُّ كَالْمَحْزُونِ سَاكِتٍ (٢)

(١) نفع الطيب ج ٥ ص : ١٢٧. وراجع قول الأسعد بن بلطة في البرق في الدهيرة ج ١ ص : ٣٢٢ : ٤٩٩.

(٢) فلاد المعيان ق ٢ ص : ٢٥١ - ٢٥٢، وراجع نفع الطيب ج ٥ ص : ١٥٣.

ويدخل في وصف الطبيعة السماوية ما قاله الشعراء في وصف فصول السنة. ويبدو أن طبيعة بلادهم الجميلة قد ألهمتهم عن وصف الصيف وحره، واحتفلوا بالربيع فالحميري يقول: "فصل الربيع أرج وأبهج وأنس وأنفس وأبدع وارفع من أن أجدَّ حسن ذاته وأعدَّ بديع صفاته"^(١).

فالربيع عندما يلبس بزود شبابه يكون عند ابن الأبار "ت ٤٣٩ هـ" ملك الفصول، تراه متبرجاً في وهاد الأرض وهضابها. ويقدمه تتفتح الأنوار، وتخضر الأشجار. ثم يمضي الشاعر فيعقد مناظرة بديعة بين شمس الأصيل الذهبية - لهذا الفصل - وبين دمع الحباب الفضي، فبدا المنظر بديعاً يقول:

| | |
|---|--|
| لَيْسَ الرَّبِيعُ الطَّلَقُ بَزْدَ شَبَابِهِ | وَأَفْتَرَّ عَنْ عَتَابِهِ بَعْدَ عَتَابِهِ |
| مَلِكُ الْفُصُولِ حَبَا النَّرْيِ بِثَرَاتِهِ | مُنْتَبِرِجاً لَوْكَادِهِ وَهَضَابِهِ |
| قَارَاكَ بِالْأَنْوَارِ وَنَسَى بُرُودِهِ | وَأَرَاكَ بِالْأَشْجَارِ حُضَرَ قَبَابِهِ |
| أَمْسَى يَذْهَبُهَا بِشَمْسِ أَصِيلِهِ | وَغَدَا يُفَضِّضُهَا بِدَمْعِ جَنَابِهِ |
| عَقَلَ الْعُقُولَ فَمَا تَكَيْفَ حُسْنُهُ | وَتَنَى الْعَيُونَ جَنَاباً بِجَنَابِهِ ^(٢) |

المطلب الرابع:

الطبيعة المصنوعة:

والطبيعة الصناعية هي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك^(٣). وقد حفظ لنا التاريخ الأدبي الكثير من شعراء الطوائف الذين اختلفوا بوصف القصور وما يتصل بها من زخارف ونقوش، وهم كثر نعد منهم ابن زيدون، وابن عمار، وابن وهبون، وابن الحداد وغيرهم.

(١) مقدمة كتاب "الربيع في وصف الربيع" ص: ١.

(٢) الربيع في وصف الربيع ص: ٢٤. وراجع قول ابن سارة في وصف الليل في الذخيرة ج ٢ ص ٣٢٢. ووصف ابن

برد الليل في الذخيرة ج ١ ص ٢١٢. وكذلك وصف الأسد بن بيطنة في الذخيرة ج ١ ص ٣٢٢. ٤٩٨.

(٣) الطبيعة في الشعر الأنثلي ص: ١٢.

وربما كان السبب في اهتمام الشعراء بوصف القصور، هو اهتمام الملوك
بتشييد القصور الفخمة واهتمامهم بمظاهر الأبهة. فالمعتمد يحدثنا عن فواره
بقصره، ويربط بين وصفها وبين السيف يقول:

وَلَرُبَّمَا سَلَّتْ لَنَا مِنْ مَائِهَا
طَبَعَةُ لُجِيًّا فَذَابَتْ صَفْحَةً
سَيْفًا وَكَانَ عَنِ النَّوَظِرِ مُغْمَدًا
مِنُهُ وَلَوْ جَمَدَتْ لَكَانَ مُهْنَدًا (١)

وقد تناول بعض الشعراء وصف القصور وحنوا إليها كحنين ابن عباد
لقصوره المشيدة: المبارك، والثريا، والزاهي، والوحيد. ولبعض هذه الأسماء
دلالتها على حبهم للطبيعة. فالمعتمد يشرك الطبيعة معه في الحنين إليها فيقول:

بَكَى الْمُبَارِكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَادٍ
بَكَتْ ثُرَيَّا لَأَعْمَتْ كَوَاكِبُهَا
بَكَى الْوَحِيدُ بَكَى الزَّاهِي وَقَبِيئُهُ
مَاءَ السَّمَاءِ كَلَى أَبْنَائِهِ ذُرٌّ
بَكَى عَلَى أُنْثَرِ غِرْلَانٍ وَأَسَادٍ
بِمَثَلِ نَوْءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الْغَادِي
وَالنَّهْرِ وَالنَّجْمِ كُلِّ ذَلَّةٍ بَادِي
يَا لَجَّةِ الْبَحْرِ دُومِي ذَاتَ إِزْبَادٍ (٢)

وغير القصور والنوافير، وصف الشعراء الحمامات والشموع والنار
وغيرها (٣).

وقبل أن نختم حديثنا عن وصف الطبيعة. يجمل بنا أن نشير إلى أهم
خصائص هذا الوصف. ولعل من أهم الخصائص شمول الوصف. كما رأينا
سابقاً احتلال الطبيعة لمطالع القصائد ثم تغلغلها في صلب القصيدة. وأيضاً
وصفهم لجميع مجالات الطبيعة الحية، والصامتة، والصناعية.

ومن الخصائص غلبة التشبيه والاستعارة على أساليبهم. وكلا الأسلوبين
أسلوب التشبيه واسلوب الاستعارة، يدل على خصب الخيال وسعته وعمقه. وأيضاً

(١) ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق. د. رضا الحبيب السويبي. الدار التونسية للنشر ١٩٧٥ م ص ٧٩.

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ص: ١٦١، وراجع وصف ابن وهيون للزاهي - أحد قصور المعتمد - في الذخيرة ج ٢ م ٢٠ ص:

٣٠٦. ووصف ابن الحمام للثريات. في الرايات ص: ١٤٣، ووصف المفضل للحمامات في السلخيرة ج ١ م ١٢ ص: ١٨٥ -

ووصف أبي القاسم بن مرزقان للشموع في الذخيرة ج ٢ م ٢٠ ص: ٣١٣.

(٣) راجع القلاهد ق ٤ ص: ٨٢٨.

الميل الواضح إلى التحرر من الألفاظ القديمة الخشنة، واختيار الألفاظ اللينة
الرفيعة التي هي مادة لتصوير الطبيعة.

وأيضاً قلما يأتي شعر الطبيعة عندهم كغرض قائم بذاته اللهم إلا في
القطع القصار. والوصف في هذه القطع يأتي ممزوجاً بأحاسيس الشاعر وفكره،
وانفعاله نحو منظر بديع. وهذه المقطوعات كثيراً ما تناولت وصف الطبيعة
الصامته.

ومن الخصائص أيضاً، التغزل في الطبيعة فعندما يقف الشاعر أمام جمال
الطبيعة، يشاهد فيها فتاة حسناء فيمضي في التغزل فيها. وهذا كثير عند ابن
زيدون، وابن خفاجة.

ومن الخصائص أيضاً الوصف المرح - كما مر بنا - والوصف الحزين.
فالأحداث الجسام التي مرت بالأندلس، واضطرت الشعراء إلى مفارقة أوطانهم
والإقامة في البلاطات. هذه الأحداث حتمت على الشاعر منهم الوقوف أمام
الطبيعية والإبتهاج في وصفها، حتى ولو لم تكن دواخله مبتهجة. فابن عمار
عندما مدح المعتضد بقصيدته التي استهلها بوصف الطبيعة والخمر في قوله:

أدر الزجاجاة فالنسيم قد أنبري والنجم قد صرف العنان عن السري^(١)
فهذه القصيدة مع جمالها ورقتها شيء، ونفس الشاعر شيء آخر لأن ابن
عمار قالها استرضاءً للمعتضد عندما فرق بينه وبين صديقه المعتمد، وقد قدم
صاحب القلائد لهذه القصيدة بقوله: "وفي أيام خموله وعزيمه عن مأموله أنشد
المعتضد بالله..."^(٢).

هذه بعض خصائص شعر الطبيعة عند شعراء العصر الذي ندرسه وكان
لا بد من الإشارة إلى أهم هذه الخصائص. وذلك لقيمة الطبيعة عند الأندلسيين،
ولضخامة هذا الغرض في شعرهم.

(١) ديوان ابن عمار. د. صلاح خالص. مطبعة الهدى بغداد ١٩٧٥م ص: ١٨٩ وما بعدها.

(٢) القلائد ٤ ص: ٢٨١.

المبحث الثاني

الغزل

فرق ابن رشيقي - وهو من أدباء عصر ملوك الطوائف - بين الغزل والتغزل والنسيب والتشبيب، فقال: "والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد. وأما الغزل فهو ألف النساء والتخلق بما يوافقهن^(١). وعموماً يعد الغزل من أوسع أبواب الشعر التي طرقها الشعراء في مختلف العصور، فما من شاعر إلا وأدلى بنبوئه فيه، فهو أحب الفنون الشعرية إلى القلوب، وأكثرها تأثيراً في النفوس، وأشدّها علوقاً بالأذهان، وأخفها نغماً في اللسان. وقد تعددت اتجاهات الغزل في الأندلس - عصر الطوائف - ولنا أن نشير إلى الإتجاهات في بعض المطالب.

المطلب الأول:

الغزل العفيف:

كان للمركز المهم الذي تحتله المرأة في الطبقتين الأرستقراطية والوسطى، وما كانت تحاط به من هالة الاحترام والتقدير، وما يشعر المحب تجاهها من معاناة ومتاعب للوصول إليها والالتقاء بها، كان لكل ذلك كبير أثر في إيجاد نوع من الغزل الذي يتحدث عن المواقف والأشواق والتطلعات التي يحسها المحب تجاه الحبيب البعيد المنزل، ويعبر عن الآلام التي يعيشها ويعانيها من جراء البعد والصد، وتصوير كل ما يلاقه في سبيل لقائه والفوز بنظرة خاطفة منه أو بتحية عابرة، تشفي تباريحه، وتخفف من أوجاعه.

(١) المصداق في عمار الشعر وآدابه ونقده. تأليف أبي علي الحسن بن رشيقي القيرواني. قدم له وشرحه وفهرسه صلاح الدين المواربي. والأستاذة هدى عودة. دار مكتبة الهلال. ط ١٩٩٦م - ١٤١٦هـ - ١٨٨/٢.

هذا اللون من الغزل الذي ينصرف إلى تصوير هذا الجانب من مشاعر العاشق في أسلوب بعيد عن الفحش والابتذال، مترفع عن التصورات الحسية الجسدية، يمثل الغزل العفيف^(١).

وقد ألقينا الغزل العفيف شائعاً بين شعراء فترتنا. وما دمنا نتحدث عن الغزل فلا لنا أن نتعد ابن زيدون كبير شعراء الغزل - عفيف وغيره - ولكن إذا تتبعنا غزليات ابن زيدون .. وجدناه لا يهتف بالغزل العذري، إلا حين يبأس من اللقاء أو يتقى الشبهات فتساميه ليس منبعثاً عن العفة بقدر ما هو منبعث عن "الحرمان، وقد يكون ناشئاً عن خشية العيون وخوف الرقيب"^(٢)، وما أكثر القصائد الغزلية الباكية عند ابن زيدون، كذلك النونية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، فقد صور فيها ببراعة فائقة ألم الفراق، وتميز في استخدام المزوجة في المعاني والألفاظ، فجعل الجفاء محل اللقاء، وراح يتمنى - وقد وقع واقع الفراق وأطل صباحه - أن يضحبه الموت، ويقوم الداعي يدعو إلى البكاء عليه، ومضى يذكر صروف الدهر التي أبعدت عنه المحبوبة. فالدهر نفسه كان بالأمس يضحكه بقرب حبيبته، أما اليوم فقد صار يبكيه ببعدها، ثم أخذ في ذكر خصومه ووصف غيظهم، وعدم ارتياحهم لوضعيته السابقة مع ولادة، وكيف أنهم دعوا على أن يحصل الفراق بينهم فأجابهم الدهر بقوله آميناً، فاستمع معي لهذه الزفرات الحارة حين يقول:

| | |
|--|---|
| وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا | أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا |
| حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ دَاعِينَا | أَلَا وَقَدْ كَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبْحَنَا |
| حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَيْلَى وَيَيْلَانَا | مَنْ مَبْلُغِ الْمَلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمْ |
| أَنْسَاءَ بَقَرِيهِمْ قَدْ عَادَ يُكِينَا | أَنَّ الزَّمَانَ الذَّيْجِ مَا زَالَ يُضْحِكُنَا |
| بِأَنَّ نَغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا ^(٣) | غَيْظَ الْعِدَا، مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعُوا |

وكان من شهرة هذه القصيدة، أن ثارت حولها الأساطير حتى قيل: "ما حفظها أحد إلا مات غريباً" ولهج كثيرون بان إنسانا لا يتم له الظرف ما لم

(١) الشعر في ظل بني عباد ص: ١٣٦.

(٢) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه. على عبدالعظيم/ ١٩٥٥م مكتبة الأنجلو المصرية ص: ٣٦٩.

(٣) ديوان ابن زيدون ص: ١٤١ - ١٤٢. وراجع ص: ١٤٨ - ١٤٩ - و ص: ١٣٩ وما بعدها و ص: ١٦٨.

يحفظها^(١)، وقال غرسية غومس عن هذه القصيدة: "إنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون وغرة من أبدع غرر الألب العربي كله"^(٢).

وقريب من قصة ابن زيدون وولادة، قصة ابن الحداد الذي شغف في صباه بصبية نصرانية: "ذهبت بلبه كل مذهب، وركب إليها أصعب مركب، وكان يسميها في شعره "تويرة" واسمها على الحقيقة "جميلة"^(٣)، وقد تضمنت أشعاره فيها الإشارات الكثيرة إلى الطقوس والشعائر المسيحية، وأخذ يتلاعب بالمعاني المستمدة من الجو المسيحي من انجيل، وصلبان، ورهبان، ويبدو من خلال شعره أنه كان صادقاً في حبه لها فاستمع لقوله:

| | |
|---------------------------------|--|
| عَسَاكَ بِحَقِّ عَيْسَاكِ | مُرِيحَةَ قَلْبِي الشَّاكِي |
| فَإِنَّ الْحُسْنَ قَدْ وَاوَلَا | لِكَ إِخْيَائِي وَإِهْلَاكِي |
| وَأَوْعَنِي بِصُلْبَانِ | وَرَهْبَانٍ وَنَسَاكِ |
| وَلَمْ آتِ الْكَنَائِسَ عَن | هُوَى فَيْهِنَّ لَوْلَاكِ ^(٤) |

وقد علمنا أن الجواري والمغنيات قد كثرن في عصر الطوائف، وأقتسى الملوك منهن الكثيرات، وراحوا يصورون حبهن لزوجاتهم وجواريهم. ولكن الملوك أصحاب طبقة أرستقراطية إذا أرادوا شيئاً نالوه. لذا فقد أصاب الفتنور شعرهم الغزلي في أغلب الأحيان، برغم اللوعات التي نلمسها فيه. فالمعتمد بن عباد - أشهر شعراء ملوك الطوائف - يصور لنا حبه لزوجته "إعتماد"، وبالرغم من أن حبه لم يكن مصحوباً باللوعات والهزات العاطفية. إلا أنه استطاع أن يوحى لهذا الملك الكثير من القصائد الغزلية. فهي إذا لامته عن تحول قلبه عنها وارتاعت لذلك، هداً من روعها، وأثبت لها أن حبه متربع بين جوانحه يقول:

(١) ديوان ابن زيدون، ص: ١٤١.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص: ٨٢.

(٣) راجع الذخيرة ج ١ م ٢٨ ص: ٤٣١.

(٤) شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي. تحقيق منال منيزل ط ١٤٠٥ - ١٩٨٥ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

ص: ٧٢. وراجع ص: ٥٤. وص: ٩٢.

بَرَكَتْ تَلُومٌ وَفِي الْفُؤَادِ بِلَالٍ سَفَهَا وَهَلْ يُنْتَبَى الْحَلِيمِ الْجَاهِلُ؟
يَا هَذِهِ كُفِّي! فَإِنِّي عَاشِقٌ مَنْ لَا يَرُدُّ هَوَايَ عَنْهَا عَازِلُ!
حُبِّ اعْتِمَادٍ فِي الْجَوَانِحِ سَاكِنٌ لَا الْقَلْبُ ضَاقَ بِهِ وَلَا هُوَ رَاحِلٌ^(١)

وقد لعبت المرأة الأندلسية - أرستقراطية كانت أم من العامة - دوراً لا يقل عن دور الرجل في ميدان الغزل، إذ استطاعت أن تصور مشاعرها تجاه من تحب وأن تجهر بذلك دون خوف أو وجل^(٢). ولم تسهم المرأة حرة وأمة في قول الشعر الغزلي مثلما أسهمت في - عصر الطوائف - وهُنَّ كثيرات منهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية، وواحدة عصرها ولادة الشاعرة الطروب^(٣). فأم الكرام بنت ملك، تتعشق فتى يعرف بالسمار، فقالت والهة صائحة، مبينة ما يفعله الحب بالناس، من أنه لا يعرف الفوارق الطبقيّة، وإلا لما أحببت هذا الفتى وهي أميرة أرستقراطية، وهو من عامة الناس ومع ذلك لو فارقها السمار لتابعه قلبها تقول:

يَا مَعَشَرَ النَّاسِ أَلَا فَاعْجَبُوا مِمَّا جَنَنَتْهُ لَوَاعَةُ الْحُبِّ
لَوْلَا لَمْ يَنْزِلَ بِنْدَرِ الدَّجَى مِنْ أَفْقِهِ الْعُلُويُّ لِلنُّزْبِ
حَسْبِي بِمَنْ أَهْوَاهُ لَوْ أَنَّهُ فَارَقْنِي تَابَعَهُ قَلْبِي^(٤)

(١) ديوان المعتصم بن صمادح ص: ٣٨. وراجع ص: ٤٤. وراجع غزله في جواهره من جوهرة سحر، وأم عبدة، ووطاد في ص: ٣٥

- ٥٧ - ٧٢. وراجع غزل المعتصم في جاريته العبادية في الحلقة ج ٢ ص: ٤٨. وراجع غزل رفيع النولة بن المعتصم في

الحلقة ج ٢ ص: ٩٤.

(٢) "شعر بين أمة في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري. د. السيد أحمد عمارة. ط ١. ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م. مكتبة النهضة

المصرية القاهرة ص: ٨٦.

(٣) راجع شعرهن في "الشعر السنوي في الأندلس. تأليف محمد المتصر الرسون. قدم له عبدالله كنون. دار مكتبة الحياة بيروت.

لبنان ص: ٧٣ وما بعدها. وراجع نفع الطيب ج ٥ ص: ٣٠٢ وص: ٣٣٩.

(٤) نفع الطيب ج ٥ ص: ٣٠٣.

المطلب الثاني:

الغزل غير العفيف:

ينصرف اهتمام الشعراء في هذا اللون من الغزل إلى إظهار مفاتن المرأة الحسية وتبيان أوصافها الجسدية فنجد أن صورهم وتشبيهاتهم تدور حول جمال المرأة الظاهري من قوام، وخصر، وصدر، ونهد، وجيد، وفم، وخد، وعيون، وشعر. إلى ما هناك من مواطن الفتنة والجمال الأنثوي.

وقد يسرف الشعراء في إظهار جمال المرأة المحسوس، ويغالون فيه إلى درجة الفحش والإفذاء، مما قد يكون سببه عائداً إلى قلة فهم الناس للجانب النفسي من حياة المرأة وخصائصها، فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسي الملموس، أي الصورة البدنية، فاندفعوا في الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يرد^(١).

٠٠٨٤٢٥

فابن عمار يرسم صورة حسية لفتاته فيصف عينها وردفها، وتغرها في

قوله:

| | |
|--|--|
| فَتَاءٌ عَدَا مَا الْحُسْنُ حَتَّى كَانَهَا | فَتَى الْحُسْنِ أَوْ لَقِيَ عَلَيْهِ حَبِيبُ |
| فَعَيْنٌ كَمَا عَيْنُ الْمَهَى وَمُقَلَّدٌ | كَمَا ارْتَاعَ ظَبْيٌ بِالْفَلَاةِ غَرِيبُ |
| وَرِدْفٌ كَمَا أَنْهَالُ الْقَضِيبِ وَضَمَّهُ | وَسَاحٌ كَمَا غَنَى الْحَمَامُ طَرُوبُ |
| وَتَغْرٌ كَمَثَلِ الْأُقْحُوَانِ يَشُوبُهُ | لِمَى حَسَنَاتِ الصَّبْرِ عَنْهُ ذُنُوبُ |
| كَسَا الْخَجْلُ الْمُعْتَادُ صَفْحَةَ خَدِّهَا | رَدَاءٌ طَرَا زَاهُ نَدَى وَكَيْهَابُ |
| وَكَبَيْتٌ مِنَ الْأَصْدَاغِ فِيهِ عَقَّارِبُ | لَهَا فِي فُؤَادِ الْمُسْتَهَامِ دَيْبُ ^(٢) |

إن غزل الملوك كان في أغلبه لهواً ومقاعاً حسياً يستجيب فيه الملك

لنزواته كما استجاب - الملك الجيانيب المعتضد بن عبّاد - لنزواته فقال يصف فتاته وخلوته معها، بعد أن قضى بقربها سويحات تلذذ بها، ونعم بلثم الثغور،

(١) تاريخ الفكر الأنثوي ص: ٤٤.

(٢) ديوان ابن عمار ص: ٢٤٠ - ٢٤١.

وقطف رمان الصدور، ويغيب في أثناء ذلك عن عالمه العابس، بنشوة العناق
 وتمام الالتصاق، ورشف المباسم العذبة. وهو بذلك يمدنا بانطباع جديد عن
 جوانبه النفسية الأخرى غير التي عهدت عنه في مجال السياسة والسلطان.
 والقصيدة طويلة نقطف منها قوله:

فَجَادَتْ وَمَا كَانَتْ عَلَيَّ بِخَدِّهَا
 فَقُلْتُ لَهَا هَاتِي ثَنَابِكَ إِنِّي
 وَمِثْلِي عَلَى جِسْمِي بِجِسْمِكَ فَأَنْتِ
 عِنَاقًا وَلِثْمًا أَرْوِيَا الشُّوقَ بَيْنُنَا
 فَيَا سَاعَةً مَا كَانَ أَقْصَرُ وَقْتَهَا
 وَقَدْ يَنْبُعُ الْمَاءُ النِّمِيرَ مِنَ الصَّدِّ
 أَفْضَلُ نَوَارِ الْأَقَاحِي عَلَى الْوَرْدِ
 تُعِيدُ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْهَا كَمَا تُبْهِدِي
 فِرَادَى وَمَثْنَى كَالشَّرَارِ مِنَ الرَّتْدِ
 لَدَى نَقْضِ غَيْرِ مَذْمُومَةِ الْعَهْدِ (١)

وكان من دوافع الغزل المادي تلك المجالس التي عرفت بمجالس الشرب
 والطرب، وحفلات الرقص، والغناء والليالي الحمراء الزاخرة بوسائل المجون
 واللهو، فالجوارى والمغنيات متبرجات أمام العيان، فما كان من الشعراء، إلا أن
 يصفوا القيان، والجوارى، ويتغزلوا بالساقيات الراقصات، وإن كان وصفهم لا
 يتعدى الجانب الملموس من جوانب الجمال الحسى المثير لغرائزهم.

فهذه غانية أثارت ابن حمد يس، فافتتن بها، وأخذ في مغاللتها، ودار
 حوار رقيق بينهما، ولكنها لم تبلغه بغيته، بل صدته برفق وأدب، وكانت الغانية

تغنى بشعر غزلي من أشعاره يقول:

هَاتِ كَأْسَ الرَّاحِ أَوْ خُذْهَا إِلَيْكَ
 وَتَنَاوَلِ نَشْوَةَ مَنْ رَوَّضَهُ
 تَبَغَّيْتُ بِسَبَبِ قَلْبِهِ
 فَأَوْضَتْ فِي الْوَصْلِ عَيْنِي عَيْنَهَا
 أَعْلِيلُ أَنْتَ مَاذَا تَشْتَهِي؟
 فَأَنْتِ كَبْرًا وَقَالَتْ: وَيْلَنَا
 يَنْزِلُ اللَّهُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْكَ
 طَلَعَتْ كَالشَّمْسِ بِالنَّجْمِ عَلَيْنَا
 فَهَوَاهَا رَاجِعٌ مِنْكَ إِلَيْنَا
 فَازْدَهَتْ عَجَبًا وَقَالَتْ: مَا لَدَيْكَ؟
 قُلْتُ: قَطْفِي بِيَدِي رُمَانَتَيْكَ
 أَوْ هَذَا كُلُّهُ تَطْلُبُ وَيْلَكَ؟

(١) الحلة السراء ج ٢ ص : ٤٨.

أَنَا شَمْسٌ وَبَعِيدٌ فَلِكَيْ

لَوْ بَدَا أَمْرُكَ لِي مِنْ قَبْلِ ذَا

وَضِيَائِي نَاقِرٌ مِنْ رَاحَتِكَ

مَا رَأَتْ نَاطِرَتِي نَاطِرَتِكَ (١)

ومثلما تغزل ابن زيدون بفتاته غزلاً عفيفاً، تغزل بها كذلك غزلاً حسياً، وهو الآن يجسد لنا فكرة زيارة الحبيب ليلاً، وهي فكرة مشرقية قديمة، عالجهما الشعراء منذ القدم، فابن زيدون يجعل حبيبته زائرة له، ولا يجشم نفسه، ويغنيها عن استراق الزيارة يقول:

رَأَيْتَنِي بَعْدَ هَجَعَةِ النَّوْزِ رِيَا

فَرَشَقْتُ الرُّضَابَ أَعْدَبَ رَشْفِ

وَنَعَمْنَا يَلْفَ جِسْمٍ بِجِسْمِ

يَا لَهَا لَيْلَةٌ تَجَلَّى كُجَاهَا

قَصَرَ الوَصْلُ عُمُرَهَا وَيُودِّي

رَاحَةٌ تَقْدِرُ الظَّلَامَ بِشِيرِ

وَهَصْرَتِ الْقَضِيبِ الْطَفَّ هَصْرِ

لِلنَّصَافِي وَقَرَعَ نَعْرَ بِنْعْرِ

مَنْ سَنَا وَجَنَّتِيهِ عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ

أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بَعْمَرِي (٢)

وهناك قطع غزلية، يطغى عليها الجانب الحسي والإثارة الجنسية، لكن بعد أن يشبع الشاعر رغبته في التلاعب بالصورة الحسية، يعود أدراجه ويظهر عفة مزعومة، فيصرح أنه توقف عن التمتع بتلك المحرمات لوازع ديني أو خلقي. فابن حصن الإشبيلي يقول:

وَمُدَامِي خَنْدَرِيْسٌ

وَمَعِي مُسْمَعَةٌ تَشَّ

وَإِذَا مَا شَرِبْتَ كَاسًا

فَمَتُّ نَشْوَانٍ وَقَامَتِ

وَنَضَّتْ عَنْهَا قَمِيصًا

فَلَبَّتْ بَطْنًا لِبَطْنِ

فَانْتَبَتْ فِي حَجَلٍ قَا

أَنَا كَانُوتُ بِوَجْهَيْهِنِ

لَمْ يُشْبِهَا مَاءٌ مُزْنِ

رَبِّ كَاسًا وَتُعْنِي

مِنَ الرَّاحِ سَقْنَتِي

فِي تَهَادٍ وَتَنَاسِي

نَمَّ لَمَّا ضَا جَعْنَتِي

قُلْتُ لَا ظَهْرًا لِبَطْنِ

نَلَّةٍ عِنْدَ النَّتَّاسِي

وَ..... إِنْ شِئْتَ وَ.....

وبعد هذا الإسفاف والفحش، يحول الشاعر الموضوع إلى هزل

واستطراف فيقول:

(١) ديوان ابن حمد يس ص: ٣٤٣.

(٢) ديوان ابن زيدون ص: ٢٣١.

لَمْ أُنَلِّ مِنْ كُلِّ مَا فَهُوَ
إِنَّمَا الشُّعْرُ فَكَاهَاتٌ

سُتُّ بِوَ غَيْرِ النَّصِيِّ
وَ حَسْبِي حُسْنُ ظَنِّي (١)

ومثل ابن حصن، ابن الأبار، الذي غرق في المجون، وأظهر القبيح الفاحش في صورته الشعرية، ولم يعقب مجونه الشعري بما يوحي الاعتذار وإظهار التقوى، فارجع مثلاً لقصيدته التي مطلعها:

رَأَيْتَنِي خَيْفَةَ الرَّقِيبِ مُرِيبًا يَسْتَكِّي الْقَضِيبُ مِنْهُ الْكَثِيبَا (٢)

وقد اعتبر ابن بسام مجونه، من مستظرفاته ونوادره، فقال معلقاً عليها: "ولقد ظرف ابن الأبار واشتهر ما شاء وندر، وأظنه لو قدر على إبليس الذي تولى له نظم هذا السلك وأوطأ له ثبج هذا الملك، لدب إليه ووثب أيضاً عليه (٣)، قلنا: إن المرأة كانت لها مشاركات في الشعر، وبدا لنا من خلال دراستنا أن شعر الغزل الحسي قد غلب عليهن. ومنهن مهجة بنت النيانى القرطبية، التي تهافتت على الملمات، وقد تأدبت على يد ولادة، ولكنها مالبتت أن هجتها، رغم الصداقة التي كانت تربط بينهما - ونترفع ببحثنا أن نذكر ما قالت في ولادة - وقال عنها - أي مهجة - ابن سعيد إنه: "تقدمت به فحول الذكران" (٤).

وأشهرهن على الإطلاق ولادة، التي تهالك على بابها الشعراء والكتّاب.

فقد قالت في مجاهرة تصف خدما الأسيل، وتعطى القبله لمن يرغب فيها:

أَنَا وَاللَّهِ أَصْلُحُ لِلْمَعَالِي وَأَمْشِي مَشِيَّتِي وَأَنْتِئِهِ نَيْهَا
وَأَمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا (٥)

ولما ظهر لها أن ابن زيدون قد مال إلى جاريتها السوداء، قالت تبين

حسنها وتغخر بنفسها:

(١) الذخيرة ج ٢ م ٧ ص: ٩٨ - ٩٩.

(٢) نفسه، ج ٢ م ٦ ص: ٩١.

(٣) نفسه، ج ٢ م ٦ ص: ٩١.

(٤) المغرب في حلى المغرب ١/١٤٣.

(٥) الذخيرة ج ١ م ١٨ ص: ٢٦٨ - ٢٦٩.

لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا
وَتَرَكْتَ غُضُنًا مُثْمِرًا بِجَمَالِهِ
لَكِنْ وَلَعْتَ لِشَقْوَتِي بِالْمُشْتَرَى^(١)
لَمْ تَهْوِ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَّخِيَرِ

ومهما يكن من أمر فإن شعر النساء الغزلي لم يخل من تأنق في الصياغة، وصدق في العاطفة - كما عند أم الكرام - ولكننا نأخذ عليهن ميلهن إلى الخلاعة في شعرهن.

وغير شعر الغزل في النساء، وجد عند شعراء الطوائف الغزل الشاذ وهو الغزل بالغلمان^(٢).

هذا وقد كان من خصائص الشعر الغزلي عند شعراء فترتنا. الميل الواضح إلى انتقاء الألفاظ الرقيقة، والمعاني السهلة. ومنها ظهور أسماء بعض النساء اللاتي تربعن على عروض قلوب الشعراء، فلهجوا بذكر أسمائهن، كنويرة ابن الحداد، وكما عند ابن سراج المالقي شاعر بني حمود الذي أحب جارية تدعى "حسن الورد"، وجارية أخرى تدعى "أزهر". وله فيهما مقطوعات غزلية ذكرها ابن بسام في ذخيرته^(٣)، ولعل من أهم الخصائص، كثرة المقطوعات الغزلية، وهي مقطوعات مختصة بالغزل في أغلب الأحيان. أضف إلى ذلك انقسام اتجاه الغزل عند الشاعر الواحد إلى اتجاهين متباينين. إذ أصبح الشاعر كما يقول أحد الدارسين: "يتخذ من التحدث عن العفاف أو عن التمكن من الشهوات مذهباً، أنبيأ، دون أن يعبر في ذلك عن حقيقة أخلاقية ماثلة في نفسه"^(٤)، كالذي رأيناه عند ابن حصن الإشبيلي، وعند ابن الأبار.

ومن الخصائص أيضاً. المزج بين الغزل وبين الطبيعة، فقد وقف الشاعر الأندلسي أمام طبيعة بلاده الخلابة، فذكره كل جزء منها بأجزاء محبوبته، فرأى

(١) نفع الطيب ج ٥ ص : ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) راجع ديوان المحدث بن عباد ص : ٥٩، وشعر ابن اللبابة اللتان ص : ٦٧، وديوان ابن عمار ص : ٢٩٧.

(٣) الذخيرة ج ١ ص ٥٤٤ وما بعدها.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص : ١٢٨.

في الورد خدها، وفي القضيبي قامتها، وفي النرجس عيونها، وفي الأقحوان
مبسمها ... وهكذا. وبذا صارت الطبيعة الملهم الأول لشعرهم.

أضف إلى ذلك سيطرة السمة المادية على غزلهم الحسي. وهم في ذلك لا
يميزهم شيء عن المشاركة سوى رقة الألفاظ وترفها، وحسن التعليل فمن طرافة
الصورة وحسن التعليل قول ابن عمار:

قَالُوا أَضْرَبُكَ الْهُوَى فَاجْتَبْتَهُمْ
عَيَّرْتُمُونِي بِالتَّحُولِ وَإِنَّمَا
يَا حَبَّذَاهُ وَحَبَّذَا أَضْرَارُهُ
شَرَفُ الْمُهَنْدِ أَنْ تَرَقَّ شِفَارُهُ (١)

أما الشعر الغزلي الذي قيل في مجالس الأتس، لم يتمتع بالصدق العاطفي،
بل مال فيه الشعراء إلى إظهار البراعة الفنية.

وأما الغزل النسائي فقد امتاز بعذوبة الألفاظ والتأنق في الصياغة، ويؤخذ
عليهن ميلهن إلى المبالغة، والخلاعة والتماجن.

(١) ديوان ابن عمار ص: ٢٢٠.

المبحث الثالث

وصف الخمر

كان لمجالس الأدب والأنس والمجون، وتعدد مجالس الشراب واللهو، أثر كبير في شيوع الشعر الواصف للخمر. وقد أرجع أحد الدارسين دوافع شرب الخمر إلى «فلسفة فردية ونظرة ذاتية تقومان على إحساس الفرد بضياح العمر وزوال الشباب وتفاهة الحياة وقصرها، وأنه - أي الفرد - أبداً مثقل الكاهل بالهموم والأحزان ما دام يتهدده الموت في كل لحظة...، وبأن السعادة طير صعب الإقتناص فعليه أن يغتتم الفرص ويستمتع بلحظات العمر، وينعم بعيشه وحياته قبل فوات الأوان، ولأجل تحقيق ذلك، يعاقر ابنة الكرم، ويرتاد مجالس اللهو، لعلها، تنسيه واقعة القاسي الأليم، وتبعده ولو للحظات، عن إحساسه المرهق بمصيره، وتفاهته في خضم الزمن العاتي»^(١).

فالمعتمد بن عباد يشربها إيماناً منه، بأن البقاء قليل في الدنيا وإن طال، وأن الهم والأسى يقودان الإنسان إلى الردى، فعليه أن يحاربهما ويقتلهما بالراح والكاس يقول:

| | |
|--|---|
| عَلَّاهُ فَوَإِنَّكَ قَدْ أَبْلَّ عَلَيَّ لُ | وَاعْنَمَ حَيَاتِكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلٌ |
| لَوْ أَنَّ عُمَرَكَ أَلْفُ عَامٍ كَامِلٍ | مَا كَانَ حَقًّا أَنْ يُقَالَ : طَوِيلٌ |
| أَكْذًا يَقُودُ بِكَ الْأَسَى نَحْوَ الرَّدَى | وَالْعُودُ عُودٌ وَالشَّمْلُ شُمُولٌ |
| لَا يَسْتَبِيكَ اللَّهُ نَفْسَكَ عَنْوَةٌ | وَالْكَاسُ مَسِيفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيلٌ |
| بِالْعَقْلِ تَرْدَحُمُ الْهُمُومُ عَلَى الْكُشَا | فَالْعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عَقُولُ ^(٢) |

(١) الشعر في ظل بني عباد ص: ١٦٢.

(٢) ديوان الحميد ص: ٦٦.

أ / أوصافها:

لقد افتنَّ شعراء العصر الذي ندرسه، في وصف الخمر، فهي عندهم
تبرية، وصفراء، وحمراء، أو وردية اللون. وهي الآن عند ابن حصن الإشبيلي،

صفراء تتوهج في كف ساقبها في قوله:

وَأَشْرَبَ عَنبَتٌ عَلَاكَ إِنْ لَمْ تَشْرَبِ
فِي الْكَاسِ تَأْتَلِقُ انْتِلَاقَ الْكُوكَبِ
فَعَلَّ الْعَرَّارَةَ فِي شِفَاهِ الرَّبْرِبِ (١)

قَمْ يَا غُلَامَ فَسَقَّنِيهَا وَأَطْرِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أُسْرَةٍ
حَضَبَتْ بِنَانَ مُدِيرَهَا بِشُعَاعِهَا

وفي وصف حبيها نجدهم أحياناً يشبهونه بالشباك كقول ابن حمد يس:

كَانَ لَهَا مِنْ نَسِيجِ الْحَبَابِ
شَبَاكَ تَعْقُلُ أَطْيَارَهَا (٢)

وأكثر شعراء الطوائف، من وصف عتاقة الخمر، وقدمها، وبالغوا في ذلك. فأحمد بن محمد الأشبيلي يرجعها، إلى عهد عاد وثمود، لذا فهي مفضلة وتأثيرها أقوى. ويتعدى في وصفه إلى تأثيرها النفسي، فهي بعد شربها تجعله

ملكاً والناس من حوله عبيد يقول:

وَلَقَدْ رَشَقْتُ مُدَامَةً
بِكُرٍّ وَلَكِنْ عَهْدُهَا
وَإِذَا تَوَارَتْ بِالْحُلُو
وَكَأَنِّي مَوْلَى الْوَرَى

أَشْهَى مِنَ الثَّغْرِ الْبُرُودِ
مِنْ عَهْدِ عَادٍ وَثَمُودِ
قِي بَدَا سَنَاهَا فِي الْخُدُودِ
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ عَبِيدُ (٣)

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد الشاعر ابن حمد يس - التي وصف فيها

الخمر - من وصف قدمها وعتاقتها (٤).

ب / وصف أدواتها ومجالسها:

وصف الشعراء أدوات الخمر، كالكووس، والدنان، ثم وصفوا آلات
الطرب، وما تقوم عليه مجالسها، كما وصفوا سقاتها، من قيان وجواري وغلما،
وتغنوا بمفاتتهم بأجمل الصفات (٥).

(١) المغرب في حلى المغرب ج ١ ص : ٢٥١.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص : ١٨١، وراجع ص : ٢٠، و ص : ١٣.

(٣) الذخيرة ج ٢ م ٩ ص : ١٣٢.

(٤) راجع مثلاً ديوانه ص : ٥٥١.

(٥) راجع ديوان للمجدد بن عباد ص : ٢٤.

فالشاعر أحمد بن محمد البلعي يصف كؤوس الخمر ويشبها بالآلي في

قوله:

وَمُدَامَةٍ وَرَسِيَّةٍ أَعْمَلْتَهَا
عَرِضَتْ عَلَيَّ بِشْرِبِهَا أَعْمَالِي
فَكُؤُوسُهَا بِصَفَائِهَا كَالآلِي
وَمَشْرَابُهَا فِي جَوْفِهَا كَالْآلِ (١)

وَحِزْنِ الْوَيْنِ وَصَفْوِ مَجَالِسِ الْخَمْرِ، الشاعِر ابن حمد يس، فها هوذا يصف ساقية مستديرة في أحد البساتين، وكان الندامي يجلسون على جوانبها متقابلين، وساقبهم يضع زجاجة بنت الكرم في الماء الجاري، حتى تصل إلى أحد الشاربين فيتناولها بأنمله العشر، ويحتسى ما فيها، ثم يرسلها فازغة إلى الساقى .. وهكذا. وهذه الصورة تدل على مهارة الشاعر في رسم الصور الحسية، كما تدل على براعته، ودقة تصويره يقول:

وَسَاقِيَةٌ تَسْقَى النَّدَامَى بِمُدَّهَا
يُعَوِّمُ فِيهَا كُلَّ جَامٍ كَأَنَّمَا
إِذَا قَصَدَتْ مَنَا نَدِيمًا زُجَاجَةٌ
تَتَأَوَّلُهَا رَفَقًا بِأَنْمُلِهِ الْعَشْرِ
فِي شَرْبِ مَنَهَا سَكْرَةٌ عَنِيْبَةٌ
تُتَوَمُّ عَيْنَ الصَّحْوِ مِنْهُ وَمَا يَدْرِي
وَيُرْسِلُهَا فِي مَائِهَا فَيُجِيدُهَا
إِلَى رَاحَتِي سَاقٍ عَلَيَّ حِكْمَةٌ تَجْرِي
كَأَنَّا عَلَى شَطِّ الْخَلِيْجِ مَدَائِنٌ
تُسَافِرُ فِيْمَا بَيْنَنَا سُنُنُ الْخَمْرِ (٢)

ج / اهداؤها واستهداؤها:

لقد نهى الشعراء الخمر وأدواتها فيما بينهم، وهذا دليل على شدة روابط الصداقة بينهم، ودليل على المحبة، فالمعتمد يهدى صديقه الوفي ابن اللبابة، إناء

مترعاً بالخمر، وكأساً من البللر ويرسل معها هذه الأبيات فيقول:

جَاءَتْكَ لَيْلًا فِي ثِيَابِ نَهَارٍ
مِنْ نُورِهَا وَغَلَاةِ الْبُلَّارِ
كَالْمُسْتَرَى قَدْ لَفَّ مِنْ مَرِيخِهِ
إِذْ لَفَّ فِي الْمَاءِ جَنُودَ نَارِ

(١) اللخورة ج ٩٢ ص ١٣٢.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص ١٩٣.

لَطْفَ الْجُمُودِ إِذَا وَدَا فَتَأَلَّفَا

لَمْ يَلْقَ ضِدَّ ضِدُّهُ بِنَفْسَارِ

يَخْتِزُّ الرَّأُؤُونَ فِي نَعْنَيْهِمَا

أَصْفَاءُ مَاءٍ أَمْ صَفَاءُ دَرَارِي (١)

هذا ومن خصائص وصف الخمر عند شعراء الطوائف. هو ميلهم إلى

البراعة الفنية في الصياغة. واختيار الألفاظ السهلة.

ومن الخصائص قيام الوصف على المقطوعات الشعرية القصيره، التي

تتجاوز أحياناً حد الشهوة لتسجل ملاحظات عامة، ودعابات أدبية ومنها غلبة

عنصر الخيال على هذا الشعر. كما أن منها غلبة الإرتجال للشعر الواصف

للخمر. فقد تحتم المناسبات الطارئة في مجالس أنسهم. ضرورة ارتجال الشاعر

لبعض الأبيات، مثلما حدث مع ابن عمار في مجلس المؤتمن بن هود (٢).

(١) ديوان المعتد بن عباد ص : ٨٠.

(٢) راجع ديوان ابن عمار ص : ٢٩٧.

المبحث الرابع الشكوى والغربة والحنين

هذا الفن من الفنون التقليدية التي كان للمشاركة فضل السبق فيها، ولكن الأندلسيين، لحقوا بهم وتوسعوا فيه. وذلك لكثرة اغترابهم، إما بسبب الرحلة إلى المشرق لطلب العلم. وأما لأسباب سياسية يضطر معها الشاعر إلى أن يهجر مدينة ويستقر في مدينة أخرى فيشتكى ويحن.

والشكوى، كما يقول أحد الدارسين: "هي الوتر الحزين الشجي في قيثارة الشاعر الفنان، يمنح فيها الكلمات ما تحسج في فؤاده من غمة وحسرة، وما تفتت في لعبه من مرارة ولوعة، أوجدتها الغربة وقسوتها أو الدهر ونوائبه أو الحرب وويلاتها، أو الفقر وعوزة، أو غدر الناس وحسدهم، أو ما قد يصادف المرء من متاعب الحياة الكثيرة، ثم يضيف عليها لوناً كثيباً، وظلاً حزيناً، يوحشه التشاؤم والألم ويمسحه الأسى والشجن"^(١).

والشعر الوطني يتجلى بصورة واضحة في ظاهرتين إثنيتين تطلقان شاعرية المنشئ في نغمات مشحونة بعواطف أقل ما توصف به، الصدق والتأثر، وهاتان الظاهرتان هما:

- ١- الحنين إلى الوطن في الظروف التي تدعو إلى البعد عنه أو الهجرة منه.
- ٢- التوجع والبكاء عليه فيما إذا ألم به مصاب أو هزته أحداث جسام كان يتغلب عليه عدو أو يتعرض لغزو أجنبي يكلفه كثيراً من المتاعب والآلام"^(٢).

ومما لا شك فيه أن الكثير من شعراء الطوائف، قد تعرضوا لتلك الظروف، وقد ظهرت الشكوى كثيراً في شعرهم، فاشتكوا من الزمن الذي أبعدهم

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس. د. محمد مجيد السعيد ط ٢ ١٩٨٥م. دار العربية للموسوعات ص: ٢١٧.

(٢) الشعر في ظل بني عباد ص: ١٧٣، وراجع قصائد المصنف التي قالها بعد أسره في ص: ١٤٧ وما بعدها.

عن أوطانهم، بسبب الأحداث السياسية التي سادت عصرهم، أو بسبب الفقر والعوز والسعي وراء لقمة العيش، في بلاط من بلاطات أمراء الطوائف. فابن عمار جرفته الأحداث السياسية، واعتقل عند صاحب شقورة فكتب إلى أبي الفضل بن حسداي، شاكياً مما فعلته يد الدهر به فقال:

أَرِيكَ أَخَاكَ وَكَوَيْفَافِيَةٍ كَالطَّلِّ يُوقِظُ نَائِمَ الزَّمْرِ
فَلَقَدْ تَقَادَفَتِ الرَّكَابُ بِهِ فِي غَيْرِ مُومَاةٍ وَلَا بَحْرِ
وَاكَتُبْ إِلَيْنَا إِنَّهَا لَيْدٌ تَمْحُو الَّذِي كَتَبَتْ يَدُ الدَّهْرِ (١)

ويبدو أن ابن عمار قد اضطر، إلى اللجوء إلى المريّة، واحتتمى بالمعتصم من غضبة المعتد، ثم اضطر ثانية لترك المريّة، وأصبحت أيام المريّة ذكريات يهيم بها ويلتاع لذكرها يقول:

بَلَدٌ مَتَى أَدْكُرُهُ هَيَّجَ لَوْعَتِي وَإِذَا قَدَحْتُ الزَّنْدَ طَارَ سَرَارِيهِ (٢)

وهناك دوافع نفسية أدت إلى شيوع شعر الحنين، فالأندلسي على حد قول فاطمة طحطح: "ميل بطبعه إلى الإلفة .. يكره الإبتعاد عن وطنه، وترك أهله وأي تغيير في نمط حياته، يعرضه لهزة نفسية وقلق مستمر" (٣).

فابن زيدون يتعمق في تشوقه وتلهفه إلى قرطبة، عندما تركها مهاجراً إلى إشبيلية، وترك وراءه عشيقته ولادة، وترك أهله وأصحابه، ولم يتزود بسوى ذكرى تشده إليهم، فكان يندوق نشوة خاصة بذكر أسماء الأماكن التي كان يرتادها في قرطبة، والتي شهدت نمو حبه، وأمدته بينابيع الفرح، نشوة تملك حواسه وتحوطه بهالة من الإحياءات، وتبعث في نفسه دفقات من الصور والذكريات، فنراه يكثر من أسماء الأماكن والمنتزهات بهيام، وشوق وحب، لأنها ترتبط بأسعد لحظات عمره، لذا يرسل إليها تحياته وأشواقه يقول:

عَلَى النَّعْبِ الشَّهْدِيِّ مِنِّي تَحِيَّةٌ رَكَتٌ وَعَلَى وَادِي الْعَقِيقِ سَلَامٌ

(١) ديوان ابن عمار ص: ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) نفسه ص: ٢٢٢.

(٣) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي. فاطمة طحطح ط ١٩٩٣م. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. منشورات كلية الآداب بالرباط ص: ٤٩.

ولا زال نور في الرصافة ضاحك
مَعَاهِدٌ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا
بَارِجَاتُهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامٌ
زَمَانَ رِيَاضِ الْعَيْشِ خَضِرٌ نَوَاضِرٌ
تَدَارُ عَلَيْنَا لِلْمُجُونِ مُكَدَامٌ
قَانَ بَانَ مِنِّي عَهْدَهَا فَبَلَوْعَةً
يُسَبُّ لَهَا بَيْنَ الصُّلُوعِ ضِرَامٌ
تُذَكِّرُتُ أَيَّامِي بِهَا فَتَبَادَرَتْ
نُمُوعٌ كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامٌ (١)

والقصيدة طويلة يستمر فيها ابن زيدون في التشوق إلى مراتع لهوه وعبثه، وتظل قرطبة محور القصائد المعبرة عن الغربة والحنين عنده. وغير هذه القصيدة، هناك قصيدة معنونة بـ "أنه الطريد" (٢) ذكر فيها ثمانية مواضع وربطها بما تحمله نفسه من ذكريات له فيها. ونحن لا نعجب لكثرة ذكر الحنين إلى الأوطان في شعره لأن الوطن كما يقول ابن زيدون نفسه: "محبوب والمنشأ مألوف واللبيب يحن إلى وطنه حنين النجيب إلى عطنه والكريم لا يجفو أرضاً بها قوابله ولا ينسى بلداً فيه مرضعه" (٣).

وخير مثل لشعر الحنين عند ابن زيدون، مخمستاه اللتان نظمهما في الشوق إلى قرطبة، مسترجعاً في ذاكرته أيام وصاله وحبه فيها، وفي القصيدتين يمتزج التشوق إلى قرطبة بالتلطف إلى الحبيبة، وإلى طبيعة بلاده الساحرة:

أَقْرُطْبَةُ الْغُرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعٌ وَهَلْ كَيْدٌ حَرِّي لِبَيْتِكَ تَنْقَعُ
وَهَلْ لِلْبَائِبِكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِعٌ إِذَا الْحُسْنُ مَرَأَى فِيكَ وَاللَّهُوُ مَسْمَعُ
وَإِذْ كُنْتُ الدُّنْيَا - لَدَيْكَ - مَوْطَأُ (٤)

والمعتمد بن عباد يمضي سنوات من اللهو والمجون مع صديقه ابن عمار في مدينة شلب، حينما تولى أمرها من قبل أبيه، ولكن عندما حكمت الأمور بأن

(١) ديوان ابن زيدون ص: ١٥٢.

(٢) نفسه ص: ١٥٨.

(٣) الفخورة ج ١ ص ١٤١: ٢١١.

(٤) ديوان ابن زيدون ص: ١٣٣.

يتركها، ويسكن إشبيلية، ظل يحن إلى معاهد جده ولهوه في شلب، وخص قصر

الشرأجيب بكل ما فيه من متع، ومجالس أنس ولهو مع الغواني يقول:

الْأَحْيَ أَوْطَانِي بِشَلْبِ أَبِيكَرٍ وَتَسْلُهُنَّ هَلْ عَهْدُ الْوِصَالِ كَمَا أُدْرِي
وَسَلَّمَ عَلَى قَصْرِ الشَّرَاجِيبِ عَنْ قَتِيٍّ لَهُ أَبَدًا شَوْقٌ إِلَى ذَلِكَ الْقَصْرِ
مَنَازِلُ أَسَادٍ وَبِيضُ نَوَاعِمٍ فَنَاهِيكَ مِنْ غَيْلٍ وَنَاهِيكَ مِنْ خِذْرِ (١)

والإندماج العاطفي بين الطبيعة والشاعر، مازال يظهر بوضوح في

شعرهم الذي حمل ملامح الغربة والحنين. فكلما رأى الشاعر منظراً من مناظر

الطبيعة، هيجه هذا المنظر، وذكره بغرْبته، فابن حمد يس حفزته رؤية زهر

النيلوفر على أن يقول معبراً عن غربته وحنينه لوطنه:

وَنَيْلُوفَرٍ أَوْزَاقُهُ مُسْتَدِيرَةٌ تَفْتَحُ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَهُ زَهْرٌ
هُوَ ابْنُ يِلَادِي كَاغْتِرَابِي كَلَانَا عَنِ الْأَوْطَانِ أَرْعَجَهُ الذَّكْرُ (٢)

ولعل من أهم خصائص هذا الفن، الصدق العاطفي، إذ كانت الأحداث تمر

على الشاعر فيعتصر آلامها، ويترجم هذه الآلام في شعره، فيشكو جور زمانه

الذي أبعدته عن وطنه وأحبابه.

ومنها الوضوح في التعبير، وسهولة المعاني، ورقة الألفاظ وبراعة

انتقائها لتعبر بسهولة عما في نفس الشاعر.

ومن الخصائص، المزج بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية،

وتفضيل البقاء في الوطن - مع قساوة العيش فيه - على الإغتراب مع الغنى،

وكانهم يرددون مع ابن الحداد قوله:

وَكَمْ خَطَبْتَنِي مِصْرُ فِي نَيْلِ نَيْلِهَا وَرَأَيْتُ بِنَا بَعْدَادُ وَرَدَ فُرَاتِهَا
وَكَمْ أَرْضَ أَرْضًا غَيْرَ مَبْدَأِ نَشَاتِي وَلَوْ لَحْتُ شَمْسًا فِي سَمَاءِ وِلَاتِهَا (٣)

(١) ديوان المصنوع بن عباد ص: ٤٧.

(٢) ديوان ابن حمد ص: ١٨٥.

(٣) شعر أبي عبد الله بن الحداد ص: ٤٤.

المبحث الخامس

الفخر

سمح مدح الإنسان لنفسه، لأن المدح تركيبة للنفس، وشهادة لها بالفضائل، ولما كان الإنسان يحب نفسه رأى محاسنها، وخفى عليه مقابحها، بل رأى لها من الحسن ما ليس فيها؛ فقيح منه الشهادة بما لا يقبل منه، ولا ترى له. فليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة، إلا أن يكون شاعراً فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه^(١).

وعن شعر الفخر عند شعراء - عصر الطوائف - نقول: إن شعر الفخر في هذا العصر قد ضاقت نواحيه التي عرفت في الشعر المشرقي، فمثلاً لم يكن للفخر بالقبيلة أي أثر في هذا العصر، وأغلب ما قاله الشعراء في الفخر كان بدافع من التقليد والتكلف، لا بدافع العاطفة والخاطر المطبوع، وكان أغلب فخر عامة الشعراء يدور حول معاني الاعتزاز بالنفس، وبالعلم، وبالمقدرة الفنية على قرض الشعر، ولما يحدثنا الشاعر عن شجاعته أو يحكى لنا عن مآثره ومفاخره، إلا ما كان من أمر ابن عمار الذي جلس مجلس الأمير على رأس تدمير، والذي قال عنه صاحب القلائد: "دخل ابن عمار سرقسطة، فلما رأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، .. عكف على راحه معاقراً، وعطف بهاعلى جيش الوحشة عاقراً، فبلغه، أنهم نقدوا عليه شربه، وقلو بالملام غربه"^(٢) فقال في الإفتخار بنفسه وبقيادته للجيوش :

تَقَمَّتُمْ عَلَى الرَّاحِ أُنْمِنُ شُرْبَهَا وَقَلَنْتُمْ فَتَى لَهْوٍ وَلَيْسَ فَتَى جِدِّ
وَمَنْ ذَا الَّذِي قَادَ الْجَبَادَ إِلَى الْوَعَى سَوَايَ وَمَنْ أَعْطَى الْكَثِيرَ وَلَمْ يَكِدْ^(٣)

وكثيراً ما افتخر الشعراء بعلمهم، الذي خلد لهم على مدى الأزمان مثل ابن

الحداد القائل:

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب/ تاليف/ الدكتور أحمد أحد بدوي. دار لمضة مصر للطبع والنشر القاهرة بدون تاريخ ص: ٢١٨.

(٢) القلائد ق ٢ ص: ٢٥٦.

(٣) ديوان ابن عمار ص: ٢٩٦.

إِلَى الْمَوْتِ رَجَعِي بَعْدَ حِينٍ فَإِنَّ أُمَّتَ فَقَدْ خَلَّتْ خُلْدَ الزَّمَانِ مَنَاقِبِي
وَنِكْرِي فِي الْأَفَاقِ طَارَ كَأَنَّهُ بِكَلِّ لِسَانٍ طَيِّبٍ عَدْرَاءَ كَاعِبِ
فَقِي أَيُّ عِلْمٍ لَمْ تُبَرِّزْ سِوَابِقِي ١؟ وَفِي أَيُّ فَنٍّ لَمْ تُبَرِّزْ كُنَائِبِي ١؟

وأيضاً افتخر الشعراء بجودة نظمهم، وبيان سحره^(٢). أما الملوك فقد كان فخرهم بقوتهم وبلاتهم في الحروب، وفتحهم المدن والقلاع والحصون، وحق لهم أن يفتخروا بذلك لأن الأمراء كانوا هم أنفسهم قواد الجيوش، وفرسان الحروب فالملك الطاغية - المعتضد بن عباد - يفخر بشجاعته، وحمائته ذمار مجده، وبتقصيره لآجال أعدائه، وبكرمه الأصيل في قوله:

حميت نمار المجد بالبيض والسمر وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة لأشياء في العلياء ضاق بها صدرى^(٣)

والمعتمد بن عباد يفخر بالمجد الذي لا يُعزى إلا لهم في قوله:

مَنْ عَزَا الْمَجْدَ إِلَيْنَا قَدْ صَوَّقَ كَمْ يَلْمُ مَنْ قَالَ: مَهْمَا قَالَ حَقٌّ^(٤)

وكثيراً ما افتخر المعتمد، حتى وهو في محنته فقد قال ابن بسام: "ومما قاله بعد زوال سلطانه وتضعع بنيانه، لما دُخل عليه البلد يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة أربع وثمانين - يعني وأربعمائة - خرج مدافعاً عن ذاته، وذابكاً عن حرماته، وظهر يومئذ من بأسه، ومن تراميه - زعموا - على الموت بنفسه، ما لا مزيد لبشر عليه، ولا تنامى لخلق إليه^(٥) فقال مفتخراً بشجاعته، وبشرفه الرفيع، وبعراقة أصله:

لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدَّمُوعُ وَتَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيقُ
قَالُوا: الْخُضُوعُ سِيَّاسَةٌ فَابْتَدَأَ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ
وَأَلَدٌ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ عَلَى فَمِي السَّمُّ النَّفِيعُ

(١) شعر ابن عبد الله بن الحناد من : ٤٠.

(٢) راجع الفخيرة ج ٢ ص ٨٢ : ١١٣.

(٣) الخلة السراء ج ٢ ص : ٤٣.

(٤) ديوان المعتضد بن عباد من : ١٤٧.

(٥) الفخيرة ج ٢ ص ٢٨ : ٢٨.

مُلْكِي وَتَسْلِمُنِي الْجُمُوعُ
 لَمْ تَسْلِمِ الْقَلْبَ الضُّلُوعُ
 عَاشَتْ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ
 إِلَّا تُحْصِنُنِي السُّرُوعُ
 صَ عَنِ الْحَشَى شَيْءٌ دَفُوعُ
 حَلَّ إِذَا يَسِيلُ بِهَا النَّجِيعُ
 بِهَوَايَ نُلِّيَ وَالْخُشُوعُ
 لِي وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرَّجُوعُ
 وَالْأَصْلُ تَتَّبَعُهُ الْفُرُوعُ (١)

إِنَّ يَسْلُبِ الْقَوْمَ الْعِدَى
 قَالَ قَلْبٌ بَيْنَ ضُلُوعِهِ
 لَمْ أَسْتَلْبِ شَرَفَ الطَّبَا
 قَدْ رَمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ
 وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيدِ
 وَبَدَلْتُ نَفْسِي كِي تَسِيدِ
 أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ
 مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْقَنَا
 شَيْئٌ أَلِي أَنَا مِنْهُمْ

هكذا يكون شعر الملوك تباهاً بالعزة، ودفاعاً عن المجد، وتصويراً
 لخوض غمار الأهوال، دون التفكير في الرجوع، وتفاخراً بالشرف الرفيع.
 والمعتمد كان من أكثر الملوك التصاقاً بهذه الأوصاف سواء أكان في
 حالات سعده أم في أسره وأيام محنته الأخيرة. نقول ذلك على ابن عبَّاد : لأننا
 قلما نجد إنساناً يقع في مثل محنته، وقد دُخل عليه في داره، أن تتجه أفكاره لغير
 الزهد في الحياة، والتطلع إلى رضوان الله تعالى. أما أن يتذكر المجد، ويتباهى
 بمصادر الشرف - فهذا هو العجب العجيب، الذي قلما تتجه إليه النفوس.
 ولعل من خصائص شعر الفخر عند عامة الشعراء، الإتكاء على
 المقطوعات القصيرة، التي دار الحديث فيها حول أنفسهم، وما ينتجون من شعر
 هو في نظرهم السحر الحلال.

أما فخر الملوك فمن خصائصه، الميل إلى تسجيل المآثر، والتباهي بالقوة
 والسطوة، والثبات في المعارك الحربية.
 ومنها الميل إلى انتقاء الألفاظ الدالة على القوة. وسهولة ووضوح معانيه.

(١) ديوان للمجدد بن عبَّاد ص : ١٥٠ - ١٥١.

الفصل الثالث

الشعر الدينى

ويحتوى على مبحثين

المبحث الأول: الزهد - التصوف - الحكم

المبحث الثانى: شعر الجهاد والمعارك الإسلامية

المبحث الأول

الزهد - التصوف - الحكم

نقول: إن الدين الإسلامي كان متمكناً من نفوس الشعراء في الأندلس، نعم كان هناك شعراء متفلقين من الإلتزام بالخلق القويم في بعض أشعارهم، إلا أننا نلمس ربط الدين بالشعر عندهم. فهم عندما وصفوا الطبيعة. إنما كانت تأملات في جمال خلق الله تعالى، كما فعل ابن خفاجة، عندما نظر إلى القمر فرأى عظمة الله تعالى وقدرته في تدرج منازل القمر.

وأكثر ما ظهر ربط الدين بالأدب في مدحهم، عندما حاولوا رسم صورة مثالية لممدوحهم قوامها العدل، والعفة، والخلق الكريم. وحتى في الفن المقابل للمدح، وهو الهجاء، ظهر ميل بعضهم إلى لفت النظر إلى العادات التي تتأق في الدين القويم، ومن ثم نبذها، وحض بعضهم إلى عدم الإستسلام لأعداء الدين، وضرورة رفع راية الجهاد. كما فعل السمسير عندما هجا ملوك عصره المتقاعسين عن الجهاد.

نقول ذلك عن ربط الدين بالأدب لأن الدين عند الله تعالى هو إسلام الحياة كلها إليه تعالى يؤكد ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكُيْتُ وَمَحَيَّيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (١).

قلنا: إن بعض الشعراء كانوا منغمسين في الملاذات. متفلقين عن الخلق القويم وعلى إثر ذلك ظهر تيار مناهض، هو تيار الزهد الذي نحن الآن بصدد دراسته. ولا نعنى بالزهد المتطرف أو المانوي، ولا الزهد المسيحي الذي ظهر في رهبانيتهم. إنما نعنى الزهد الإسلامي.

(١) سورة الأنعام الآية: ١٦٢ - ١٦٣.

والزهد الإسلامي - - - ليس كما قال الدكتور مصطفى: "ويفترض في متبعي هذا المذهب أن يتجردوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجردين من الترف وزخرف الدنيا، لا يبتغون عرضاً من أعراضها ولا مطلباً من مطالب الحياة المادية التي يقبل عليها الإنسان العادي"^(١)، لأن فكرة الإنعزال عن الناس. تحض عن الإبتعاد عن عمارة الكون بالبناء، والتزواج والتناسل والتعامل الطيب مع الناس. فالإنسان يزهد في الدنيا فيما حرم الله تعالى عليه، وهذه المحرمات متاحة أمامه، ولكنه يبتعد عنها خوفاً من الله تعالى. فتكون أعماله في الدنيا - التي هي أداء الفرائض، والمعاملات الإنسانية وغيرها - زادا له في الآخرة. باعتبار أن الدنيا عرض زائل. وهذا هو الزهد المرتبط بالفكر الإسلامي.

وقد شق الزهد طريقه في عصر الطوائف، وكان من أبرز الزهاد أبو اسحاق الألبيري، وابن العسال. وقد قال عنهما أحد الدارسين: "هما فارسي ميدان الزهد اللذين جريا فيه إلى نهايته وجعلا منه فناً"^(٢).

ولم يقتصر الزهد - في هذا العصر -، على الرجال، بل ألقينا عدداً من النساء الزاهدات، كأمة الرحمن بنت أحمد بن عبدالرحمن العيسى ت ٤٤٠هـ - ومريم بنت أبي يعقوب وغيرهما.

وليس كل شاعر في عصر الطوائف، نظم في الزهد إعتبره طريقاً جرى فيه إلى نهايته. بل كان منهم من مثل الزهد موضوعاً واحداً من بين مواضيع شتى في شعره. ومنهم من دعا إليه كالحميري "صاحب الجذوة" فقد قال:

طَرِيقُ الزُّهْدِ أَفْضَلُ مَا طَرِيقُ وَتَقْوَى اللَّهِ تَالِيَهُ الْخُفُوقُ
فَتَّقِ بِاللَّهِ يَكْفِكَ وَاسْتَعِزَّ بِهِ بَعْدَكَ وَدَعِ بَنِيَاتِ الطَّرِيقِ^(٣)

(١) الشعراء المروانيون في الأندلس / تأليف / د. مصطفى فحى أبو شارب ط ١ دار المفردات للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ -

١٩٩٩ م ص : ٢٥٨.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص : ١٠٩.

(٣) الجنوة ق ١ ص : ١٣.

١ - الزهد في الدنيا:

الدنيا دار فناء لا دار بقاء، ووجد الإنسان فيها ليعبد الله وحده لا شريك له وليكثر من الحسنات التي هي زاده للدار الآخرة يقول ابن العسال "ت٤٨٧هـ":

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئاً يدوم

فَاعْدُ مِنْهَا فِي أَمَانٍ إِنَّ يُسَاعِدَكَ النَّعِيمُ
وَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْكَ عَلَى كُرْهِ نَهَيْتُمْ
فَاسْئَلْ عَنْهَا وَأَطْرَحْهَا وَارْتَجِعْ حَيْثُ تَقِيمُ^(١)

ولكن من الشعراء من زهد في الدنيا، لأن الدنيا أدارت ظهرها عنه، ففقد مالا، أو جاهاً، أو زهد نقمة على الحياة وحظه فيها. مثلما كان السمسيس الذي كان منحرفاً في ميوله إلى هجاء الناس وهو إلى ذلك: "صاحب مزدوج كأنه حذا فيه حنو منصور الفقيه"^(٢) فقد زهد في الدنيا ودعا إلى تقوى الله يقول:

جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابُ مَثَلُ مَا قَالُوا سَرَابُ
وَالَّذِي مِنْهَا مَشِيدٌ فَخَرَابٌ وَيَبَابُ
وَأَرَى الدَّهْرَ بَخِيلًا أَبْدَأُ فِيهِ اضْطْرَابُ
سَالِبٌ مَا هُوَ مُعْطٍ فَالَّذِي يُعْطَى عَذَابُ
وَلِيَوْمِ الحِشْرِ إِنْعَاءُ مِمُّ سُؤَالِهِ وَجَوَابُ
وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ يَوْمَ لَا يُطْوَى كِتَابُ
فَاتَّقِ اللهَ وَجَنِّبْ كُلَّ مَا فِيهِ حِسَابُ^(٣)

وقد كثرت المعاني الدالة على الزهد عند شعراء عصر الطوائف. مثل ذكر المشيب الذي ينذر بدنو الأجل، وذكرى الموت، والإكتفاء بالقليل من عرض الدنيا، والتوبة إلى الله تعالى، والدعوة إلى الإستقامة، والتسبيح والتحميد، والخوف من الله تعالى.

(١) نفع الطيب ج ٤ ص: ١٩٨، وانظر ترجمة الشاعر في الرايات هامش ص: ١٤٠، وراجع ديوان الأبيري ص: ٣٨.

(٢) الذخيرة ج ١ ص: ٣٥١ - ٣٥٢.

(٣) الذخيرة ج ١ ص: ٣٦٢، وراجع قول ابن ليون في الذخيرة ج ٣ ص: ٦٨. وراجع ديوان اللخند ص: ١٥١.

٢ - ذكر المشيب:

وكثيراً ما ذكر الشعراء "الشيْب" لأن الشيب إذا حلَّ في المفارق كان نذيراً
بترحال الشباب، وداعياً للرجوع إلى النفس ومحاسبتها، وزجرها، والتأمل إلى ما
ستؤول إليه يقول في ذلك ابن حزم "ت ٤٥٦ هـ".

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ حَلَّ مَفَارِقِي نَذِيرًا يَنْزِلُ الشَّبَابِ الْمُفَارِقِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ لَهَا أَنْظِرِي إِلَى مَا آتَى هَذَا أُبْتِدَاءَ الْحَقَائِقِ
كَرِهِي دَعْوَاتِ اللّهِ قَدْ قَاتَ وَفَتْهَا كَمَا قَدْ أَقَاتَ اللَّيْلُ نَوْرَ الْمُشَارِقِ
كَرِهِي مَنَزَلَ اللَّذَاتِ يَنْزِلُ أَهْلُهُ وَجِدِّي لِمَا نَدَعَى إِلَيْهِ وَسَابِقِي (١)

٣ - التوبة:

والزاهد ما ينفك يؤوب إلى ربه، ويتوب إليه. فأبو اسحاق الالبيري،
على علمه بنهج الدين وسننه، إلا أنه يرى نفسه مثقل بالخطايا، ولو حكّم عقله
لناح على نفسه، ولم يجر ذبول التصابي، ولكن أواباً إلى الله تعالى عليه يفوز
بالرحمة. ولعل الشاعر هنا قد سلك سلوكاً تربوياً، فأراد أن يسدى النصح للناس
حتى يتوبوا لله تعالى. فهو يتمنى أن يتوب إلى الله تعالى توبة تباعد بينه وبين
النار. وأشار إلى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) (٢). فاستمع

إلى قوله:

وَمَا أَنَاذَا عَلَى عِلْمِي بِهِ هَذَا بَطِئُ الشَّوْ فِي سَنَنِ الصَّلَاحِ
وَلِي شَأْوٌ بِمِيدَانِ الْخَطَايَا تَعِيدُ لَأُيَازِي بِالرَّيْبِ أَحْ
فَلَوْ أَنِّي نَظَرْتُ بِعَيْنِ عَقْلِي إِنِّي لَقَطَعْتُ دَهْرِي بِالنِّيَاحِ
وَلَمْ أُسْحَبْ ذُبُولِي فِي التَّصَابِي وَلَمْ أُطْرَبْ بِعَانِيَةِ رَدَاحِ
وَكَنتُ الْيَوْمَ أَوَابًا مُنِيبًا لَعَلِّي أَنْ تَفُوزَ عَدَا قَدَاحِي
إِذَا مَا كُنتُ مَكْبُولَ الْخَطَايَا وَعَانِيَهَا فَمَنْ لِسِي بِالْبَرَاحِ؟
فَهَلْ مِنْ تَوْبَةٍ مِنْهَا نَصُوحٌ تَطِيرِي وَتَأْخُذُ لِي سِرَاحِي (٣)

(١) نفع الطيب ج ٤ ص : ٦٨-٦٩. وراجع ترجمة الشاعر في النفع ج ٢ ص : ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) سورة التحريم الآية ٨٤.

(٣) ديوان أبي اسحاق الالبيري ص : ٤٢. وراجع ص : ٩٤ و ص : ٨٧. وراجع قول ابن السيد البطليوسي في التوبة في القلائد ص : ٧١٧.

ب/ التصوف:

التصوف امتداد للزهد الإسلامي، ومبالغة ومغالاة في هذا الزهد^(١). والفرق بين الزهد والتصوف يتضاءل أحياناً حتى يتلاشى، ويبدو واضحاً أحياناً أخرى. فالتصوف مرحلة تالية للزهد، والأرجح لدى بعض الدارسين أن الزهد في مدلوله اللغوي والديني كان بعيداً عن التعقيد في بداية أمره. وأن زهد وزاهد كانت أقرب إلى لفظة عابد وقارئ. ثم استقامت واتضحت لها دلالات دينية وإسلامية كانت بعيدة التفلسف والتطرف، وأن هذه الدلالات قد توسعت بعد ذلك، كما أن السلوك الذهني راح يتعدّد تدريجياً حتى إذا وصلنا إلى أواخر العصر العباسي الأول وجدنا هذه الدلالات تندمج بدلالات التصوف حتى تكاد تضيع فيه، وحتى أصبح الزهد جزءاً من التصوف^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن من الشعراء المتصوفين في - عصر الطوائف -
الفقيه أبو عمر أحمد بن عيسى الالبيري "ت ٤٢٩هـ". وقد ألفنا أشعاره الزهدية
تخلط بالفلسفة والتصوف، فاستمع إلى قوله في قضاء الله تعالى:

| | |
|--|---|
| مَلِكُ تَعَالَى فَوْقَ غَايَاتِ الْعُلَا | يَقْضِي الْقَضَاءَ عَلَى نَهَائَاتِ الثَّرَى |
| مَنْ فَوْقِ فَوْقِ الْفَوْقِ يَنْفِذُ حُكْمَهُ | فِي تَحْتِ تَحْتِ التُّحْتِ تَحْتِ الْإِنْتِهَا |
| قُرْبًا وَبُعْدًا وَهُوَ أَعَدُّ مَنْ نَأَى | مَنْ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ أَقْرَبُ مَنْ دَنَا |
| جَلَّتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ فَجَلَّالُهُ | قَدْ جَلَّ عَنْ تَحْدِيدِ كَيْفٍ وَمَنْ وَمَا |

وهو ينظر إلى الكون ويتأمل فيه قدرة الخالق سبحانه وتعالى. يقول:

| | |
|---|--|
| يَا خَالِقًا خَلَقَ الزَّمَانَ بِقُدْرَةٍ | فِي غَيْرِ حِينٍ مِنْ أَحَابِيثِ الزَّمَانِ |
| يَا مُحِينًا لِلْكَلِّ كُنْتَ وَلَمْ تَزَلْ | وَكَذَلِكَ رَبِّي لَا يَزَالُ بِلَا مَكَانِ |
| أَنْتَ الَّذِي جَلَّتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ | وَعَلَّتْ جَلَالَتُهُ عَنِ إِدْرَاكِ الْعَيَانِ ^(٣) |

ونلمح في هذه الأبيات، إظهار العقيدة التوحيد في الإسلام، وجملاء

للصفات الإلهية التي تفرد بها العلي القدير، الذي ترفع عن إدراك العيان.

(١) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصلها في الادب. د. صالح آدم ييلو ط ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. مكة المكرمة ص: ٣٧٥.

(٢) التصوف في الشعر العربي. د. عبدالحكيم حسان ط الرسالة الانجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٥٤م ص: ٢٤-٢٥.

(٣) الذميرة ج ١ م ٣٤ ص: ٥٣١.

أما أشعاره الصوفية، فقد صادفتنا قصيدة له يذكر فيها كيف يشرب جوهر الحب رحيقاً يكف العقل في روضة الحب، وأن تلك الكأس لعبت به، فاهتزت نفسه إلى الذات الإلهية، وأخذت تتادي بالأنين حنينها، تسأله القرب منه، وهي أشبه ما تكون برحلة في ملكوت الله تعالى وغاية ما في الرحلة هو الفناء في ذات الله عن ذاته، والشرب أقصى ما يمكن من جوهر الحب الإلهي، فانظر إلى هذا التعمق في التعبير عن الحب الإلهي حين يقول:

| | |
|--|--|
| شَرِبْتُ بِكَاسِ الْحُبِّ مِنْ جَوْهَرِ الْحُبِّ وَكَامَرَ مَاءَ الرُّوحِ فَاهْتَزَّتِ الْقَوَى وَكَادَى حَيْثُنَا بِالْأَنْيُنِ حَيْنُنَا فَخَاطَبَهُ وَحِيَا إِلَيْهِ مَلِكُهُ فَاعْلُنْ بِالسَّبِيحِ مِنْكَ كَمْ أَجْدُ أَجُولُ بِيَعْضِي فَوْقَ بَعْضِي كَأَنِّي فَأَخَذَ بِزِمَامِ الشَّرْقِ مِنِّي تَعَطَّفَا لَعَلِّي أَشْقَى ثُمَّ أَشْقَاهُ دَائِمًا | رَحِيقًا يَكْفُ الْعَقْلَ فِي رَوْضَةِ الْحُبِّ قَوَى النَّفْسِ شَوْقًا وَارْتِيَا حَا إِلَى الرَّبِّ إِلَهِي إِلَهِي مَنْ لِعَبْدِكَ بِالْقُرْبِ سَاكُشِفُ يَا عَبْدِي لِعَيْنِكَ عَنْ حُجْبِي تَعَالَيْتَ عَنْ كُفْرِي يُكَافِيكَ أَوْ صَحْبِ بِيَعْضِي لِبَعْضِي كَالنَّجَائِبِ وَالرَّكْبِ إِلَيْكَ وَلَا تَعْلَمُ وَكَلِمِي إِلَيْنِ لَبِّي رَحِيقًا يَكْفُ الْعَقْلَ عَنْ جَوْهَرِ الْحُبِّ (١) |
|--|--|

والجدير بالذكر أن شعر التصوف لم يظهر بتلك الكثرة التي ظهر بها شعر الزهد. ويحدثنا ابن بسام في ذخيرته عن شاعر آخر أشبه أبا عمر الالبيري في تصوفه ونقل رسالة من رسائله (٢).

ج/ الحكم:

وشعر الحكمة أو شعر التأملات الفلسفية، يقوم أكثر ما يقوم على المعاني والأفكار التي تستلهمها العقول الراجحة من ظروف وأحداث مجتمعاتها في شتى ميادين الحياة. ومن ثم فهذا الشعر الحكمي ليس في حقيقته شعراً خالصاً، وذلك لإفتقاره إلى عنصرين أساسيين من عناصر الشعر بمفهومه الخاص، وأعنى بهما: عنصر الخيال، وعنصر العاطفة.

(١) اللخيرة ج ١ م ٢٤ ص: ٥٢١ - ٥٢٢.

(٢) نفسه ج ١ م ٢٤ ص: ٥٢٢.

ومع هذا، فالنفوس ترتاح إلى شعر الحكمة وتقبل عليه أينما وجدته، ولعل السر في ذلك راجع إلى قيمة هذا الشعر المزدوجة، فهو من ناحية يضيف إلى تجاربنا الخاصة في الحياة تجارب من سبقونا، فنفيد منها، ومن ناحية أخرى يظهرنا على ما يقره أو ينكره الحكماء من أخلاق وسياسة مجتمعاتهم^(١).

وفي عصر الطوائف عانى الشعراء كثيراً من تقلب الحياة السياسية، ومروا في خضم الفوضى السياسية بتجارب مريرة انعكست على شعرهم، فقد كان أغلب الشعراء ملتصقين بالملوك والوزراء، فكانوا بذلك أكثر عرضة للحسد الذي هو من أفبح الصفات، وذلك للمنافسات التي كانت بينهم، حتى إذا ترك الشاعر يلاط ممدوحه زهد في الدنيا وفي الناس كما فعل ابن الحداد^(٢)، ومن ثم جاء الشعر الحكيم صدى لهذه الحياة القاسية فدار في شعرهم ذكر التحذر من الحساد والأصدقاء الذين لا وفاء لهم، وحفظ اللسان، والترفع عن مواطن التذلل، وصيانة ماء الوجه، والتمسك بالكرامة وحرية الرأي، والثبات أمام الأهواء والنزوات. فأبو عمر بن عبد البر القرطبي، دعا في حكمه إلى الترفع عن

السؤال، والسعي في صلاح العيش، وصيانة ماء الوجه والرضا بالقضاء يقول:

| | |
|------------------------------------|---|
| تَعَفَّفُ الْمَرْءُ عَنْ سُؤَالِهِ | وَكَسِبَهُ الْحُلُ بِإِحْتِيَالِهِ |
| وَسَعَّيْهِ فِي صَلَاحِ عَيْشِهِ | رَمَنْ يُوَارِيهِ مِنْ عِيَالِهِ |
| وَمَنْ يَصْنُ وَجْهَهُ يَزِنُهُ | صِيَانَةُ الْوَجْهِ مِنْ جَمَالِهِ |
| رِضَى الْفَتَى بِالْقَضَاءِ عِزٌّ | وَذِلَّةُ الْوَجْهِ فِي ائْتِدَالِهِ ^(٣) |

وكثيراً ما دارت حكم الشعراء حول اللسان وضرورة حفظه، تحذوهم في ذلك ثقافتهم الدينية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فاللسان إذا ما

(١) الأدب العربي في الأندلس ص: ٢٠٨.

(٢) راجع شعر أبي عبد الله بن الحداد ص: ٦٠ - ٦١.

(٣) مجلة المجالس، وأنس المجالس وشخذ المناهن والمجاهس/ تأليف/ الامام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله النمري القرطبي. تحقيق محمد مرسى الخولي. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان بنون تاريخ المجلد الأول من القسم الأول ص:

حفظه الفتى كان عبداً له، وإذا أطلقه كان مثل المولى الجائر، يخر عليه المخاطر. يقول في ذلك ابن حمد يس:

لِسَانُ الْفَتَى عَبْدٌ لَهُ فِي سُكُوتِهِ
وَمَوْلَى عَلَيْهِ جَائِرٌ إِنْ تَكَلَّمَ .
فَلَا تُطَلِّقْهُ وَاجْعَلِ الصَّمْتَ قَيْدَهُ
وَصَيِّرْهُ إِذَا قَيْدَتْهُ سَجْنَهُ الْفَمَا (١)

ومن الحكم التي تعكس السلوكيات الإجتماعية، وتعامل الناس فيما بينهم. ما قاله ابن الحداد عندما تحدث عن أدب الصداقة، فأشار إلى ضرورة غض البصر عن هفوات الأخ، لانه لا يوجد انسان خال من العيوب.

وَاصِلُ أَخَاكَ إِذَا أَتَاكَ يُمْنَكَرُ
وَلِكُلِّ حَسَنِ أَفَةٍ مَوْجُودَةٌ
فَخَلُوصُ شَيْءٍ قَلَّمَا يَتِمَّ كُنْ
إِنَّ السَّرَّاجَ عَلَى سَنَاهُ يَدْحُنُ (٢)

وفي التحلي بالصبر أمام العدو الحاسد، يقول أبو تمام غالب بن رباح:
تَصَبَّرْ وَإِنْ أَبَدَى الْعَدُوَّ مَذْمُومَةً
كَمَا يَفْعَلُ النَّحْلُ الْمَلِيمُ بِالْهَمْعَةِ
فَمَهْمَا رَمَى تَرَجَّعَ إِلَيْهِ سَهَامُهُ
يُرِيدُ بِهِ ضُرّاً وَفِيهِ جَمَامَةٌ (٣)

وغاية القول: إن الشعر الحكيم، شعر يظهر فيه الربط بين الدين والأدب. وكان القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، من أهم الروافد التي نهل منها الشعراء معانيهم وضمونها حكمهم.

أما عن خصائص الأغراض الثلاثة التي درسناها وهي الزهد، والتصوف والحكم. نقول: إن من أهم خصائص شعر الزهد هو تفاوت أبياته طنولاً وقصراً. مثلما تتفاوت غزارة الشعر الزهدي من شاعر إلى آخر. فقد وجد شعراء ارتضوا الزهد مذهباً فجزوا فيه إلى نهايته مثل الالبيري وغيره، هذا من جانب، ومن جانب آخر وجد شعراء مثل الزهد عندهم غرضاً من جملة أغراض مثل السميسر وغيره، والسميسر ومن شابهه كان الزهد عندهم مرحلة أملتها عليهم ظروف خاصة، وحالات نفسية طارئة، فهم الذين طحنتهم الأحوال السياسية المضطربة، فهربوا إلى الزهد في الدنيا. فأبو عيسى بن ليون كان قائماً

(١) ديوان ابن حمد يس ص : ٤٧٧، وراجع ص : ٢٦٣، وص : ٣٥١.

(٢) شعر أبي عبد الله بن الحداد ص : ٨١.

(٣) الذمعة ج ٣ ص ٣٥ : ٥٤٦.

على مربيطر وعندما أخذت منه زهد في الدنيا وجال في شرقي البلاد وغربها لعله يتسلي بمصابه^(١).

ومن خصائص شعر الزهد - كما قلنا - هو سيطرة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عليه. فقد كان أغلب الزهاد والمتصوفة من الفقهاء والعلماء، والقضاة الذين نضج فكرهم الإسلامي.

ومن خصائصه أيضاً شيوع ظاهرة المقطوعات الشعرية، عند أغلب الشعراء الذين نظموا في الزهد، وهي مقطوعات لا تكاد تتجاوز الستة أبيات وقد تقل.

أما شعر المتصوفة فقد قل. ولعل من أهم خصائص الشعر الصوفي السمو الروحي، وبعد الخيال، ومنها المعاني العميقة الموغلة في الغموض وهي معان لا يكاد يفهمها إلا من كان متصوفاً، أو مشتغلاً بشعر التصوف، لأنه شعر مؤول لا يقصد به ظاهره، وإنما له محامل يحمل عليها وتتناسب معه. وهذا الغموض يندم تماماً في شعر الحكم. فالحكمة لا بد أن تكون واضحة المعنى. قصيرة في شكل مقطوعات، لأنها تطلق ليستفيد منها الناس. وقصرها الذي هو من خصائصها يجعلها تعلق بأذهان الناس بسهولة.

(١) راجع الحلة السواء ج ٢ ص : ١٦٨.

المبحث الثاني

شعر الجهاد والمعارك الإسلامية

يمكننا أن نعد الجهاد الإسلامي في الأندلس من الموضوعات الحيوية التي استأثرت بعناية الشاعر الأندلسي، واستقرغت طاقته.

والجهاد في عهد الطوائف لم يكن على مثال الأمراء السابقين لهم، بل أخذ عدد منهم إلى الأرض، ونفذ إليهم الوهن والخور، فتقاعسوا عن الجهاد إلا بقدر ما يحفظ لهم عروشهم وسلطانهم، حتى كان من آثار ذلك انقسام الأندلس إلى دويلات صغيرة يحكمها أمراء متفرقون^(١).

لقد شغل حكام الطوائف بتحسين الفرص لبعضهم البعض، وكل ملك يسعى لإضافة حصناً جديداً لمملكته، وإزاء تلك الحالة من الفرقة خضعوا لوعيد ملك قشتالة: "قلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم"^(٢).

ومع ذلك، فإن الجهاد خلال عهد ملوك الطوائف لم يتوقف، ولكنه اتسم بطابع الدفاع عن النفس حين تزايد خطر إسبانية النصرانية ممثلاً في ممالك برشلونة وأرغون ونافار وقشتالة والبرتغال، وآل الضعف بملوك الطوائف وتشاغلم بكيد بعضهم لبعض إلى الإستسلام المعنوي لملوك الروم ودفع الضرائب الباهظة، ودفعاً لشهرهم وتسكيناً لأطماعهم، وتخللت ذلك غزوات ومناوشات حربية يقوم بها بعضهم، لإسترجاع حصن أو مدينة، أو لأخذ الثأر بعد غارة سالية أو اعتداء على حقوق المسلمين، وكانت ثغور المسلمين في حالة مواجهة مستمرة، فالثغر الأدنى في مواجهة البرتغال، والأوسط في طليطلة يواجه قشتالة، والأعلى في سرقسطة يواجه برشلونة ونافار وأرغونا^(٣).

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ص: ٢٦٣.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص: ١٣٣.

(٣) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ص: ٢٦٣-٢٦٤.

ونتيجة لكل ذلك بدأت مدن الأندلس تتساقط الواحدة تلو الأخرى في يد الأعداء إلى أن سقطت كبرى قواعد الأندلس طليطلة على يد الفونسو السادس ملك قشتالة. وعندها شعر ملوك الطوائف بتفاقم الخطر المحدق بهم، ورأوا شبح العدو يوشك أن يطبق عليهم، ففكروا جدياً في الإستغاثة بالمرابطين .. وقد لبى المرابطون نداء الجهاد لنجدة إخوانهم الأندلسيين المسلمين، وكانت واقعة "الزلاقة" الشهيرة سنة ٤٧٩هـ فاتحة دخولهم بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فوضعوا حداً لأطماع الفونسو المتزايدة، واشترك المرابطون مع ملوك الطوائف بالجهاد خلال السنوات "٤٧٩هـ-٤٨٣هـ" ثم كانت السنوات "٤٨٣هـ-٥٠٩هـ" سنوات حاسمة أقصى خلالها ملوك الطوائف، وقضى عليهم لتنتقل الأندلس إلى ولاية مرابطية تابعة للمغرب.

وقد حفظ الشعر الأندلسي صوراً كثيرة لتلك الغزوات والمعارك الإسلامية في ذلك العهد، ولعل السمة المشاهدة في الشعر الأندلسي هي أن الجهاد كان موضوعاً للمفاخرة والمباهاة، وفي الوقت نفسه كان الشعر يحرض عليه، ويدعوا إليه، وكانت الشاعرية التي تعزف على هذا القيثارة، صفة يمدح المتصف بها وقد افتخر بممارسته والحث عليه الشعراء الفرسان وغير الفرسان، والسادة الملوك والوزراء وعامة الناس .. وهذا بلا ريب شعور نابع من قدسية الجهاد في الإسلام، وفرضيته على المسلمين، ولهذا كانت مراتب الفرسان تزيد لدى مواليهم بقدر ما يقدمون من أعمال بطولية في ساحات الجهاد^(١).

وتعد واقعة "الزلاقة" من أهم المعارك الجهادية، والملاحم الإسلامية، فقد فاضت لذكرها قريحة الشعراء وخاصة شعراء المديح. وكان على رأسهم الشاعر ابن وهيبون المرسي^(٢)، وابن القزاز، وأبو بحر يوسف بن عبدالصمد^(٣) وغيرهم، وكلهم أشادوا بملكهم المحبوب المعتمد بن عبّاد، وذلك لجسارة المعتمد

(١) الانجماء الإسلامي في الشعر الأندلسي ص: ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) راجع الفلامنيد ص: ٧٢. وراجع الذخيرة ج ٢ م ١٠ ص: ١٥٢-١٥٣. وراجع المطرب في أشعار أهل المغرب/ تأليف لابن دحية. حققه مصطفى عوض الكرم ط ١ مطبعة مصر - الخرطوم ١٩٥٤ م ص: ١١٥-١١٦.

(٣) راجع الذخيرة ج ٣ م ٢٢ ص: ٥٣١-٥٣٢.

وأقدمه في المعارك من ناحية، ولمكانته الأدبية من ناحية أخرى. كما عددوا فضائل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

قابن القرزاز يمدح المعتمد الذي طار ثناؤه فلم تسبقه الرياح، وقد خاض غمار الحرب، ومحا الفساد وأبدله بالصلاح. يقول:

ثَنَّاوُكَ لَيْسَ تَسْبِقُهُ الرِّيحُ يَطِيرُ وَمِنْ نَدَاكَ لَهُ جَنَاحُ
لَقَدْ حَسَنْتَ بِكَ الدُّنْيَا وَسَبَّتَ فَغَنَّتْ وَهِيَ نَاعِمَةٌ رَدَاحُ
جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا عَنِ بِلَادِ مَكَا عَثَا الفُسَادُ بِكَ الصَّلَاحُ

ثم ينتقل إلى وصف المعركة، ويصف المعتمد الذي قاد للكفار أسوداً ملا بهم الأرض، وقد ثبت في الهيجاء حتى انقته السنة الأسنة، فهو ليث ظهر لعباد المسيح فصعقوا من فورهم:

جَنَبْتَ إِلَى الْأَعَادِي أَسَدَ غَابٍ بَرَأْتَهَا الْمُهَنْدَةَ الصَّفَاحُ
وَقُدَّتْهُمْ فَكَانَ لَهُمْ ظُهُورٌ وَلَوْلَا الشَّمْسُ مَا ظَهَرَ الصَّبَاحُ
وَقَفْتَ وَمَوْقِفَ الْهَيْجَاءِ ضَنْكَ وَفِيهِ لِبَاعِكَ الرَّحْبُ انْفَسَاحُ
وَالسَّنَةُ الْأَسْنَةُ قَائِلَاتُ قَفُوا هَذَا الْمُؤَيَّدَ لِابْرَاحُ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ هَزْبُورُ لِعِبَادِ الْمَسِيحِ بَكَا فَطَاحُوا

ثم يمدح المعتمد بلسان الأمير يوسف بن تاشفين الذي شهد له بالبسالة والإقدام يقول:

رَأَى مِنْهُ أَبُو يَعْقُوبٍ فِيهَا عَقَابًا لَا يُهَاضُ لَهُ جَنَاحُ
فَقَالَ لَهُ لَكَ الْقُدْحُ الْمُعَلَّى إِذَا ضُرِبْتَ بِمَشْهَدِكَ الْقَدَاحُ (١)

ومن ناحية أخرى فقد وصف المعتمد بأنه أشعر ملوك الطوائف، فكان

لابد لهذه القريحة الشاعر المتفتحة أن تنها بهذا النصر. وبالفعل فقد قال المعتمد

يستبشر بالغزو ويمدح ابن تاشفين:

غَزُو عَلَيْكَ مُبَارَكٌ فِي طِيهِ الْفَتْحُ الْقَرِيبُ
لِلَّهِ سَيِّفُكَ إِنَّهُ سَخَطٌ عَلَى رِيثِ الصَّلِيبِ

(١) النخبة ج ١ ص ٢٢٠: ٥٠١.

لَا بَدَّ مِنْ يَوْمٍ يَكُونُ

نُكْلُهُ أَخُ يَوْمِ الْقَلْبِيبِ (١)

هكذا كان الدين الحنيف يملك نفوس الشعراء، فيهبوا إلى نصرته بأشعارهم، ثم الإفتخار بملوكهم الذين قادوهم إلى هذا النصر - بإذن الله تعالى - وغلبت الروم على أمرها، وتمزقوا أيما تمزق. وللنصر في "الزلاقة" صدهاء في نفوس الشعراء، فما من شاعر إلا ولهج بذكرها ووصفها. فهي واقعة ما زال صداها يدق في أسماع التاريخ إلى يومنا هذا. فقد هزم عبّاد الصليب وقبروا في ذلك الوقت، ولكنهم ما زالوا يهزمون، ويموتون، ويقبرون كل يوم أمام أعين القراء.

وتتلأأ صور الجهاد المشرقة على أسنة كبار الشعراء، فابن زيدون ينظم قصيدة يذكر فيها جهاد المظفر، الذي استعصم بعروة الدين الحنيف، وجاهد في

الله - عبيد الأصنام - حق جهاد، فأرغم أنوفهم وأذل شموخهم وجبروتهم يقول:

أَبُوهُ الَّذِي قَلَّ غَزَبُ الضَّلَالِ وَلَا عَمَّ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمَ
وَلَا ذَبَّ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعَصِمًا بِدِمَّةِ أْبْلَجٍ وَافِئِ الذَّمِّ
وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ الْجِهَانِ دِمْنًا دَانًا مِنْ دُونِهِ بِالصَّنَمِ
فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَعَمَ (٢)

وقد كانت الدعوة إلى الجهاد والحرب توافق سويغات يرتفع فيها الصوت، خاصة عندما يسقط ثغر أو مدينة بأيدي الأعداء، فحينها تشتد الضرورة لإسترجاعها. فقد تأثر الشاعر أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني "ت ٤٦٠هـ" بنكبة المسلمين في بريشتر، فنظم قصيدة حض فيها على الجهاد، واستنفر أهل البلاد للوثوب على أعداء الدين يقول:

بَيَّتَ الشَّرُّ فَلَا يَسْتَزِيلُ طَرَقَ النَّوَامُ سَمْعُ أَرْلُ
فَنَبَّوْا وَأَخْشَوْسَنُوا وَاجزَلُوا كُلُّ مَارِزٍ سَوَى الدِّينِ قُلُّ

(١) ديوان المصدا بن عباد ص: ٢٧ وراجع ص: ١٠٦-١٠٩-١٦٠.

(٢) ديوان ابن زيدون ص: ٤١٣-٤١٤.

صَرَخَ الشَّرُّ فَلَا يُسْتَقَلُّ
نَقَبُوا قَالِدَاءَ يَحُولُ

إِنْ نَهَلْتُمْ جَاءَكُمْ بَعْدَ عَلْبٍ
وَاعْمِدُوا سَيْفًا عَلَيْكُمْ يُسَلُّ (١)

وقد سجل لنا ابن الحداد إحدى غزوات المقتدر بن هود السرقسطي، بجهة الثغر الأعلى، وفي هذه المعركة هدم المقتدر حصن رزمير الطاغية، وكان النصر مضمون للمقتدر، لأنه أخلص النية لله تعالى، فأعانه الله تعالى حتى جلى ظلام الكفر وعطل انجيل المسيحيين يقول:

مَضَاوِكَ مَضْمُونٌ لَهُ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ
وَإِذَا كَانَ سَعْيِ الْمَرْءِ لِلَّهِ وَحَدَّهُ
بِكَ أَقْتَدَحَ الْإِسْلَامُ زَنْدَهُ أَنْتَصَارَهُ
وَجَلَّى ظَلَامَ الْكُفْرِ مِنْكَ بِغَبْرَةٍ
فَهُمْ ذَهَبُوا عَنْ شُرْعِهِمْ وَحُدُودِهِ
وَسَعْيِكَ مَقْرُونٌ بِهِ الْيَمْنُ وَالنُّجْحُ
تَدَانَتْ أَقَاصِي مَا نَحَاهُ وَمَا يَنْحُو
وَبِيضِكَ نَارٌ شَبَّهَا ذَلِكَ الْقَدْحُ
هِيَ الشَّمْسُ وَالْهِنْدِيُّ يُقَدِّمُهَا الصُّبْحُ
فَقَدْ عَطَّلَ الْإِنْجِيلُ وَأَطْرَحَ الْفِصْحُ (٢)

وهكذا يكثر الشعر الذي يستنفر الهمم ويحض على الجهاد، ليقف كل مسلم في وجه أعداء الدين الحنيف، يهوداً كانوا أم نصارى.

ولعل من أهم خصائص شعر الجهاد والمعارك الإسلامية، هو شمول الوصف فقد وصف الشعراء المعارك، وأدوات الحرب فيها. ووصفوا ثبات أبطالها، وأشادوا ببلاء ملوكهم وبطشهم بالأعداء.

ومن الخصائص أيضاً اختيار الألفاظ الحماسية التي تحض على الجهاد.

(١) النخبة ج ٢ م ٤ ص : ٥٢.

(٢) شعر أبي عبد الله بن الحداد ص : ٤٧.

الفصل الرابع

الشعر الإجتماعي

ويحتوى على خمسة مباحث

المبحث الأول : الرثاء

المبحث الثاني : الهجاء

المبحث الثالث : الاخوانيات

المبحث الرابع : المدح

المبحث الخامس : الشعر الفلسفى

المبحث الأول

الرثاء

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا العربي، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة. ولكل أمة مراثيها، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة هي الندب والتأبين والعزاء. أما الندب فبكاء الأهل والأقارب فيئن الشاعر ويتفجع .. فقد أصابه القدر في ابنه، أو أبيه، أو أخيه .. فيبكي ويلحن بكاءه على قيثاره شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات، لا يندب نفسه وأهله فحسب، بل يندب أيضاً من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم.

وليس التأبين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يختر نجم لامع من سماء المجتمع، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه. ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الإجتماعي، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة. والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددتها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة. وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معانٍ فلسفية عميقة^(١).

وقد شاع شعر الرثاء في - عصر الطوائف - ووجدنا الكثير من الشعراء الذين نرقوا دموعاً حرى امتزجت بحر قلوبهم المتفجعة على من فقدوا، فقد بكوا في شعرهم أهلهم، وأقاربهم، كما بكوا قواد بلادهم من ملوك ووزراء وأبطال

(١) الرثاء: د. شوقي ضيف ط ٢. دار المعارف بمصر بلا تاريخ ص: ٥ - ٦.

أسهموا وأثروا حياتهم السياسية، والإجتماعية. كما وجدنا عندهم نوعاً من الرثاء عرف برثاء المدن والممالك الزائلة.

أ / رثاء الأهل والأقارب:

ويدخل في رثاء الأهل والأقارب رثاء الزوجات، وقد أطلق الدكتور إحسان عباس على هذا اللون من الرثاء، البكاء على زوال الرقة والجمال. فقال: "وغالبا ما يتصل هذا اللون ببكاء "الزوجة" وهو بكاء يمتد من فقد الزوجة بالطلاق إلى فقدانها بالموت، وهو لون ذاتي خالص، يعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح، كأنه ترجمة ذاتية قصيرة، فها هنا يطلق الشاعر الأندلسي للعاطفة - التي قد يتحرج كثير من الناس عن التلويح بها - العنان، فيتحدث عن الجمال وحلاوة العشرة، وعن سهره وحزنه .. وما ذاك إلا لشعور الأندلسي بقيمة المرأة وتقديره لدورها^(١).

فأبو اسحاق الالبيري سطر قصيدة رثى بها زوجته، ووصفها بالنقى والعفة، ونوه إلى كريم أصلها وصونها لعرضها، ووصف تصدع قلبه بفقدها، وراح يتمنى زيارة خيالها في منامه فهو ما زال يحفظ عهدا، وإن نثر جسمها في رمسها، فهو باق لا يندثر. فهي التي قطعت معه الزمان بكريم العشرة. فحق له أن يسطر فيها نوارس القريض يقول:

| | |
|--|---|
| عَجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْبَابِ الْغَامِرِ | وَأَرْبَعٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ نَاطِرِي |
| فَمَنْعَهُنَّ مَكَانَهُ بِضَجِيعِهِ | وَيَنْمُ مَنَّةً إِلَيْكَ عَرَفَ الْعَاطِرِ |
| فَلَكُمْ تَضَمَّنَ مِنْ نَقَى وَتَعَفُّفِ | وَكَرِيمِ أَعْرَاقٍ وَعَرْضِ طَاهِرِ |
| وَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ | صَدَعَتْهُ صَدْعًا مَالَهُ مِنْ جَابِرِ |
| فَعَسَاهُ يَسْمَعُ لِي بِوَضَلٍ فِي الْكَرَى | مَتَعَاهِدًا لِي بِالْخَيْالِ الزَّائِرِ |
| فَاعْلَلِ الْقَلْبَ الْعَلِيلَ بِطَافِهِ | عَلَى أَوْافِيهِ وَلَسْتُ بِغَائِرِ |

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص: ٩٧

إِنِّي لَأَسْتَحْبِيهِ وَهُوَ مَغِيْبٌ
 أَرَعَى أُنْمَتَهُ وَاحْفَظَ عَهْدَهُ
 إِنْ كَانَ يُدَثِّرُ جِسْمَهُ فِي رَمْسِهِ
 قَطَعَ الزَّمَانَ مَعِيَ بِأَكْرَمِ عَشْرَةٍ
 مَا كَانَ إِلَّا نُدْرَةً لَا أَرْتَجِي
 وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُهُ فِي وَدِّهِ
 وَسَقَقْتُ فِي خَلْبِ الْفُؤَادِ ضَرْبَهُ
 أَجِدَ الْحَلَاوَةَ فِي الْفُؤَادِ يَكُونُهُ
 فِي لَحْدِهِ فَكَأَنَّهُ كَالْخَاطِنِ ر
 عِنْدِي فَمَا يَجْرِي سِوَاهُ بِخَاطِرِي
 فَهَوَايَ فِيهِ الدَّهْرُ لَيْسَ بِدَائِرِ
 لَهْفِي عَلَيْهِ مِنْ أَتْرَ مُعَاشِرِ
 عِوَضًا بِهَا فَرْتَبُّهُ بِنَوَادِرِ
 لَقَضَيْتُ يَوْمَ قَضَى وَلَمْ أَشْتَخِرِ
 وَسَقَيْتُهُ أَبَدًا بِمَاءِ مَحَاجِرِي
 فِيهِ وَأَرَعَاهُ يَعْنِي ضَمَائِرِي (١)

وهذه القصيدة يتجلى فيها الصدق العاطفي، والشعور العميق بفقدان
 المأوى والسكن: "وصدور هذه القصيدة عن قلب رجل زاهد يمنحها لونا خاصاً،
 فإن كون الوفاء فيه أمراً طبيعياً لا ينقصها حظها من هذا البوح الودي الذي يلحق
 بمعارج العشق والتوله. وليس يخل فنياً بقصيدة الالبيري إلا استطراده فيها لذكر
 الحور العين وضرورة العبادة لمن كان مثله كي ينالهن، وحديثه "حديثاً جنسياً"
 عن طبيعة الرضى الذي يجده إذا هو قرأ القرآن، ثم انحأوه على نفسه باللائمة،
 وانتأوه إلى مجال الأخلاق وكراهية الثرثارين (٢).

ب/ رثاء الأبناء:

ولعل أصدق صورة لرثاء الأبناء ما قاله المعتمد بن عباد في رثاء ولديه.
 عندما بكى وأبكى الطبيعة من حوله وصور حزن الأسرة عليهما يقول:
 يَقُولُونَ صَبْرًا لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ سَأَبْكِي وَأَبْكِي مَا تَطَاوَلَ مِنْ عُمْرِي
 هَوَى الْكُوكَبَانِ: الْفَتْحُ ثُمَّ شَقِيْقُهُ يَزِيدُ فَهَلْ بَعْدَ الْكُوكَبِ مِنْ صَبْرِ

(١) ديوان أبي اسحاق الالبيري ص: ٧٤ - ٧٥. وراجع رثاء ابن حمد بن زوجته في ديوانه ص: ٤٧٩ - ٤٨٠. ورثاء لأبيه في

ص: ٥٢٣، ورثاء لعمته في ص: ٣٥ - ٣٦. ورثاء لجاريته جرمرة في ص: ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) تاريخ الأدب الأنلسي عصر الطوائف والمرابطين ص: ٩٩.

تَرَى زُهْرَهَا فِي مَاتِمٍ كُلَّ لَيْلَةٍ
يُنْحَنَ عَلَى نَجْمَيْنِ أَتَكُنَّ ذَا وَذَا
تَوَلَّيْتُمَا وَالسِّنُّ بَعْدُ صَغِيرَةٌ
تَوَلَّيْتُمَا حِينَ انْتَهَتْ بِكُمَا الْعُلَى
مَعِيَ الْأَخْوَاتُ الْهَالِكَاتُ عَلَيْكُمَا
فَتَبِكِي بِدَمْعٍ لَيْسَ لِلْقَطْرِ مِثْلُهُ
أَبَا خَالِدٍ أَوْرَثْتَنِي الْبَيْتَ خَالِدًا
وَقَبْلُكُمَا مَا أُوْدَعِ الْقَلْبَ حَسْرَةً

يَحْمَسُنَ لَهَا وَسَطَهُ صَفْحَةَ الْبَرِّ
وَيَا صَبْرُ مَا لِلْقَلْبِ فِي الصَّبْرِ مِنْ عُذْرٍ
وَلَمْ تَلْبَثِ الْأَيَّامُ أَنْ صَغُرْتَ قَدْرِي
إِلَى غَايَةٍ، كُلُّ إِلَى غَايَةٍ يَجْرِي
وَأَمَّكُمَا التَّكْلِ الْمُضْرَمَةَ الصَّبْرِ
وَتَرَجَّرَهَا النُّقُوى فَتُصْغَى إِلَى الزَّجْرِ
أَبَا النَّصْرِ مَذُودَعَتْ وَدَعْنِي نَصْرِي
تَجَدَّدُ طَوْلُ الدَّهْرِ تَكْلِ أَبِي عَمْرُو (١)

د / رثاء الأحاب والأصدقاء:

وفي رثاء الأحاب والأصدقاء، نلتقى بابن وهبون المرسي الذي رثى
أستاذه "الأعلم الشنتمري"، بقصيدة نفذ خلالها من حادثة الموت التي هو بصدها،
إلى الإمعان في النظرات الفلسفية حول الكون والحياة والموت يقول:

سَبَقَ الْفَنَاءَ فَمَا يَدُومُ بَقَاءُ
مَاتَ ابْنُ عَيْسَى مَنْ يَقُولُ بِهِ عَسَى
أَفَلَا حَمَّتَهُ فَضَائِلُ مُؤَفُّورَةٌ
تَفَنَّى النُّجُومُ وَتَسْقُطُ الْبَيْضَاءُ
شَفَقًا وَلَيْسَ مَعَ الْجِمَامِ رَجَاءُ
وَجَلَالَةٌ تُعْنُو لَهَا الْعُظْمَاءُ (٢)

هـ / رثاء القواد والوزراء:

لقد كان قواد ووزراء - عصر الطوائف - هم أنفسهم الذين يقودون
الجيوش، فكانوا بذلك أكثر عرضة للقتل أو الأسر. وقد سطر الشعراء الكثير من
رثائهم في ملوكهم ووزرائهم، فشاعر العباديين الوفي "أبو بحر بن عبدالصمد"،
يرسل آهاته وأناته شعراً، عندما مات المعتمد بن عبَّاد سنة ٤٨٨هـ، ووري

(١) ديوان للمرسي بن عبَّاد ص: ١٦٢ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ج ٢ م ١٩ ص: ٢٩٠-٢٩١.

جسده التراب. فقد زار هذا الشاعر قبر المعتمد، وأنشد قصيدة سألت من أجلها الدموع والعبرات، وانتزعت من الصدور الأنات والزفرات، في يوم عيد تكثر فيه المباهج والمسرات. فقد كان الشاعر بالأمس ينشده وهو في قصره، أما الآن فقد اتخذ قبره موضع الإنشاد يقول:

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَسَامِعُ فَأَنْتَ أَدِي
أَمَّ قَدْ عَدَّتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِرِ
لَمَّا نُقِلْتَ مِنَ الْقُصُورِ فَلَمْ تَكُنْ
فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
قَبِلْتُ فِي هَذَا التَّرِي لَكَ خَاضِعاً
وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْأَنْشَادِ (١)

قال ابن بسام عن هذه القصيدة: "وأنشد على قبره وفعل ما ذكر: قَبِلَ التراب ومرغ جبينه وعفر، فأبكى من حضر" (٢).

وقصيدة ابن عبد الصمد هذه تعد من أميز القصائد التي قيلت في رثاء القادة والملوك، ففيها يتجلى الحزن الصادق، والعاطفة الصادقة، والحب الذي لا زيف فيه للمعتمد بن عباد.

وفي رثاء الوزراء نلتقي بأبي جعفر أحمد بن جرج، الذي رثى ابن عمار وزير المعتمد بن عباد في قوله:

قَدْ طَالَمَا عُمِّرَ الْمَرْءُ ابْنَ عَمَّارِ
مَمْتَدِحاً بِأَمَانِي وَأَخْطَارِ
يُمَلَى لَهُ وَيُمَلَى كَلْبٌ مَا وَطَّرِ
وَالْمَقَادِيرِ فِيهِ أَيُّ أَوْطَارِ
مَكَارُهُ خَفِيَّتْ عَنْهُ مَصَادِرُهَا
وَالْحَيْنُ مَا بَيْنَ إِيْرَادِ وَإِضْدَارِ
مُسْتَوَزَّرٌ لَمْ يُولُ مِنْهَا إِلَى وَزْرِ
وَكَمْ تَحَمَّلَ مِنْ أَعْيَالِ أَوْزَارِ
تَأْتِي الْأُمُورُ إِذَا أَقْبَلْنَ مُشْكَلَةً
لَكِنْ تَقَاسِيرُهَا تُغْرِي بِإِدْبَارِ (٣)

وهناك نوع آخر من الرثاء، وهو رثاء القائد لنفسه. فإذا أحس القائد بدنو أجله سارع لرثاء نفسه، كأنه يظن أنه سيكون نسياً منسياً. مثل المعتمد ابن عباد الذي أحس بدنو أجله فرثى نفسه في قوله:

(١) اللخيرة ج ٢ ص ٢٢: ٣٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٢: ٣٢.

(٣) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٣٠٦-٣٠٧.

فَبَرَّ الْغَرِيبَ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي
حَقًّا ظَفَّرَتْ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عَبَّادٍ
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا أَقْتَلُوا
بِالْمَوْتِ أَحْمَرَ بِالضَّرْغَامَةِ الْعَادِي

ويطيل في تسجيل مفاخرة كانه ابن اللبابة، أو ابن عبدالصمد، أو أي

شاعر من شعراء بلاطه، نهض لينعاه، إلى أن يدعو لنفسه بقوله:

وَلَا تَزَالُ صَلَوَاتُ اللَّهِ لِرَبِّهِ
عَلَى كَفَيْكَ لَا تُحْصَى بِتَعْدَادٍ (١)

و/ رثاء المدن والممالك الزائلة:

وكان من نتيجة تناحر أمراء الطوائف فيما بينهم، أنه لم تمر فترة من الزمن، إلا وتسقط مدينة، أو تختفى مملكة .. فما هي إلا سنوات حتى قويت حركة الإسترداد، ووقف الشعراء يبكون المدن الضائعة والممالك الزائلة، ويناشدون من بقي من الملوك والحكام الاتعاض بما حدث، والحرص على ما بقي، والاستيقاظ قبل فوات الأوان، .. وكان أول البقاع سقوطاً مدينة "بربشتر" التي سقطت في يد النورمان "المجوس" فقتلوا عامة رجالها، وسبوا ذراري المسلمين ونسائهم، وغنموا منها غنائم كثيرة (٢).

وقد استثار الخطب قريحة الشاعر الزاهد ابن العسال فقال وقد عظم

الخطب أمامه:

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمَشْرِكُونَ بِأَشْهُمٍ
هَنَكُوا بِخَيْلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمِهَا
لَمْ تَخْطِ لَكِنْ سَأْنَهَا الْأَصْمَاءُ
كَمْ يَبُوقُ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ سُعْوَاءُ (٣)

وأصيب المسلمون بعد ذلك بنكبة مروعة كان لها صدى كبيراً وحرناً عميقاً في نفوس أهل الأندلس عامة، وفي نفوس الشعراء خاصة، وهي سقوط

(١) ديوان المعتد بن عباد ص: ١٩٣.

(٢) الفن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي. د. فاضل قحى والي. ط. ١٠. ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م. دار الأندلس للنشر والتوزيع ص: ١٤٨.

(٣) الفن والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي ص: ١٤٨.

طليلة سنة ٤٧٨هـ، فأصاب الناس حينها نوع من اليأس وتاقوا للخلاص على يد المرابطين. وقد سالت لهذه المصيبة دموع الشعراء فبكوها ورثوها، ورموا باللائمة على حكامها الذين تهاونوا في الدفاع عنها. فقال فيها ابن العسال داعيا أهل الأندلس إلى الرحيل والفرار من شبه الجزيرة لأن البقاء فيها، بقاء مع الحيات هذا ظاهر الأبيات، ولكن الشاعر قصد التحذير برسم صورة الخطر المحقق بهم، وقدم دعوة لتنهض النفوس مدافعة عن طليطة:

حُتُّوا رَوَّاحِكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
السَّلَكُ يُنْتَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَارَى سَلَكَ الْجَزِيرَةِ مَنثورًا مِنَ الْوَسَطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَمْ يَأْمَنْ عَوَاقِبُهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَطِ^(١)

وهناك قصيدة ذكرها المقرئ في نفعه، وهي لشاعر مجهول يندب طليطة، ورأى في نكبتها ضربة للإسلام فبعدها كانت دار إيمان صارت دار كفر وحولت مساجدها إلى كنائس^(٢).

وهكذا كان الشعراء كلما سقطت مدينة في يد النصاري، تصدوا لراثها، وحرصوا الملوك للجهاد من أجلها والإحتفاظ بما بقي.

ونريد أن ننوه إلى أننا أحببنا أن نفرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك. فرثاء المدن عنيًا به رثاء المدن التي سقطت في أيدي النصاري، أما رثاء الممالك فنعني به أقول شمس دول الطوائف عند دخول المرابطين، وما قاله الشعراء في رثائها.

وأشهر دول من دول الطوائف، خلد شعر الرثاء ذكرها هي، دولة بني عباد أصحاب إشبيلية، ودولة بني الأفطس ببطليوس، ودولة بني صمادح بالمريّة. أما دولة بني عباد فمن المعروف إنها كانت أكبر دول الطوائف، وكانت تضم أكابر الشعراء كابن اللبانة، وابن عبدالصمد، وابن حمد يس وغيرهم. وهؤلاء

(١) رقيات الأعيان ج ٤ ص : ١١٨ - ١١٩، وراجع نفع الطيب ج ٦ ص ١٣١.

(٢) نفع الطيب ج ٦ ص : ٢٧٥.

الشعراء مثلما تغنوا بأمجاد ملوكها، رثوها بعد زوالها. ولكن المعتمد بكى دولته قبل أن يبكيها الشعراء، وديوانه يفيض بالعبرات والأحزان.

فهذا أول عيد تشرق شمسُه والمعتمد مسجين بأغمات، فتتوارد عليه الخواطر والذكريات، فيتذكر أيام مجده، ثم ينظر إلى ما آل إليه فتثور أحزانه. ويصف صاحب القلائد هذا المشهد فيقول: "وأول عيد أخذه بأغمات، وهو سارح، وما غير الشجون له مسارح، ولاذئاً إلا حالة الخمول، واستحالة المأمول، فدخل عليه من بنيه من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار كأنهن كسوف وهن أقمار، يبكين عند التساول، ويبدين الخشوع بعد التخایل، والضياغ فقد غير صورهن، وحيراً نظرن، وأقدامهن حافية وآثار نعيمهن عافية^(١) فهال هذا المنظر المعتمد فنفع سحره الحلال في الفاظ العربية لتنظيم معبرة عن مصابه يقول:

| | |
|---|---|
| فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا | فَسَاءَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورًا |
| تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً | يَغْزِلُنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَ قَطْمِيرًا |
| بَرَزْتَ نَحْوَكَ لِلنَّبِيِّمِ حَاشِعَةً | أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكْسِيرًا |
| يَطَّانُ فِي الطَّيْنِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً | كَانَهَا لَمْ تَطَّأْ مَشْكَأً وَكَافُورًا |
| لَا خَدَّ إِلَّا تَسَكَّى الْجَدْبَ ظَاهِرُهُ | وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورًا |
| أَفْطَرْتُ فِي الْعِيدِ لَا عَائَتْ إِسَاءَتُهُ | فَكَانَ فِطْرَكَ لِلْكَبَادِ تَقْطِيرًا |
| قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمَرَهُ مُمْتَلِكًا | فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهَيًّا وَمَأْمُورًا |
| مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ | فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا ^(٢) |

إذا فابن عباد بكى ملكه في نفسه التي ذلت، وفي أبنائه، وبناته، وأهله.

وأمام هذه الديموع الحري-الدامية، لم يمتك الشعراء السننهم، بل أطلقوها لترسى هذا الملك الضائع. فكان أشهر من سألت بموعه حزنا على مملكة بني عباد، الشاعر - الذي لا يشك لحظة في وفائه للأسرة العبادية - وهو الشاعر لبن اللبانة

(١) القلائد ١ ص: ٩٥.

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ص: ١٦٨ - ١٦٩.

الذي جادت قريحته بكثير من شعر الرثاء في هذه الدولة المأسوف عليها. وكان من أبرز ما قاله في رثائهم، قصيدته الدالية التي استهلها ببكاه وبكاء السماء بمزن لا ينقطع على أبناء عباد، ثم نعتهم بأفضل النعوت، فهم الجبال التي انهبت قواعدها بعد أن كانت للأرض أوتاداً، وكان بلاطهم كعبة الأمانى يحج إليها كل راغب في تحقيق أمانيه يقول:

| | |
|---|--|
| تَبْكِي السَّمَاءُ بِمُزْنِ رَائِحِ غَادِي | عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أُنْيَاءِ عَبَادِ |
| عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هَدَّتْ قَوَاعِدَهَا | وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ |
| عَرَّيْسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَى | أَسَاوِدَ لَهُمْ فِيهَا وَأَسَادِ |
| وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الْأَمَالَ تَعْمُرُهَا | فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادِ (١) |

أما مملكة بطليوس، فقد رثاها الكاتب الأبرع ابن عبدون "ت ٥٢٧هـ"، وقد استهل قصيدته بالحديث عن الدهر وغمده، ثم راح يستعرض ما فعلته الأيام بالدول الغابرة، إلى أن يصل ليعدد مناقب بني الأفطس، فهم الملوك العظام، وأهل الحرب والطعان. والدين والدنيا في حسرة على عمر وولديه يقول:

| | |
|--|---|
| بَنِي الْمُظَفَّرِ وَالْأَيَّامِ، لَانَزَلْتَ | مَرَّاحِلُ وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ |
| سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حَمَلَتْ | بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَابِرِ الْعُمَرِ |
| مَنْ لِلْأَسْرَةِ، أَوْ مَنْ لِلْأَعْنَةِ أَوْ | مَنْ لِلْأَسْنَةِ يَهْدِيهَا إِلَى الثَّغْرِ |
| مَنْ لِلْبِرَاعَةِ أَوْ مَنْ لِلْبِرَاعَةِ أَوْ | مَنْ لِلسَّمَاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ |
| أَوْ دَفْعِ كَارِكَةٍ أَوْ رَدْعِ أَرْفَكِ | أَوْ قَمْعِ حَادِيَةٍ نَعْيًا عَلَى الْقَدَرِ |
| وَيْبِ السَّمَاحِ وَوَيْبِ الْبَاسِ لَوْ سَلِمَا | وَحَسْرَةَ الدِّينِ وَالذَّنْيَا عَلَى عُمَرِ (٢) |

أما دولة بني صمادح فقد رثاها عبيدالله بن المعتصم في قوله:

| | |
|---|---|
| أَبْعَدَ السَّنَى وَالْمَعَالِي حُمُولِ | وَبَعْدَ رُكُوبِ الْمَذَاكِي كُبُولِ |
| فَقَدَّتْ الْمَرِيَّةَ أَكْرَمَ بِهَا | فَمَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا سَبِيلِ (٣) |

ولا يفوتنا في هذا المقام، ذكر قرطبة، التي كانت مسقط رأس العديد من

الشعراء، فقد رثاها السمسيسر في قوله:

(١) شعر ابن اللبابة الثاني ص: ٣٩، وراجع ديوان ابن حمد بن ص: ٥٣٣.

(٢) ديوان عبدالمجيد بن عبدون اليابري. تحقيق: سليم التتر. ط ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. دار الكتاب العربي ص: ١٤٧-١٤٨.

(٣) تاريخ الفكر الأندلسي ص: ١١٤.

مُعْتَبَرًا أَنْدَبَ أَشْتَاتَا
قَالَتْ: وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا
هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هُدَاهَا
نَوَادِبٌ يَنْدَبُنَ أَمْوَاتَا (١)

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا
قَالَتْ: يَا زَهْرَا أَلَا قَارِجِي
قَلَمَ أَرْزُلُ أَفْكِي وَأُفْكِي بِهَا
كَأَنَّمَا أَثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى

وقبل أن نختم حديثنا عن فن الرثاء، نعود لنستخلص أهم خصائص هذا الفن، ولعل من أهم خصائص رثاء الأهل والأقارب، الصدق في العاطفة، والتصوير العميق لخوالج النفس المتصدعة بوقع الفجيعة. كما من خصائصه وضوح المعاني والبعد بها عن الغوص في النظرات الفلسفية. اللهم إلا ما كان من أمر ابن وهبون عندما رثى أستاذه، وهذا قليل في شعرهم. وكذا رثاء القادة تصدق عاطفته أحياناً وتقل أخرى.

أما رثاء المدن والممالك فمن خصائصه، الصدق العاطفي والشعور الحقيقي بالمآسي التي حلت بالمسلمين، كما من خصائصه، ميل الشعر إلى ضرورة اتخاذ العظة والعبرة من ناحية، والرمي باللائمة على الحكام الذين تهاونوا في جهادهم ضد النصارى من ناحية أخرى، ومن خصائصه الميل إلى عرض الصور المؤسفة التي حلت بالمسلمين. كهتك الأعراض، وإبدال المساجد بالكنائس. ومنها أيضاً. الميل إلى الوصف الدقيق لما حدث من نكبات. وقد قال أحد الدارسين: "إن هذا الشعر كان مغايراً بعض الشيء لغرض الرثاء في معهود أشعار العرب، فهو نمط طريف يقل فيه الندب والنواح...، على حين ينطوى على الأسى الدفين والحزن الهادئ العميق وينم على مشاعر المرارة ومعاني الإعتبار. ومن هنا تطامننت في رثاء الممالك الأندلسية حدة البكاء وحل مكانها جنوح إلى التبصر في شؤون الدنيا، وطبيعة الحياة، فكان أن غلبت عليه نظرات الفكر وخطرات الذهن، وتسربل الحزن الواري بغلالة من المعاني والآراء ذات الروح الفلسفية، بحيث تجلى ذلك في شعر الحكمة الذي لازم هذا الغرض الشعري في معظم نماذجه وغدا من أهم خصائص رثاء الممالك في الأدب الأندلسي.

(١) نفع الطيب ج ٢ ص: ٦٩.

وهذا الشعر لا يقتصر على التعبير عن مشاعر الذات بل يتعدى ذلك إلى رصد عواطف الجماعة والتعبير عن ظاهرة الحزن الشامل من خلال النكبات العامة التي كانت تجتاح جموع الناس في تلك العصور الجائشة. وبذلك يبدو رثاء الممالك وثيق الارتباط بالأحداث قوى الدلالة على العصر^(١).

(١) ملاح الشعر الأندلسي ص: ٣٢١-٣٢٢.

المبحث الثاني

الهجاء

الهجاء .. فن من فنون الشعر يصور عاطفة الغضب أو الإحتقار والإستهزاء وسواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب^(١).

لقد شاع شعر الهجاء في عصر ملوك الطوائف. ووجد على نوعين يمكن أن نطلق عليهما الهجاء الإجتماعي، والهجاء السياسي، أما الهجاء الإجتماعي فهو "ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم، وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية بل بما فيها من فساد واختلال؛ فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل، ولا يستهويه إلا المثالب ومواضع القصور والنقص، فيلتقطها بعينه الناقد، ويرى فيها مادة غنية بالصور فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منقرة تثير الضيق والإشمئزاز^(٢).

فمن أمثلة الهجاء الإجتماعي : هجاء الأفراد. مثل هجاء ابن شرف لأحد الناس، وقد شبهه بجيفة الكلب. وضمن البيت الثاني قوله تعالى: (فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ

بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِسْمَ عَلَيْهِ)^(٣) يقول ابن شرف:

مَا فُلَانٌ إِلَّا كَجِيْفَةِ كَلْبٍ وَالضَّرُّورَاتِ الْجَائِنَاتِ إِلَيْهِ
فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَا دٍ فَلَا إِنْكُمْ فِي اللُّجُوءِ عَلَيْهِ^(٤)

وهناك نوع آخر من الهجاء، وهو هجاء الأهل والأقارب. فابن سارة

يهجو زوجته بعد طلاقها، ويرميها بالنفاق والخبيث، ويشبها بالذئبة، وبالحيبة يقول:

(١) الهجاء والمهاجون في الجمالية. د. محمد محمد حسين. المطبعة النموذجية مصر ط ١ بدون تاريخ ص: ١٢.

(٢) الهجاء في الأدب الأنثوسي. د. فوزي سعد عيسى. دار المعارف بدون تاريخ ص: ١٦٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٧٣.

(٤) ديوان ابن شرف القرواني ص: ١٠٧.

أَمَّا الزَّمَانُ فَرَقَّ لِي مِنْ طَلَّةٍ
النَّيْبَةُ الطَّلَسَاءُ عِنْدَ نِفَاقِهَا

كَانَتْ تَطُلُّ نَمِي بِسِنْفِ نِفَاقِهَا
وَالْحَيَّةُ الرَّقْسَاءُ عِنْدَ عِنَاقِهَا (١)

وهناك هجاء بعض المظاهر الاجتماعية كهجاء ابن حمد يس لحمام قليل

المياه كثير الزحام يقول:

وَحَمَامٍ سُوءٍ وَخَيْمِ الْهَوَاءِ
فَمَا لِلْقِيَامِ قَعُودٌ بِهِ
حَنِيَّاتُهُ قَانِصَاتٌ لِنَفْسِي
ذَكَرْتُ بِهِ النَّارَ حَتَّى لَقَدْ
فَيَارَبَّ عَفْوِكَ عَنْ مُذْنِبٍ
قَلِيلِ الْمِيَاهِ كَثِيرِ الزَّحَامِ
وَلَا لِللُّعُودِ بِهِ مِنْ قِيَامٍ
وَقَطْرَاتُهُ صَائِبَاتُ السَّهَامِ
تَخَلَّتْ إِيْقَادَهَا فِي عِظَامِي
يَخَافُ لِقَاءَكَ بَعْدَ الْحِمَامِ (٢)

ومنه هجاء الدول كهجاء السميسر للمريّة في قوله:

بَيْتٌ دَارُ الْمَرْيَةِ الْيَوْمَ دَارًا
بَلَدَةٌ لَا تُمَارُ إِلَّا بِرِيحٍ
لَيْسَ فِيهَا لِسَاكِنٍ مَا يُجِبُّ
رَبِّمَا قَدْ تَهَبُّ أَوْ لَا تَهَبُّ (٣)

ويبدو أنه قد كان هناك معارك هجائية بين الشعراء خاصة بين ابن الحداد

والسميسر، فقد أورد صاحب الذخيرة بيتين للسميسر يهجو فيهما ابن الحداد يقول:

قَالُوا ابْنُ حَدَادٍ فَتَى شَاعِرُهُ
أَشْعَارُهُ مِثْلُ أَفْرَاحِ الزَّنَا
قُلْتُ وَمَا شِعْرُ ابْنِ حَدَادٍ
فَنَسَّ نَجْدٌ أَخْبَتْ أَوْلَادَهُ (٤)

ومن الطريف أن تمتد هذه المعارك الهجائية لتصل إلى النساء، فقد هجت

مهجة القرطبية "ولادة" رغم ضلة الصداقة التي كانت تربط بينهما فقالت:

وَلَا دَةَ قَدِصِرْتُ وَلَا دَةَ
حَكَتْ لَنَا مَرِيَمَ لِكِنَّهُ
مِنْ غَيْرِ بَعْلِ فَصِيحَ الْكَاتِمِ
نَخْلَةُ هَذِي قَائِمٌ (٥)

قال بعض الأكابر لو سمع ابن الرومي هذا لأقر لها بالتقدم (٦).

(١) الذخيرة ج ٢ م ٢٢ ص ٥٠٣.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص: ٥٥٩-٥٦٠.

(٣) الذخيرة ج ١ م ٣٥ ص: ٥٥٣.

(٤) نفسه ج ١ م ٣٦ ص: ٥٥٩.

(٥) نفع الطيب ج ٦ ص: ٧٣.

(٦) نفسه، ج ٦ ص: ٧٣.

أما الهجاء السياسي، فقد راج في الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شؤون الرعية، وتقايسهم عن الجهاد، ومن هذه الأسباب أيضاً ما يرد إلى عوامل شخصية تتمثل في فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كان يبغده الحاكم عن دائرة اهتمامه أو يظن عليه بالعطاء^(١)، مثلما قال أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي في بني عباد:

تَعَزُّ عَنِ الدُّنْيَا وَمَعْرُوفُ أَهْلِهَا إِذَا عُدِمَ المَعْرُوفُ فِي آلِ عِبَادِ
حَلَلْتُ بِهِمْ صَنِيفاً ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ بَغَيْرِ قُرَى ثُمَّ أَرْتَحَلُّ بِلا زَادِ^(٢)

وقد كان تقلب أمراء الطوائف بالألقاب المشرقية كالمعتضد، والمعتمد

مدعاة لغضب بعض الشعراء. فقد قال ابن رشيق صاحب "العمدة":

مِمَّا يَزِيدُنِي فِي أَرْضِي أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مَعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالهَرِّ يَخِي انْتِخَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ^(٣)

وعندما كان ابن عمار في مرسية، هجا المعتمد وأفحش في هجائه،

وعرض بأم أولاده اعتماد الرميكية فقال:

أَيَا فَارَسِ الخَيْلِ يَا زَيْدَهَا حَمَيْتُ الحِمَى وَأَبْحَبَ العِيَالَا
أَرَاكَ تُورِي بِحُبِّ النِّسَا وَوَقْدَمَا عَهْدُكَ تَهْوَى الرِّجَالَا
تَخَيَّرْتَهَا مِنْ بَنَاتِ الهِجَا نِ رُمَيْكِيَّةً لَّا تُسَاوِي عَقَالَا^(٤)

وقد أساء تقاعس ملوك الطوائف عن الجهاد، الكثير من شعراء عصرهم،

فالسيميسر الذي كان يحمل الروح الناقدة بين جوانحه يقول في هؤلاء الملوك:

نَادِ المُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ مَاذَا الَّذِي أَحَدْتُمْ
أَسَأَفْتُمْ الإِسْلَامَ فِي أَسْرِ العِدَا وَقَعْدْتُمْ
وَجَبَ القِيَامُ عَلَيْكُمْ إِذْ بِالنَّصَارِي قُمْتُمْ

(١) الهجاء في الأدب الأندلسي ص: ٤١.

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص: ١١٨.

(٣) ديوان ابن رشيق القيرواني/ حقيقه/ د. عمى الدين ديب. إشراف ياسين الأيوبي ط ١٤١٨م - ١٩٩٨م. المكتبة المصرية ص: ٦٥-٦٦.

(٤) ديوان ابن عمار ص: ٦٩.

لَا تَتَكْرَرُوا شِقَّ الْعَصَا

فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَّتُمْ (١)

وهجا المنفعل جهران بن يحيى صاحب لبله، وصوره تصويراً مزرياً في

قوله:

إِنَّ ابْنَ يَحْيَى ضَحَكَةٌ فَتَوْسَمُ
أَكَلَ الْخَبِيثَ فَشَعْرُهُ مُتَسَاوِطٌ

وَأَذْكَرٌ بِهِ حُدَّامٌ نَارِ جَهَنَّمَ
كَالْكَلْبِ أَشَقَطَ شَعْرُهُ لَعْنُ الدَّمِّ (٢)

ويمكن أن يلحق بالهجاء السياسي هجاء البرابرة الذين حكموا غرناطة

وغيرها. فقد هجاهم السميسر في قوله:

رَأَيْتُ أَدَمَ فِي نَوْمِي فَفُتُّتُ لَكَ
إِنَّ الْبُرَابِرَ نَسَلٌ مِنْكَ فَقَالَ: إِنَّنِي

أَبَا الْبُرِّيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا
كَوَأَمْ طَالِقَةٌ إِنَّ كَانَ مَا زَعَمُوا (٣)

ولعل من خصائص فن الهجاء، إتكاء الشعراء على المقطوعات القصيرة.

وذلك ليسهل حفظها، وإذاعتها بين الناس.

وقد اتسع مفهوم الهجاء فلم يعد محمداً بنزعة قبلية. بل توزع بين هجاء

اجتماعي مال فيه الشعراء إلى الدعابة، والتظرف تأثراً بروح العصر. وبين

هجاء سياسي أظهر فيه الشعراء عدم رضاهم عن الملوك. إما بسبب تجاهلهم

لهم، أو بسبب تقاعسهم عن الجهاد.

ولعل من خصائص هذا الفن، سهولة المعاني، واختيار الألفاظ اللاذعة

ليضمنوا علوقها بأذهان الناس.

أضف إلى ذلك قيام المعارك الهجائية، التي تعدت الرجال إلى النساء،

على نحو ما كان من أمر مهجة وولادة. ولكننا نأخذ على النساء ميلهن الواضح

إلى الفحش، واختيار الألفاظ الرذيلة.

(١) الذخيرة ج ١ م ٣٥ ص: ٥٥٣.

(٢) نفسه ج ١ م ٣١ ص: ٤٧٥.

(٣) نفع الطيب ج ٤ ص: ٣٨٣.

المبحث الثالث

الإخوانيات

ونعني بالإخوانيات، تلك القصائد التي سطرها شعراء الطوائف، والتي وصفوا فيها ما دار بينهم وبين أصدقائهم من طرائف. وقد عمت هذه الطرائف مجالس الأئس عندهم، وعند الإهداء والإستهداء.

ومن الإخوانيات ما قاله السميسر عندما ورد ابن شرف غرناطة، فتخلف

عن قصده، فكتب إليه معتذراً:

كَتَبْتُ إِلَى سَيِّدِي قَبْلَ أَنْ
أَيْقَضُ يَدِي غَرْنَاطَةَ
وَيَهْبِطُ كَيَّوَانُ مِنْ بُرْجِهِ
فَمَعِزَّةٌ لَكَ حَتَّى أَرَاكَ

أَرَاهُ وَرَجُلِي قَدْ زَلَّتْ
وَأَتْرَكَ قَصْدِيهِ فِي زُمْرَتِي
إِلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَى عَقْلَةٍ
فَأَنْتَ الْمُمْتَلِ فِي مُهْجَتِي (١)

فأجابه ابن شرف:

بَدَأْتُ وَلِلْمُبْتَدِئِ الْفَضْلُ فِي
وَمَا الْوَدُّ إِلَّا امْتِنَانٌ وَقَدْ
وَبِالسَّبَبِ فِي أَوَّلِ الْهَجْرَتَيْنِ
وَحَدَّثْتُ أَنَّكَ سَمَحَ الطَّبَّاعُ
وَنَفْسُكَ فَاضِلَةٌ حُرَّةٌ
خَلَاتِقُ لَوْ مَارَجَتْهَا الْجِبَالُ
فَلَوْ مِنْ أَبَانَ وَرَضَوِي خُلِقَتْ

فَرُوضِ الْمَوَدَّةِ وَالسَّنَةِ
سَبَقَتْ سِوَاكَ إِلَى الْمَنَّةِ
تَقَدَّمَ قَوْمٌ إِلَى الْجَنَّةِ
إِذَا مَا طَبَّاعُهُمْ ضَنَّتِ
إِذَا عَابَيْتُ فَاضِلاً كُنْتُ
إِنَّ رَقِصْتَ لَكَ أَوْ غَنَّتْ
لَمَا كُنْتُ إِلَّا مِنَ الْقَنَّةِ (٢)

ومن الإخوانيات ما يطلق عليه "المطارحات" وهي نوع من المراسلات الشعرية وفيها يرسل الشاعر إلى صديقه رسالة شعرية، فيرد الآخر عليها بشعر

(١) الذميرة ج ١ ص ٢٦٠ : ٥٦٠-٥٦١.

(٢) ديوان ابن شرف القيرواني ص : ٤٣-٤٤.

مثله يتفق معه وزناً وقافية. فقد كتب ابن اليسع إلى أبي بكر بن القبطونية يستهدي مشروباً وهو ببطلبوس في معركة الزلاقة:

عَطِشْتُ أَبَا بَكْرٍ وَكَفَكَ بِيَمَّةٌ
فَخَفَّفَ وَلَوْ بَعْضَ الَّذِي أَنَا وَاجِدٌ
وَوَقَّرَ لَنَا مِنْ تِلْكَ حَطًّا نَرَى بِهَا
فوجه إليه مطلوبه وكتب إليه:
أَبَا حَسَنِ مِثْلِي بِمِثْلِكَ عَالِمٌ
فَخَذَهَا عَلَى مَحْضِ الصَّفَاءِ كَأَنَّهَا
وَذُبْتُ أَشْيَاقًا وَالْمَزَارُ قَرِيبٌ
فَلَيْسَ بِحَقٍّ أَنْ يُضَاعَ غَرِيبٌ
نَسَاوَى وَبَعْدَ الْغَزْوِ سَوْفَ نَتُوبُ (١)

وَمِثْلِكَ بَعْدَ الْغَزْوِ لَيْسَ يَتُوبُ
سَنَّا مَا لَهَا بَعْدَ الْحِسَابِ تَوُوبُ (٢)

الأغزاز :

وهي من الإخوانيات، وبعضها من المطارحات. وهي نوع من أنواع الإختبارات الذهنية، وفيها كثير من البراعة الفنية. فقد قال ابن شرف ملغزاً في "زحل" أحد كواكب المجموعة الشمسية:

وَسَيِّخٌ لَهُ غُرْفَةٌ فَخَمَّةٌ
يَمُرُّ وَيَرْجِعُ طُولَ الزَّمَانِ
وَيُفْسِدُ كُلَّ مَكَانٍ حَوَاهُ
عَلَّتْ وَهُوَ فِيهَا جَمِيعُ الْغُرُفِ
فَكَمْ مَرَّ مِنْ مَرَّةٍ وَانصَرَفَ
عَلَى أَنَّهُ غَايَةٌ فِي الشَّرَفِ (٣)

ولعل من خصائص شعر الإخوانيات، سهولة الأسلوب، والبعد به عن المبالغة والغلو. إضافة إلى رقة الألفاظ وعذوبتها.

وقد استطاع هذا النوع من الشعر، أن يعكس صورة المجتمع الأندلسي في ذلك الوقت، من خلال مجالس الأئس والطرب، ونزول الأمراء عن مكانتهم العالية إلى مستوى الشعراء الذين هم من عامة الشعب.

(١) القلاهد ق ٢ ص : ٤٩٨.

(٢) نفسه ق ٢ ص : ٤٩٩.

(٣) ديوان ابن شرف القرواني ص : ٧٥. وراجع ديوان المعتمد بن عباد ص : ١٥، وديوان ابن عمار ص : ١٣٤.

ولعل من أبرز خصائصه، الميل إلى اختبار الأفكار، وتقضية الوقت بالرياضة العقلية، وهذا واضح في ألغازهم. وبالرغم من خلو شعر الألغاز من العاطفة التي هي عماد الشعر، إلا أنها ظلت تحتفظ بقيمتها الاجتماعية. أما الرسائل الشعرية فمن أبرز خصائصها، تأدية الشعر دور النشر وحلولة محل الرسائل. فبدلاً من أن يرسل الشاعر إلى صديقه رسالة، يرسل له مقطوعة شعرية تتضمن معنى الرسالة.

المبحث الرابع المدح

لم يكن هذا الباب من بين أبواب الشعر العربي في أول نشأته، وأكبر الظن أنه تأخر في الوجود عن كثير من فنون الشعر التي يتغنى فيها الشاعر بعاطفة قديمة شخصية، كالغزل مثلاً وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وربما صنع أحدهم شعراً يشكر به يداً لا يستطيع أداء حقها إلا بالشعر تعظيماً لها وتخليداً^(١). وقد راج شعر المديح في الأندلس - خاصة في عصر الطوائف - رواجاً شديداً، وقد كان لهذا الرواج دوافعه وعوامله، من أهمها ذلك التنافس الشديد بين ملوك الطوائف في طلب الشعراء والأدباء، وكسب رضاهم بما يغدقونه عليهم من أموال، فتسابق الأمراء نحو الشعراء، وسعى كل منهم إلى جذب الشعراء المجيدين إلى بلاطاتهم ليكونوا اللسان اللاهج بتمجيدهم وشكرهم، وثبتت دعائم ملكهم. ولذلك كان أكثر الملوك ظفراً بالنصيب الأوفر من المدح أكثرهم بذلاً وعتاءً، حتى ليقول ابن بسام في ترجمته للشاعر إدريس بن اليماني: ".. وكان كلما قال قصيدة لم يضرب عليها حجاباً، ولا ضمنها كتاباً، حتى يأخذ بها مائة دينار، وقد سأله عبّاد .. أن يمدحه بقصيدة .. فقال: إشارتي مفهومة وبنات صدري كريمة فمن أراد أن ينكح بكرها فقد عرف مهرها"^(٢). وأمام هذه الأموال المغدقة، اكتظت البلاطات بالمتكسبين، وكان أكثر البلاطات جذبا للشعراء بلاط ابن عباد لعطائهم الجزيل. فعندما توفى المعتضد، وتولى المعتمد مقاليد الحكم جاء الحصري الكفيف، ونوه إلى عراقة الأسرة الكريمة في قوله:

مَاتَ عَبَّادٌ وَلَكِنْ بَقِيَ الْفَرْعُ الْكَرِيمُ
فَكَانَ الْمَيْتَ حَيُّ غَيْرَ أَنْ الضَّادَ وَمِيمُ^(٣)

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ص: ١٧٧.

(٢) الذخيرة ج ٣ م ١٤ ص: ٢١٣.

(٣) أبو الحسن الحصري القمرواني عصره حياته - رسائله. محمد المرزوقي الجيلاني بن الحاج يحيى. مكتبة المنار تونس بدون تاريخ ص: ٤١.

وكان الشعراء يفضلون في ممدوحهم بعض القيم، كالقيم الإجتماعية، وهي القيم الأخلاقية والإنسانية والنفسية. وقد تحدث عنها ابن طباطبا فقال: "وأما ما وجدته في أخلاقها ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخلق الجمال والبسطة، ومنها في الخلق السخاء والشجاعة، والحلم، والحزم، والعزم، والوفاء، والعفاف، والبر، والعقل، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشكر، ... والعفو، والعدل والإحسان وصلة الرحم، وكنم السر، والمواناة، وأصالة الرأي، والأنفة، والدهاء وعلو الهمة، والتواضع والبيان، والبشر، والجلد، والتجارب، والنقص والإبرام^(١). وإذا مضينا نتلمس هذه القيم الإجتماعية والفضائل النفسية عند شعراء الطوائف، نجدها كثيرة في شعرهم، فقد تغنوا بكرم ممدوحهم، وشدة بأسه، وعلو همته، وعزيمه وأقدامه، إلى غير ذلك من الفضائل. فها هوذا ابن زيدون يتمثل بعلماء النفس في عرضه لصفة الكرم عند ابن جهور، فيجعل اشراقه وجهه وتهلله مقدمة لعطائه الجزيل، ودليلاً على هباته الكثيرة. كالبرق الساطع الذي يتلو السحاب الهائل، فإذا ما تعجل المرء أولى هباته فاضت عليه، مثلما يفيض البحر الزاخر بالأمواج يقول:

كَانَ آيَاتَ الشَّمْسِ بِشْرِ ابْنِ جَهْوَرٍ إِذَا بَدَّلَ الْأَمْوَالَ وَهِيَ رِغَابُ
هُوَ النَّيْشُ شِمْنَا مِنْهُ بَرَقَ عَمَامَةٌ لَهَا بِاللُّهَا فِي الْمُعْتَفِينَ مَصَابُ
جَوَادٌ مَتَى اسْتَعَجَلَتْ أَوْلَى هِبَاتِهِ كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمَّ عِبَابُ^(٢)

وقد أفرط الشعراء في خلع صفة الكرم على ممدوحهم، ولكن هذه الصفة قد تعانقت صفة أخرى، فابن اللبانة يمزج في مدحه بين الكرم وشدة بأس الممدوح فيشبهه شدة بأس الممدوح بالحديد، ويشبه كرمه المتدفق بالزئبق السائل ثم رأهما ضدّين اجتماعاً في ممدوحه في حالتى الشدة واللين، فالسيف يجمع المال، والجود يفرقه على السائلين يقول:

(١) عبار الشعر/ تأليف/ عماد أحمد بن طباطبا العلوي. شرح وتحقيق. عباس عبدالسائر. مراجعة نعيم زرزور ط١، ١٤٠٢هـ -

١٩٨٢م، بيروت - لبنان ص : ١٨.

(٢) ديوان ابن زيدون ص : ٣٧٣.

بَأْسٌ كَمَا جَمَدَ الْحَدِيدُ وَرَأَهُ
 لَا تَعْجَبُ الْأَمْلَاقُ كَثْرَةَ مَالِهِمْ
 كَرَمٌ يَسِيلُ كَمَا يَسِيلُ الزُّبَيْقُ
 النَّبْعُ أَصْلَبُ وَالْأَرَاكَةُ أَوْرُقُ
 ضِدَانٍ فِيهِ لِمُعْتَرٍ وَلِمُعْتَرَفٍ
 السَّنْفُ يَجْمَعُ وَالْعَطَاءُ يُفَرِّقُ (١)

وتغني الشعراء أيضاً بهمة ممدوحهم، فمثلاً يقول ابن اللبانة:

هُمَا نَبِيْتُ الْمَأْتَرَاتِ هُمُومُهُ
 فَيُصْبِحُ مِنْهَا بَيْنَ مَعْنَى وَمَعْنَمٍ (٢)

وابن الحداد يصف ممدوحه بعدة صفات كالسماحة، والإقدام، والحلم،

والعفة يقول:

سَمَاحٌ وَاقْدَامٌ وَحِلْمٌ وَعِفَّةٌ
 فَقَدْ صَاكَ مِنْ فَضْلِ الْعَوْلَمِ طَيِّبَةً
 مُزِجَتْ فَأَيْدَى مُهَجَّةَ الْفُضْلِ مَارِجٌ
 وَهَلْ يَكْتُمُ الْمِسْكَ الذِّكْرُ نَوَافِجٌ
 مَسَاعٍ أَحَلَّتْكَ الْعَلَا فَكَأَنَّهَا
 مَرَاقٍ إِلَى حَيْثُ السُّهَا وَمَعَارِجٍ (٣)

ومن القيم الإجتماعية التي خلعوها على ممدوحهم، ما يتصل بالمواهب

العقلية مثل توقد الذهن والدهاء، وسرعة البديهة مثل قول ابن الحداد في ممدوحه

محمد بن صمادح:

ذَكَرْتُ لَوْ أَنَّ الشَّمْسَ تَحْوَى ذِكَاؤَهُ
 وَلَوْ فِي الْجِدَارِ الْبَيْضِ حِدَّةٌ ذُهُنِهِ
 لَمَا وَجَدَ الظَّمَانُ لِلْمَاءِ مَوْرِدَا
 لَمَا صَاغَ دَاوُدُ الدَّلَاصِ الْمُسَرِّدَا (٤)

ثم مضى الشعراء يمدحون الملوك بحسن الخط، وبيانهم الساحر، وبوسامة

محياتهم (٥)، وأما مدحهم السياسي، فقد دار حول وصف ممدوحهم بالشجاعة

والقروسية، والبطولة، فسجلوا في أثناء ذلك كثيراً من أحداث الفتن وحركات

التمرد، والحروب الداخلية بين العرب والبربر، وتتبعوا حركات الكفاح ضد

سياسة الإسترداد المسيحي. ووجد الشعراء في كل هذه الميادين مادة خصبة

يغنون بها شعرهم، ويخرجون من بنات أفكارهم درراً.

(١) شعر ابن اللبانة الثاني ص : ٧١.

(٢) نفسه ص : ٩٦.

(٣) شعر أبي عبدالله بن الحداد ص : ٤٦.

(٤) شعر أبي عبدالله بن الحداد ص : ٥٠.

(٥) راجع ديوان ابن عمار ص : ٢١٧.

أولاً: حركات التمرد والحروب الداخلية:

نلمس حركات التمرد والخروج التي تضمنتها قصيدة المديح، في شعر ابن زيدون عندما وصف تمرد أحد كبار الجند على ممدوحه المعتضد عباد، بعد أن أنزله مكانة رفيعة وأولاه عنايته ورعايته، فما كاد يستشعر هذا الجندي المفتون قوته حتى أصابه الغرور فخان العهد، كافراً بالصنيعة، فذل بعدما عز، وتاه في الضلال بعد أن هيا له المعتضد طرق الهدى والرشاد، وأسدى إليه النصيح فأبى قبوله، فما كان إلا أن أوسع به شتى ألوان العقاب جزاءً له يقول:

| | |
|--|--|
| ضَلَالًا لِمَفْتُونٍ سَمَوَتْ بِحَالِهِ | إِلَى أَنْ بَدَتْ بَيْنَ الْفَرَاقِدِ فَرَقَادَا |
| رَأَى حَظَّهَا أَوْلَى بِهِ فَأَحْلَاهَا | حَضِيضًا، يَكْفُرَانِ الصَّنِيعَةَ أَوْ هَذَا |
| وَمَا زَادَ لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ أَنَّهُ | سَعَى لِلَّذِي أَصْلَحَتْ مِنْهَا فَأَفْسَدَا |
| فَذَلَّ وَقَدْ أَمَطَّتْهُ نَبِجَ السُّهَى | وَضَلَّ وَقَدْ لَقِيَتْهُ قَبَسَ الْهُدَى |
| طَوِيلٌ عَنَّا الْجُرْمُ قُلْتَ لَهُ لَعَا | بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَعَمَّ دَا |
| تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَةً | وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدِّدَا (١) |

ثانياً: الصراع ضد البربر:

كان الصراع بين العرب والبربر قديماً منذ أيام الفتح العربي، وفي عهد الطوائف كان المعتضد بن عباد من ألد أعداء البربر، ويمكننا أن نلمس مقدار هذه العداوة عندما نستمع لابن عمار وهو يمدح المعتضد بقصيدة جعل فيها البربر يهوداً، ووصف ضرب جنوده، وكأنهم خاضوا في دماء البربر خوفاً يقول:

| | |
|--|--|
| شَقِيئٌ بِسَيْفِكَ أُمَّةٌ لَمْ تَعْنُ دَا | إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ نَسَمْتَ بَرَبَرَا |
| أَنْمَرْتَ رُمُوكَ مِنْ رُؤُوسِ كُنَاتِهِمْ | لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشِقُ مُنْمَرَا |
| وَصَبَغْتَ بَرْعَكَ مِنْ نِمْاءِ مُلُوكِهِمْ | لَمَّا عَلِمْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا (٢) |

(١) ديوان ابن زيدون ص: ٤٧٠ - ٤٧١.

(٢) ديوان ابن عمار ص: ١٩٣.

وبنو حمود لم يكونوا أهل فصاحة بل كانوا من برابرة المغرب. لا يميزهم في هذا العصر سوى تشيعهم، ولكنهم عطفوا على شعرائهم حتى أصبحت صفة التشيع لآل البيت تملأ نفوس بعض الشعراء، فلا تجد شاعراً مادحاً لهم، إلا ونكر نسبهم الهاشمي والتشيع العلوي في شعره، وكان لهم شاعرهم المقدم "ابن مقان" الأشبوني" الذي نظم قصيدة مازال دويها يرن في أسماع التاريخ إلى الآن ومطلعها:

الْبَرْقِ لَاحِحٍ مِنْ أُنْدَرِيْنِ ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ بِالْمَاءِ الْمَعِينِ

ويبدو التطرف العلوي واضحاً في هذه القصيدة فقد قال فيها:

يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ الْوَرِيِّ لَا يَبِيكُمُ كَانُ رَفْدِ الْمُسْلِمِينَ
أَنْظِرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ نُورِكُمْ إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١)

ثالثاً: الإشادة بالقائد الفارس:

هذا وقد أشاد الشعراء بفروسية ممدوحهم، وفضولاتهم في ميدان الوغى، ووصفوا رماحهم، وسيوفهم، وخيولهم، فها هو ذا ابن حمد يس يصف سيف المعتمد الذي أعمله - الأخير - في أعدائه الذين أشبهوا الأسود الكاسرة في هجومهم في بداية القتال، ولكنهم ما لبثوا ان هربوا كالأغنام الصغيرة خوفاً وفزعاً حين صال فيهم المعتمد بسيفه يقول:

وَلْيَبُوتِ صَالٍ فِيهِمْ فَانْتَبُوا وَصَوَارِيَهُمْ لَهُ كَالنَّقَدِ
بِحُسامٍ مُطْفِئَةٍ أَرْوَاهُمْ بِسَواظِرِ الْبَارِقِ الْمُنْقَدِ
فِعْرَارِيهِ عَلَى هَامَاتِهِمْ مِنْ شَرَارِ الْقَدْحِ مَا فِي الزَّئِدِ (٢)

وأما مليحهم الديني لم يكن كسابقه، ذلك لأن الملوك أنفسهم كانوا بعيدين عن الدين منغمسين في الملذات - كما مر بنا - ومع ذلك فقد كان الملوك في حاجة إلى خلع الصفات الدينية عليهم للسيطرة على العامة، فاستجاب الشعراء

(١) الذخيرة ج ٢ م ٣٠ ص: ٤٦٨ وما بعدها.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص: ١٤١، وراجع وصف الرماح في ديوان ابن عبدون ص: ١٩٣.

لهذه الحاجة فخلعوا على ممدوحهم صفات التقوى والزهد، والتحلّى بطاعة الله عز وجل، فابن زيدون يمدح أبا الوليد محمد بن جهور، ويصفه بالإنقطاع للعبادة، ولزوم المسجد أنساً بالراكعين المنيبين، كما ذكر تبتله الله تعالى يقول:

وَجَاوَزْتَ بَيْتَ اللَّهِ أَنْسًا بِمَعَشَرَ
وَحَسْبُوهُ فَخَرُّوا رُكْعًا وَأَنَابُوا
لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَقَّ تَبْتُلٌ
وَبَالَغَ إِخْلَاصٌ وَصَحَّ مَتَابٌ (١)

وهناك المديح الذاتية، ونقصد به تعبير الشاعر عن مشكلاته الخاصة، وبث همومه، وبيان متاعب الطريق وأحوال السفر إلى ممدوحه. مثلما فعل ابن شرف القيرواني عندما بعث بقصيدة إلى المعتضد، يبين له فيها ما لاقاه هو وعائلته التي تضم طفلين، من إرهاق وخوف في رحلته إليه يقول فيها:

أَجْسَهُمْ لَيْلَ الْفَقَارِ وَظُلْمَةَ الْبِحَارِ
وَكَمْ رِيْعُوا وَلِلْسَيْرِ إِرْخَاءُ
وَلِي مِنْهُمَا سَهْمَانِ هَذَا ابْنُ أَرْبَعِ
وَهَذَا ابْنُ سِتِّ كُلَّمَا كَانَ إِغْفَاءُ
أَضْمُهُمَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّمَا
هُمَا نُقْطَتَا يَاءٍ، وَجِسْمِي هُوَ الْيَاءُ
فَطَوْرًا يُغَشِّيهِمْ عَلَى ذِكْرِكَ الْكَرَى
فَقُصِبِحُ أَضْوَاءٌ عَلَيْهِمْ وَالْأَلَاءُ
وَطَوْرًا يَمْجُونَ الدُّجَى وَمِطَالَهُ
وَمَا كَانَ لِلْغَايَاتِ مِطْلٌ وَإِرْجَاءُ

وفي ابن عباد يقول:

فَإِنِ افْتَمْنَا هَيْبَةَ عُمَرِيَّةٍ
كَذَلِكَ لَهَا فِي الشُّعْرِ كَثْرٌ وَإِقْوَاءُ
بَدَلَتْ انْبِسَاطَاتٍ لَنَا عَلَوِيَّةٍ
لَهَا بَعْدَ مَوْمَاتِ الْمَهَامَةِ أَفْيَاءُ (٢)

هذا وبالرغم من قلة النماذج الشعرية التي تحتوى على إبراز الذاتية في المديح، إلا أنها وضحت رغبة بعض الشعراء في التعبير عما يعانونه بصراحة. ومن خلال بث المشكلات الذاتية يمكننا القول: إن قصيدة المديح في - عصر الطوائف - قد اتسعت آفاقها، وأصبحت تحوى مضامين ذاتية إنسانية إلى جانب المضمون المدحي.

(١) ديوان ابن زيدون ص: ٣٨٠.

(٢) ديوان ابن شرف القيرواني ص: ٣٦.

ولعل من أهم خصائص قصيدة المديح في هذا العصر الذي ندرسه، هو تأثرها بالبيئة السياسية والاجتماعية، وتمثيلها مظاهر الصراع الإنساني من أجل العيش، وهذا التمثيل كائن في مصانعة الشعراء للملوك ومنحهم بما يحبون. ومن خصائصها أيضاً أنها حوت الكثير من القيم الاجتماعية، من كرم، وحلم، وتهلل الطلبة، إضافة للمواهب الذهنية كالذكاء والدهاء والحكمة، وكل هذه الصفات استمدها الشعراء من واقع مجتمعهم وسعوا إلى رسم صورة مثالية لممدوحهم، إضافة للقيم الدينية التي حاول الشعراء أن يخلعوها على ممدوحهم مصورين فيهم نموذجاً للكمال الديني بالرغم من التحلل الخلقي الذي ساد ذاك العصر.

هذا وقد سارت قصيدة المديح على ذات النهج التي سارت عليه القصيدة المشرقية المادحة، من حيث المحافظة على البناء القديم. فكثيراً ما بدأت القصيدة المادحة بالغزل، أو وصف الطبيعة، أو بذكر الخمر، أو بعرضين من الأغراض السابقة، أو بالشكوى. وكل القصائد التي سقناها لم تخل مقدماتها من هذه الأغراض.

وشئ آخر ورد في نهج قصيدتهم المادحة، وهو حديث الشاعر عن قصيدته في آخر الأبيات والإشادة بقيمتها، ولعل ذلك انذار للسامع بقرب نهاية القصيدة، أو هو نوع من أنواع اعتزاز الشاعر بشعره، ولفت النظر إلى قيمته الفنية كقول ابن حصن الاشبيلي:

قَوِّفِي بِأَمْثَالِ الصُّخُورِ بَعَثْتُهَا
قَدِيمًا عَلَى أَسْمَاعِ قَوْمٍ مَعَاوِلًا^(١)

(١) الذخيرة ج ٢ م ٨ ص: ١١٣.

المبحث الخامس

الشعر الفلسفي

يجمع كافة الدارسين والباحثين على أن الفكر الفلسفي، لم يظهر بالأندلس، بكيفية صريحة ومكشوفة، مثلما ظهر في المشرق، بل اتخذ مسالكاً وطرقاً ملتوية ومموهة ويعثرون على تفسير تلك الظاهرة الفريدة من نوعها، في "جمود" و "تزمّت" الأفكار الدينية الوافدة، خصوصاً الأفكار الفقهية المالكية التي طبعت الحياة الثقافية في الأندلس بطابع خاص وأعطتها سمة معادية لكل تجديد، وتميل إلى الوحدة وكرهية الاختلاف^(١).

وأمام شيوع المذهب المالكي، ووجود الإطار الفقهي المتشدد تراجع الفكر الفلسفي بالرغم من المحاولات الجادة، التي قام بها بعض الفلاسفة مما عرضهم للملاحقة وحرق ما يكتبون، مثل حرق المعتمد بن عباد لكتب ابن حزم^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن الشعر الفلسفي، لم يلق رواجاً في عصر الطوائف ولم تتضح معالمه، وتبين مسالكه، ليصبح كياناً قائماً بذاته. وكان رائد الفلسفة في عصر الطوائف الشاعر عبدالجليل بن وهبون، وكان جنوحه للفلسفة واضحاً في قصيدته التي رثى بها أبا الحجاج يوسف بن عيسى المعروف - بالأعلم - التي مرت بنا - وقد ضمن ابن وهبون قصيدته هذه نظرات فلسفية غائرة العمق عن الحياة والموت يقول فيها:

نَفْسِي وَحَسِّي إِنَّ وَصَفْتُهُمَا مَعًا أَلْ يَدُوبُ وَصَخْرَةٌ خَلْفَاءُ
كَوْ نَعْلَمُ الْأَجْبَالَ كَيْفَ مَالِهَا عِلْمِي لَمَّا امْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يُرَادُ بِنَا قَلَمٌ نَعْيَا الْقُلُوبَ وَتَغْلِبُ الْأَهْوَاءُ

(١) ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والاندلس. تاليف. سالم بقرت ط ١، ١٩٨٦م المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب ص: ٢٥١.

(٢) الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطيوسي / تاليف / حسن عبدالرحمن علقم ط ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م دار البشير للنشر والتوزيع ص: ٥٢.

وَعَلَى طَرِيقِ الصَّحَاةِ الْأَنْوَاءِ
 جَلِيتُ عَلَيْكَ الْحِكْمَةَ الشَّنْعَاءِ
 وَلِقَائِهِ هَلْ عَفَّتِ الْأَبْنَاءُ
 وَأَبِي بِحَيْثُ تَوَاصَّتِ الْغَبْرَاءُ
 فِي طَبْعِهِ لَوْ صَحَّتِ الْأَرْءَاءُ
 أَنْ تَشْتَوِي مِنْ جِنْسِهِ الْأَعْضَاءُ
 حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهَا الثَّرَى وَالْمَاءُ
 وَمِنْ الْخُلَاصِ مَشْفَقَةٌ وَعَنَاءُ (١)

طَيْفُ الْمَنَائِمِ فِي أَسَالِبِ الْمَتَى
 يَتَعَاقَبُ الْأَضْدَادُ مِمَّا قَدْ تَرَى
 مَاذَا عَلَى ابْنِ الْمَوْتِ مِنْ إِبْصَارِهِ
 أَيْعُرْنِي أَنْ يَشْتَطِيلَ بِي الْمَدَى
 لَمْ يَنْكُرْ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ نَابِتٌ
 وَنَظِيرُ مَوْتِ الْمَرْءِ بَعْدَ حَيَاتِهِ
 مَا النَّفْسُ إِلَّا شُعْلَةٌ سَقَطَتْ إِلَى
 كَتَى إِذَا خُلِصَتْ تَعُودُ كَمَا بَدَتْ

وهذه نظرات فلسفية، فالنفس عنده شعلة استقل بها الثرى والطين. ولعله أراد بهذا أن الناس قد خلقوا من عنصري الطين والماء. وقد علق ابن بسام على هذه القصيدة بقوله: "لعل عبدالجليل اكتسب في هذا البيت والذي قبله من العلم بحقيقة النفس ما جهله في وصفه لها قبل أنها "آل يذوب" وما أعجب أيضاً قوله عن جسمه بأنه صخرة خلقاء، اللهم إلا إن كان عني بذلك رأسه لأنه كان يلقب بالدمغة. وذهب هنا من صفة النفس إلى مذهب كلامي (٢).

(١) الذخيرة ج ٢ م ١٨ ص : ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) نفسه ج ١٨ م ٢ ص ٢٨٧.

الباب الثالث

الدراسة الفنية لشعر القصيد التقليدي

الفصل الأول

بناء القصيدة وبناء المقطوعات

ويحتوي على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : مقدمة القصيدة

المبحث الثاني : التخلص والخروج

المبحث الثالث : خاتمة القصيدة

المبحث الأول

مقدمة القصيدة

المقدمة ظاهرة من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدة العربية على اختلاف الأعصار التي مرت عليها والأمصار التي انتقلت إليها. وهي ظاهرة لم تتخذ شكلاً واحداً، بل تعددت أشكالها، وتوعدت صورها، وتطورت على مر العصور ولذلك كلف النقاد والبلاغيون - ولا سيما القدامى - بفواتح القصائد، وعنوا بها أيما عناية فنحن لا نقرأ أي كتاب من كتبهم إلا نجد فيه فصلاً عنها، غير أن مادة هذا الفصل تكاد تكون معادة مكرورة، فالمتأخر منهم ينقل عن المتقدم، وهو نقل قد يكون مطابقاً للأصل حتى تتشابه الشواهد والأقوال تشابهاً شديداً، سوى ما نلاحظه من خلاف يسير بينهم يتلخص في إيجاز بعضهم وتفصيل غيرهم^(١).

ومضى النقاد في إرشاد الشعراء لكي تكون مطالع قصائدهم متسقة متناسبة، "فينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفنتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء ووصف إقفار الديار، وتشنت الآلاف ونعي الشباب، وذم الزمان. لا سيما في القصائد التي تضمن المدائح أو التهاني. وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح فيجتنب مثل قول ذي الرمة:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ يَسْكُبُ كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ

وليجتنب في التشبيب من يوافق اسمها بعض نساء الممدوح من أمة أو قرابة أو غيرها، وكذلك ما يتصل به سببه أو يتعلق به وهمه^(٢).

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني. د. حين عطوان ط ١/١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م. دار الجيل لبنان - بيروت ص :

٣٧٣ وما بعدها.

(٢) عيار الشعر ص : ١٢٦-١٢٧.

ويقول ابن رشيق : "الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة .." ويقول أيضاً: "للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد. بالنسيب لما فيه من عطف القلوب، واستدعاء القبول، بحسب ما في الطليح من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء، وأن ذلك استدراج إلى ما بعده"^(١).

ولكن بالرغم من هذه الارشادات التي ساقها النقاد، فإن بعض الشعراء المتأخرين نراهم قد استبدلوا المقدمات الطللية، بمقدمة يصف فيها ارتحاله لممدوحه بالسفن، أو يقدم لقصيدته بوصف الخمر، ووصف الطبيعة التي تتناسب مع نوق عصرهم الجديد المترف.

وعموماً فمقدمات هذا العصر الذي ندرسه، جاءت في عدة اتجاهات، فمن ناحية سلك بها الشعراء مسلك الشعر القديم، فقدموا لقصائدهم بالمقدمات التقليدية، كالمقدمة الطللية، والمقدمة الغزلية. ومن ناحية أخرى، حاولوا الخروج عن القديم، فأتوا بمقدمات وصف الخمر، وأسرفوا في التقديم لقصائدهم بوصف الطبيعة تمشياً مع نوق عصرهم الجديد.

أ/ المقدمات التقليدية:-

١- المقدمة الغزلية:

تعد المقدمة الغزلية من أكثر المقدمات ذيوماً في قصائد المديح وغيره، في شعر هذا العصر الذي ندرسه، لان الغزل كان من أهم الموضوعات التي شغف بها الشاعر الأندلسي، ووجد فيها متفهماً للتعبير عن مكنون ذاته، وفيض مشاعره، وتباريح هواه، "إذ كان ينساب على شفاه الشعراء، ويدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة، ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء .. كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجوارى والعلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي

(١) المص ٣٥٦-٣٦٤.

وجد فيها الشاعر مرتعاً سهلاً، ومن الشعراء من أحب حباً صادقاً، ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها^(١).

ومن أمثلة المقدمات الغزلية التي توجهوا بها قصائدهم المدحية قول محمد

ابن عبدالعزيز المعلم في مدح المعتضد:

سَحَبْتُ عَلَى أَثَرِ الْخَيْالِ دُيُولًا
عَلَّلتُ مِنْكَ بِكَلِّ وَعَدِّ كَانِبِ
لَوْ كُنْتُ صَادِقَةً رَحَلْتُ إِلَى الصَّبَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ مَادِحًا:

يَا هَذِهِ عَنِّي إِلَيْكَ قَائِنٌ لِي
مَنْ لَمْ يَبُتْ عِنْدَ ابْنِ عِبَادٍ فَقَدْ
أَمَلًا بَأَعْنَانِ السَّمَاءِ كَفِيلاً
ضَلَّ السَّبِيلَ وَأَخْطَأَ النَّامِيلاً^(٢)

وكثيراً ما تكون المقدمة الغزلية تقليدية مقفلة من العواطف الصادقة، فالشاعر يتكلف الغزل تكلفاً ويمتطيه ليصل به إلى غرضه الرئيس. مثلما فعل ابن عمار الذي سطر قصيدة خاطب بها أبا الوليد بن زيدون، مادحاً له، وطالباً منه التوسط له عند المعتضد بن عباد، وذلك عندما نفاه عن إشبيلية يقول:

كَيْفَ اعْتَرَزْتِ عَلَى الدَّلِيلِ
وَقَتَلْتِي وَرَعِيْتِ أَنْ
وَعَلَيْهِ كِجَاهُ نَتِ الْعِدَا
يَا قَاتِلِي وَدَمِي بِصَفْحَةٍ
مَا أَلْفَقَ الْفُؤَلُ الْجَمِيهِلِ
وَقَطَعْتَ أَسْبَابَ الْوُصُولِ
الذَّنْبِ مِنَّا لِلقَتْرِهِلِ
وَالْيَكِ مِلْتُ عَنِ الْعَدُولِ
خَذَهُ أَهْدَى كَلِيهِلِ
بِذَلِكَ التَّوَجُّهُ الْجَمِيهِلِ

إلى أن يصل إلى قوله في المدح:

يَا بَرَقُ أَدِّ رِسَالَتِي
عَرِّجْ بِسَلْبِ مُحَيَّبِيَا
تَقَدَّرْتُكَ نَفْسِي مِنْ رَسُولِ
مَا شِئْتَ مِنْ نِكَالِ الطُّلُولِ

(١) في الأدب الأندلسي ص: ١٢١.

(٢) اللعيرة ج ٢ م ٥٠ ص: ٧٢.

لَيْدٍ يَنْظُرُ الْيَقِظُ النَّبِيلِ
مَا يَنْتَضِي حُسْنَ الْقَبُولِ (١)

فَإِذَا اجْتَلَكَ أَبُو الْوَلَدِ
فَأَقْرَأَهُ مِنْ قَلْبِي سَلَا

ولكن رائد المقدمات الغزلية في عصر الطوائف، هو الشاعر ابن زيدون الذي عبر عن عاطفة الحب والغزل في أغلب مطالع قصائده. ولعل هذه الكثرة ناتجة من حبه الصادق لولادة التي تربعت على عرش قلبه، فمثلا يقدم بالغزل لقصيدة سطرها في مدح الوليد بن جهور يقول فيها:

مَا لِلْمُدَامِ تَدْبِيرُهَا عَيْنَاكَ فَنَمِيحٍ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
مَلَا مَزَجَتْ لِعَاشِقِيكَ سُلَافَهَا بِيَرُودِ ظَلْمِكَ أَوْ بَعْدِ لِمَاكَ
بَلْ مَا عَلَيْكَ وَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ الْهَوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمَسْوَاكَ

ويستمر في مقدمته الغزلية حتى يقول مادحا:

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلِيقٌ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي
مَلِكٌ يَمُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ تَدْبِيرُهُ لِلْمَلِكِ خَيْرٌ مَلَاكِ (٢)

وقد نما هذا اللون من الغزل الممهد للمدح عند الشاعر ابن اللبانة، فجاء ممتزجا مع معاني المديح امتزاجاً عفويًا لطيفاً متغلغلا فيه بحيث لا يمكن فصله. فقد جعل ابن اللبانة صدور أبياته غزلاً، وأعجازها من صفات الممدوح ومآثره (٣).

وتتراءى الصور المشرقية القديمة أمام أنظار شعراء الطوائف فيقلدوها، ويذكروا بعض الأماكن العربية التي تغنى بها الجاهليون مثل "رامة" و "الرقمتين" وغيرهما، كما ذكروا بعض النباتات التي كانت تنبت في البيئة الصحراوية مثل "العرار" و "الخمط" و "الأرطى"، فتبدو الصورة أمامنا كأنها لشاعر بدوي امتزج ليله ونهاره بوحشة الصحراء القاسية. وليست للأسعد بن بليطة الذي تناسى بشعور أو بغير شعور، أنه يعيش في نعيم الحضارة الأندلسية، وأنه يتمتع بالنظر

(١) ديوان ابن عمار ص: ٢٢٣.

(٢) ديوان ابن زيدون ص: ٣٤٣.

(٣) راجع شعر ابن اللبانة السابق ص: ٥٣ وما بعدها.

إلى وردها، وآسها، ونيلوفرها. وهذه الصورة التي استمدتها من الشجر القديم،
قالها في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها ابن صمادح:

بِرَامَةِ رَيْمِ زَارِنِي بَعْدَمَا شَطَّأَ . تَفَنَّنَتْهُ فِي الْجُلْمِ بِالشَّطِّ فَاشْتَطَّأَ
رَعَى مِنْ أَنَاسٍ فِي الْحَشَائِمِ الْهُوَى جَنِيًّا وَلَمْ يَرَعْ الْعَرَارَ وَلَا الْخَطَّأَ
خَيَالٌ لِمَرْفُومِ الْبَنَانِ بِرَامَةِ خَيَالٌ لِمَرْفُومِ الْبَنَانِ بِرَامَةِ
فَأَشْفَنِي مِنْ خَدِّهِ رَوْضَةَ الْمُنَى وَالنَّمْنَى مِنْ صِدْغِهِ حَيَّةٌ رَقَطًا (١)

٢ - المقدمة الطليية:

افتتح الأندلسيون قصائدهم بالمقدمات الطليية، لكنهم ألغوا كثيراً من مقومات هذه المقدمة وثقاليدها الموروثة، ولم يتعمقوا في البداوة كما تعمقوا في مقدماتهم الغزلية - التي رأيناها عند الأسعد بن بليطة - بل خففوا من المظاهر البدوية، إلى لا تتناسب وبيئتهم المترفة، كوصف الصحراء والناقة، والمعارك الناشئة بين الحيوانات، فضلاً عن أنهم لم يطيلوا في الوقوف على الديار، بل وصفوها وصفاً عاماً بالتبدل والتغير، واكتفوا بتحديد موقعها باصطناع المرور على الأماكن والوديان العربية القديمة مشاكلة لعروبة الممدوح، كما لم يعرضوا لآثار تبدل هذه الديار بعد مغادرتها؛ لأنهم عنوا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من تكريات ماضٍ سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم، والمتعة بالحزن، وفي المقابل اثبتوا أشياء جديدة امتثالاً لواقع حضارتهم ومدنيتهم، فلم يقفوا أمام الطلول المندثرة، بل وقفوا عند الربوع العامرة، والقصور الجميلة، والرياض الزاهية، ودعوا لها بالسقيا والنماء ليس تقليداً محضاً، وإنما بكون الماء عنصراً فعالاً في بيئتهم، ومكملاً لإطار اللوحة الحيوية التي يرسمونها للديار، أضف إلى ذلك ما للماء من أهمية في أسباب العيش، كما وصفوا خضرة تلك الربوع، وما تخللها من جداول، وما نما في انحنائها من أزاهير ورياحين، وتحسروا على أيام لهوهم ولحظات سرورهم التي قضوها في ربوعها، وحاكوا الشعراء المحدثين في أن

(١) اللصيرة ج ١ ص ٣٢٢ : ٤٩٨.

أكثر مقدماتهم الطللية لم يعنوا فيها بنقل صورتها الخالية المقفرة، بل عنوا بنقل صورتها العامرة المخضرة المزهرة^(١).

وربما وصلوا ذلك بوصف صواحبهم، وتصوير تعلقهم بهن، وبث شوقهم المستبد، وحنينهم المتدفق، كما وصفوا طيف المحبوبة، واجتيازه المفاوز والوديان والطرق الوعرة، وسكبوا دموعهم الغزار على أيامهم الخوالي، وتمنوا استرجاع عهود أنسهم المنصرمة والعودة إلى معاهد عشقهم المتبدلة التي عبثت بها أيدي البلى والفناء بعد أن كانت منتدى الشعراء ومسارح لهوهم ومدار أنسهم.

ومما يصور ذلك قول أبي حفص عمر بن الشهيد في إحدى مقدماته لقصائده المادحة التي توجه بها إلى المعتصم بن صمادح، وذلك عندما دعا بالسقيا لديار كست رباها وخمائلها منابت النوار، فروى الغيث غصونها التي ظهرت بين الأوراق الملتفة عليها كقدود حسان ظهرت في ثياب خضر شفاقة، ثم سلك مسلك الأقدمين فأخذ يخاطب صاحبيه على عادتهم بأن يعوجا على تلك الديار كي يبعث التحية إلى رياضها الزاهية، وجداولها الرقراقة، فلطالما كانت هذه الربوع ملاعب لهو وأنس، وشراب بين جماعة الندمان، ونزهة تتلمى العين من محاسنها، ومسلى يتلهى به الصب المشتاق، وذكرى للقلوب الغافلة يقول:

| | |
|--|---|
| سَقَى كُلَّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَابِلِ | مَنَابِتُ نُورِ الرَّبِيِّ وَالْخُمَائِلِ |
| فَرَوَى غُصُونًا كَالْقُدُودِ تَطَلَّعَتْ | مِنْ أُرَاقِهَا فِي مِثْلِ خُضْرِ الْغَلَائِلِ |
| خَلِيلِيَّ عَوْجًا بِي عَلَى الرَّبِيعِ دَارِسًا | نَحْيَ رِيَاضًا أَحَدَقَتْ بِجَدَاوِلِ |
| مَلَاعِبِ كَأَسَاتٍ وَنَزْهَةٍ أَعْيُنِ | وَمَهْلِيٍّ لِمُشْتَاقٍ وَذِكْرِي لِغَافِلِ |
| وَأَحْسَنُ مِنْ رَوْضِ تَحَلَّى بِنُورِهِ | مَحَبَّتَا ابْنِ مَعْنٍ فِي حُلَى الْفَضَائِلِ ^(٢) |

ويسلك أبو بكر بن الملح سبيل التجديد في إحدى مقدماته الطللية التي صدر بها إحدى مدائحه في المعتضد بالله؛ إذ أدار وجهه عن وصف الديار المقفرة إلى وصف القصور الجميلة التي كان يحيا فيها حياة ناعمة زاخرة

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول. د. حسين عطوان. دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٤ م ص: ٢٤.

(٢) الذخيرة ج ١ م ٢٨ ص: ٤٢٧.

بمجالس اللهو والأسّ وسط كؤوس الخمر والشراب، وطاسات الرقص والغناء، حتى تبدلت العهود، وأدارت عليه الدنيا بظهرها، فودع الصبا وأيامه، وفتح عينيه على قسوة الواقع، فألقى الآمال أوهاماً، والأمانى سراباً، فإذا فاض حنينه كالطوفان؛ لم يجد مخرجاً وملاذاً إلا باستغلال فلك العزاء والنسيان يقول:

| | |
|---|--|
| كَمْ قَصِيرٍ أُنْسٍ لَهْوْنَا فِي مَطَالِعِهِ | قَدْ عَادَ وَالْعَهْدُ كَانَ مُؤَجَّشِ الطَّلِ |
| فَمَنْ مَعَنَّ بِالْحَانَ الْمُنَى غَبْرِدِ | وَشَارِبٍ بَيْنَ طَاسَاتِ الْهُوَى ثَمَلِ |
| وَعَاقِلٍ بِالصَّبَا عَنْ قَطْعِ مُتَتَبِهِ | قَدْ رَأَى أَجْنَحَةَ الْإِيَامِ بِالْجَدَلِ |
| حَتَّى إِذَا جِنْتُ أَمَالِي تَحَرَّفَ لِي | حَطْبٌ دَفَعْتُ بِهِ فِي عُرَّةِ الْأَمَلِ |
| إِذَا الْهُوَى فَاضَ طُوفَانًا رَكِبْتُ لَهُ | فَلَكَ الْعَزَاءُ وَلَمْ أَوْى إِلَى جَبَلِ |
| لَوْلَا الْحَيَاءُ وَقَدْ سَبَبَ مَعَارِكُهُ | لَقَدْ كَشَفْتُ لِنَاْمِ الصَّبْرِ عَنْ بَطَلِ (١) |

وتكثر مثل هذه المقدمات التي سلك فيها الشعراء مسلك التجديد، فبدل أن يصفوا الديار وهي خالية وصفوها وهي عامرة (٢)، وقد يمزج الشعراء في مقدماتهم الطللية بين القديم والجديد (٣). ولا يخفى من كل تلك الأمثلة أن شعراء الطوائف، قد انتحوا بالمقدمة الطللية القديمة منحى التجديد، ومرجع ذلك عندي أن الشعراء قد فطنوا إلى أهمية المقدمة في نفس المتلقى، وبيئته التي يعيش فيها، وبيئة الأندلس بيئة مترفة، فأصبحت بذلك المقدمات القديمة لا فائدة لها إذ لم يعاصرها العربي في الأندلس الخضراء.

أما ما وجد من مقدمات طللية قديمة عندهم، فإننا نقول: ربما راودهم الحنين إلى مواطن أجدادهم في المشرق من جهة، أو محاولة إظهار براعتهم في استهلال القصائد من ناحية أخرى، حتى تذكر الممدوح المراتع القديمة، ويصفوه بعد ذلك بعدة صفات مثل الكرم، والمروءة، والشجاعة التي تكون دافعاً له لإجزال العطاء.

(١) الذخيرة ج ٢ م ١٨ ص: ٢٧٦.

(٢) راجع ديوان ابن عبدون ص: ١١٨ وما بعدها، وشعر ابن اللبانة ص: ٥٥ وما بعدها.

(٣) راجع مثلاً قول أبو الحسن علي بن حصن في الذخيرة ج ٢ م ٧ ص: ١٠٦ وما بعدها، وراجع شعر أبي عبدالله بن الحناد ص:

مقدمات وصف الظعن:

أما مقدمات وصف الظعن، فلم تكثر في أشعارهم كثرتها في الشعر المشرقي القديم. ومن هذه المقدمات ما قاله ابن اللبانة في مقدمة إحدى قصائده في المدح:

بَكَتْ عِنْدَ تَوْدِيْعِي فَمَا عَلِمَ الرَّكْبُ أَدَاكَ سَقِيْبُ الطَّلِّ أَمْ لَوْلَا رَطْبُ
وَتَابَعَهَا سِرْبٌ وَإِنِّي لَمُخْطِئٌ نُجُومُ الدِّيَاجِي لَا يُقَالُ لَهَا سِرْبٌ^(١)

ب/ المقدمات الجديدة:

أعنى بالمقدمات الجديدة تلك المقدمات التي امتطى فيها الشعراء وصف الطبيعة، حتى يصلوا لغرضهم الرئيس كالمدح مثلاً، وقد كانت الأسرة العبادية أكثر أسر الطوائف إحتفالاً بالطبيعة، فالشعراء يجلسون حول المعتضد ويمدحونه، ويمزجون بين صفاته وصفات الزهر والنور، وهو ينتشى لذلك. فهاهوذا أبي اسحاق ابن خيرة الصباغ يتخذ من مجالي الطبيعة السماوية والأرضية مقدمة لقصيدته المدحية، فيصف يومه الذي احتجبت فيه الشمس بالسحب، وبكى فيه الغيث، وضحك البرق، وزلزل الرعد، وسقى الروض. ثم يدعو للشراب، ويجعل من الطبيعة السماوية زلفي إلى الثناء على ممدوحه، ومن الطبيعة الأرضية وسيلة لإطرائه يقول:

| | |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| يَسُومُ كَأَنَّ سَحَابَهُ | لَيْسَتْ غَمَامِي الْمَصَامِي |
| حَجَبَتْ بِهِ شَمْسَ الضُّحَى | كَمِثَالِ أَجْنَحَةِ الْفَوَاحِشِ |
| فَالْعَيْثُ يَبْكِي فَقَدَمَاهَا | وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ مِثْلَ شَامِي |
| وَالرَّعْدُ يَخْطُبُ مُفْصِحاً | وَالجُوءُ كَالْمَحْزُونِ سَاكِتِ |
| وَالرَّوْضُ يَشْفِيهِ الْحَيَا | وَالنُّورُ يَنْظُرُ مِثْلَ بَاهِي |
| فَاطْرَبَ وَلَذَّ بِحُسْنِهِ | وَأَشْرَبَ فَإِنَّ الْعُمَرَ فَائِي |
| تَحْكِي خِلَالَ الْحَاجِبِ الزَّأ | كِي الْمَعَارِسِ وَالْمَنَابِي |

(١) شعر ابن اللبانة اللبان ص: ١٧.

ثم يذكر عباداً ويرفع من مكانته:

عَبَادِ السَّمَاءِ الدُّرَى
وَالْمَجْدِ حَيْثُ النَّجْمِ ثَابِتٌ (١)

وقد أكثر شعراء الطوائف من ذكر الطبيعة في مقدمات قصائدهم كثرة مفرطة، والمجال لا يسعنا لتتبع خيالهم السابح في مجالات الطبيعة (٢). وقد امتزجت الطبيعة في مقدماتهم بالغزل لأن الطبيعة تحاكي مفاتن المحبوبة فيرى الشاعر جمال محبوبته في جمال الطبيعة، فيمتزج الشاعر بالطبيعة امتزاجاً حتى يخيل له، كما خيل لابن الحداد أن محبوبته الحسناء المشرقة الوجه، الحوراء العينين، والتي اشعلت نيران جده وألهبت حشاه، حورية تسكن البانة الفينانة، والروضة الغناء، والظل الظليل، والماء السلسال. يقول في ذلك مقملاً لقصيدته في مدح المعتصم بن صمادح:

مَلِ الْبَانَةَ الْفَيْنَانَةَ عَنْ مَلْعَبِ الْجُرْدِ
وَسَجَمَجَ ذَلِكَ الظِّلُّ عَنْ مُلْهَبِ الْحَشَا
فَعَهْدِي بِهِ فِي ذَلِكَ الدَّوْحِ كَانِسًا
وَفِي الْجَنَّةِ الْأَلْفَاكُ أَحْوَرُ أَزْهَرُ
وَرَوْضَتَهَا الْغَنَاءَ عَنْ رَشَا الْأَسْدِ
وَسَلَمَلْ ذَلِكَ الْمَاءُ عَنِ مُضْرَمِ الْوَجْدِ
وَمَنْ لِي بِالرُّجْعَى إِلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ
تُلَاعِبُ قَضْبُ الرِّندِ فِيهِ قَنَا الْهِنْدِ

ثم يجعل المديح حديثاً خالصاً عن الطبيعة حين يقول:

وَيَا لَكَ مِنْ نَهْرٍ صَوُولٍ مَجْلَلٍ
إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ تَصَقِّلُ مَنَّةُ
كَانَ يَدُ الْمَلِكِ ابْنُ مَعْنٍ مُحَمَّدٍ
كَانَ الثَّرَى مُزْنٌ بِهِ دَائِمُ الرَّعْدِ
وَتَصْنَعُ هَيْبَةً صُنْعَ دَاوُدَ فِي السَّرْدِ
تَفَجَّرُهُ مِنْ مَنْبَعِ الْجُودِ وَالرَّفْقِ (٣)

ومن المقدمات الجديدة مقدمة وصف الخمر. فقد وجدنا بعض الشعراء

يستهلون مدائحهم بأحاديث الخمر والدعوة إليها، على الطريقة النواسية، مثل قول

أبي بكر بن نصر الإشبيلي في مدح إسماعيل بن عياد:

أَهْدَيْتُ إِلَى رُوحِي بِرَاحِ يَمِينِهَا
فَكَانَ حَبَّ حَبَابِهَا فِي وَجْهِهَا
رَاحًا أَرْقَى مِنَ الْهَوَاءِ وَأَعْتَقًا
كُرًّا عَلَى أَرْضِ النَّضَارِ تَقَرَّقًا

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٩٢ : ١٣٠.

(٢) نفسه ج ٨ ص ١٢٥.

(٣) شعر أبي عمير بن الحداد ص : ٥٤ - ٥٥.

وَكَانَ شَخِصَ الكَاسِ شَمْسٌ وَسُحُبٌ
لِللَّهِ تَرَكَ مِنْ زَمَانٍ لَكُمْ يَزَلُ
زَمَنٌ هَصَرْنَا عَيْشَهُ فَكَانَ هُـ
قَمَرًا فَعَاضَ شُعَاعَهَا وَتَمَزَّقَا
مُحَلَوِ الحَلَى رَحَبَ الجَنَابِ مَعْتَقَا
مِنْ جُودِ إِسْمَاعِيلَ كَانَ مُنْمَقَا (١)

ويعد ابن حمد يس الصقلي من أكثر الشعراء إماماً بذكر الخمر، وكثيراً ما يتبعها بوصف رحلته إلى الممدوح في مقدمات قصائده المادحة، سواء أُنكح القصائد التي أنشدتها في أثناء الفترة الصقلية أم الأندلسية. فها هو ذا يعلن في مقدمة إحدى قصائده في مدح المعتمد، اعتناقه لمذهب أبي نواس في نبذ الوقوف على الأطلال، وإيثاره نكر الخمر ووصفها، على وصف الرسوم. لأنها تجلى الهموم يقول:

خَلَعْتُ عَلَى بُنْيَابِ الكُرُومِ
أَخَذْتُ بِمَذْهَبِ الحِكْمَى فِيهَا
وَمَا فَضْلُ الطَّلُولِ عَلَى شَمُولٍ
يُجَدِّدُ حُبَّهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ
مَحَاسِنَ مَا خُلِعَتْ عَلَى الرُّسُومِ
وَكَيْفَ أُمِيلُ عَنْ غَرَضِ الحَكِيمِ
تَمُجُّ المَسْكَ فِي نَفْسِ النَّسِيمِ
إِذَا صَقَلْتَهُ مِنْ صَدْرِ الهمُومِ

إلى أن يقول:

وَطُفْنَا فِي البِلَادِ طَوَافَ قَوْمِ
وَفِي مَعْنَى ابْنِ عَبَّادٍ حَالِنَا
يَرِيحُ نَفُوسَهُمُ تَعَبَ الجِسْمِ
وَقَدْ نَلْنَا المُنَى عِنْدَ العَزِيمِ (٢)

وقد يتخذون من شكوى الدهر ودم الناس، مدخلاً إلى المدح كقول ابن

وهيون المرسي:

أَطَلْتُ فِي الدَّهْرِ تَصَعِيدِي وَنَصُوبِي
وَرَبِّ أَخْرَقَ لَا يَهْدِي إِلَيَّ فَمِيسِرُ
وَأَفْتَى أُنْبُ بَبَادِ فَضِيلَتُهُ
وَقَدْ أَرَى صُوراً فِي النَّاسِ مَائِلَةً
وَدَهْرُ ذِي اللَّبِّ مِضْمَارُ التَّجَارِبِ
أَصَابَ غَرَّةَ مَأْمُولٍ وَمَرَّ غُوبٍ
مَنْ حَيْثُ يَشْفَعُ لِي قَدْ صَارَ يُغْرِي بِي
أَسِيمُهَا يَبِينُ تَحْقِيقُ وَنَكْذِيبُ
نَفَضْتُ كَفَى بِأَشْبَاهِ البِعَاسِبِ
لَمَّا مَلَأْتُ يَدِي مِنْهُمْ لِأُخْبِرُهُمْ

(١) اللخيرة ج ٢ م ٩ ص: ١٢١.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص: ٤٣٥-٤٣٦، وراجع كذلك ص: ١٣٩ وما بعدها ص: ٢٠٥-٢٠٦.

بِيضٌ وَجُوهِهِمْ سُودٌ ضَمَائِرُهُمْ
فَمَا حَصَلَتْ عَلَى عُرْبٍ وَلَا نُوبٍ
الصَّدْقُ أَوْلَى بِمَنْ يُبْدِي ضِعْفَيْتَهُ
لَا تَجْعَلِ الصَّدْقَ فِي كَعْبِ الْأَصْحَابِ
فِي حُسْنِ رَأْيِ عُبَيْدِ اللَّهِ لِي عَوْضٌ
وَفَضْلُهُ بَدَلٌ مِنْ كُلِّ مَطْلُوبٍ (١)

وقد يقدم الشعراء لقصائدهم بالشكوى من الشيب الذي يؤدي ظهوره إلى نفور النساء منهم، كما قال حسان المصيصي في إحدى مقدمات قصائده في المعتمد:

رَوْضُ الشَّبَابِ تَتَاوَيْتَ أَرْهَارُهُ
وَلَى بِنَفْسِي وَجَاءَ بِهِ عَارُهُ
وَدَّ الْمَهْمَا لَوْ أَنَّ أَسْوَدَ لَحَظِيهِ
أَضْحَى خِضَابًا حِينَ شَابَ عِدَارُهُ
قَدْ كَانَ يُعْجِبُهُنَّ خِفَةُ حِلْمِهِ
فَالآنَ سَاءَ الْغَانِيَاتِ وَقَارُهُ
هُوَ أَعْرَفُ الْكُرْمَاءِ إِنْ سَمَّيْتَهُمْ
جَهَلُوا وَكَلَّ عَلَى اسْمِهِ إِضْمَارُهُ (٢)

وابن الحداد يقدم قصيدته في مدح المعتصم بن صمادح بالحكمة والفلسفة

يقول:

وَالنَّفْسُ عَادِمَةُ الْكَمَالِ وَإِنَّمَا
بِالْبَحْثِ عَنِ عِلْمِ الْحَقَائِقِ تَكْمُلُ
وَالْمَرْءُ مِثْلُ النَّضْلِ فِي إِصْدَائِهِ
وَالْجَهْلُ يُصْدِي وَالتَّفَهُمُ يُصِقِلُ (٣)

(١) اللخيرة ج ٢ م ١٩ ص: ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) نفسه ج ٢ م ١٧ ص: ٢٦٩.

(٣) شعر أبي عبيد الله بن الخلد ص: ٧٣.

المبحث الثاني

التخلص والخروج

يقول ابن سنان الخفاجي: "من الصحة ضحة النسق والنظم، وهو أن يستمر المؤلف في المعنى الواحد، وإذا أراه أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه، حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه. ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسب إلى المدح، فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسب متعلقاً بكلامهم في المدح لا ينقطع عنه. فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة، وإنما كان أكثر خروجهم من النسب إما منقطعاً وإما مبنياً على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها"^(١).

ويقول أبو هلال العسكري: "كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: "دع ذا وسل لهم عنك بكذا"، وربما تركوا المعنى الأول وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا ما ذكرنا. فأما الخروج المتصل بما قبله فقليل في أشعارهم، وأما المحدثون فقد أكثروا من هذا النوع"^(٢).

ثم إن حسن التخلص يأتي على أوجه، فأحسن ما يأتي في بيت واحد،

وهو كقول مسلم بن الوليد يمدح البرامكة:

أَجْدُكَ مَا تَدْرِيْنَ أَنْ رُبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يَنْشُرُ
سَرَّيْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةِ يَحْيَى حِينَ يُذَكَّرُ جَعْفَرُ

فما هذا حاله قد فاق في حسن التخلص من الغزل إلى المديح مع قصر

الكلام وتقارب أطرافه لما فيه من ادماج المبالغة في مدح يحيى بالبر لابنه وجمعه فيه من المحاسن. وقد يأتي في بيئتين كقول أبي تمام:

(١) سر النصاحة. ابن سنان الخفاجي. صححه وعلق عليه عبدالتمال الصمدي. طبع مكتبة ومطبعة محمد علي صبح وأولاده،

١٩٥٢م ص: ٣١٥.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر. لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل المكري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البحوي،

طبع دار إحياء الكتب العربية ط ١ / ١٩٥٢م ص: ٤٥٢.

تَقُولُ فِي قَوْمِ قَوْمِي وَقَدْ أَخَذْتُ
مَنَا السُّرَى وَخَطَا الْمَهْرِيَّةِ الْقَوْدُ
أَمْطَلَعُ الشَّمْسِ بِنْتِي أَنْ تُؤَمَّ بِنَا
فَقُلْتُ كَلَّا وَلَكِنْ مَطَلَعُ الْجُودِ

فانظر إلى ما أبرزه من التخلص الرائق والمخرج الفائق. وربما جاء في

ثلاثة أبيات نحو ما قاله أبو نواس يمدح بني العباس:

وَإِذَا جَلَسْتَ إِلَى الْمُدَامِ وَشُرْبِهَا
فَأَجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ
وَإِذَا جَلَسْتَ عَنِ الْغَوَايَةِ فَلْيَكُنْ
بِاللهِ ذَلِكَ النَّزْعُ لَا لِلنَّاسِ
وَإِذَا أَرَنْتَ مَدِيحَ قَوْمٍ لَمْ تُلْمِ
فِي مَدْحِهِمْ فَأَمْدَحْ بِنِي الْعَبَّاسِ

فقاتله الله ما أرق كلامه وما أعجب ما جاء به من النسب وحسن

التخلص فكان ما جاء به رحيق مقلل أو نهر جاري تسلسل^(١).

وإذا أدركنا وجوهنا شطر تخلصات شعراء الطوائف في شعرهم. فإننا نرى تخلصاتهم قد جاءت على قسمين. قسم أحسنوا فيه التخلص، وقسم لم يحسنوا فيه التخلص، والقسم الذي أحسنوا فيه التخلص، نراهم قد استخدموا فيه أدوات الربط مثل كأن المخفضة والثقيلة، والكاف، والواو وغيرها.

فمن حسن التخلص قول ابن زيدون عندما تخلص من الغزل إلى مدح ابن

جهور في قوله:

صَلَاةً تَمَادَى الْحَبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
وَلَجَّ الْهَوَى فِي حَيْثُ تُخْشَى الْغَوَائِلُ
كَأَنَّ لَيْسَ فِي نِعْمَى الْهُمَامِ مَحْمَدٍ
مُسَلِّ وَفِي مَثْنَى أَيْدِيهِ شَاغِلٌ^(٢)

وانظر إلى قول ابن حمد يس في إحدى مدائحه في المعتمد. وقد استعذب

مشاق الرحلة، ورضى بآلام جسده احتساباً لحلوله في مغنى ابن عباد:

وَطُفْنَا فِي الْبِلَادِ طَوَافَ قَوْمٍ
وَفِي مَغْنَى ابْنِ عَبَّادٍ حَلَّلْنَا
يُرِيحُ نُفُوسَهُمْ نَعْبَ الْجُسُومِ
وَقَدْ نَلْنَا الْمُنَى عِنْدَ الْعَزِيمِ^(٣)

(١) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز. للعلوي اليمني. طبع دار الكتب بيروت - لبنان بلا تاريخ ص: ١٨٠/٣-١٨٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ص: ٣٩١.

(٣) ديوان ابن حمد يس ص: ٤٣٦.

فانظر إلى حسن هذا التخلص الذي لم يشعر فيه السامع بانتقال الشاعر إلى المديح. وقد يستخدمون في تخلصاتهم أسلوب الشرط، ومن ذلك ما أبدعه ابن حصن الإشبيلي في إحدى مدائحه يقول:

أَحِنُّ إِلَى الْبَرْقِ الْيَمَانِيِّ إِذَا أَنْتَحَى
لَأَنَّ إِلَى الْبَرْقِ الْيَمَانِيِّ أَنْتَسَابُهَا
مَنْى جُسِبَ الْأَمْلَاقُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
عَقَدْنَا بَعْدَ الْحَسِيبِ حِسَابُهَا^(١)

وقد يستهل الشعراء قصائدهم بالمدح دون تمهيد بغزل أو بغيره، خاصة في مدائح التهنئة بالنصر، أو الشفاء من مرض، أو عيد ميلاد. لأن هذه المواضيع لا يحبذ التقديم فيها. وهذا ما فطن له ابن عمار عندما مدح المعتضد بن عباد حين انتصر ابنه الظافر على ابن عبد الله بقرمونة، فافتتح قصيدته بالمدح يقول:

أَلَا لِلْمَعَالِي مَا تَعِيدُ وَمَا تُبْدِي
وَفِي اللَّهِ مَا تُخْفِيهِ عَنَّا وَمَا تُبْدِي^(٢)

أما التخلصات التي لم يحسنوا فيها، أو ما يمكن أن نسميها التخلصات المفاجئة فهي قليلة إذا ما قيست بسابقتها. ومنها قصيدة ابن زيدون التي مدح بها المعتمد، فقد وقف الشاعر أمام الطبيعة الساحرة وأطال فيها، حتى كاد أن ينسينا غرضه الرئيس وهو المديح. ومطلع قصيدته هو:

عَمَّرْتَنِي لَكَ الْأَيْدِي الْبَيْضُ
نَسَبٌ وَافْرٌ، وَجَاهٌ عَرِيضُ

فبعد هذه المقدمة، استرسل الشاعر في وصف الحديقة، والحمّام الرخامي، والتمثال، ثم عاد للمديح عودة مفاجئة كأنما أحس هو نفسه بنسيانته للمعتمد يقول:

لَمَعَتْ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنَّ
لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَقْوِيضُ^(٣)

(١) اللخيرة ج ٢ ص ٧٢: ١٠٦.

(٢) ديوان ابن عمار ص: ١٩٥.

(٣) ديوان ابن زيدون ص: ٢٣٩-٢٤٠.

المبحث الثالث خاتمة القصيدة

الانتهاء قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما ، لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه (١) .
وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه . في أي مقصد كان بأحسن الخواتم ، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها فلا جرم أن وقع الاجتهاد من رشاقتها وحلاوتها وفي قوتها وجزالتها ، -
وينبغي تضمينها معنى تاما يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية ، ولهذا قال عليه السلام : " ملاك العمل خواتمه " وفي حديث آخر : " إلا إنما الأعمال بخواتمها " (٢) فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه والغاية في كماله ، فأما المتقدمون من الشعراء كأمري القيس والنابغة وطرفة ، وغيرهم من الشعراء الجاهليين ليس لهم فيه كل الإجادة ، وإنما الذي أجاد فيه المتأخرون كابي نواس والمتنبي والبحتري وأبي تمام (٣) .
وقد سار شعراء الأندلس علي درب المتأخرين ، فإذا نظرنا إلى خواتم قصائد شعراء عصر الطوائف ، فإننا نجدهم قد اهتموا بتحسينها وتزينها ، ولا سيما في مدائحهم ، لأنهم كانوا يتوجهون بقصائدهم إلي الملوك الذين كان أغلبهم من الأدباء ، لهذا فقد اهتم الشعراء بخواتمهم لتثير انفعالات الممدوح وتهز سماعته ، فيجزل لهم العطاء . وكذلك فعلوا في سائر موضوعاتهم الشعرية . وليس أقدر على إثارة الممدوح من الدعاء له بطول الأجل والعزة ، وتحقيق الأهداف .

(١) العمدة ٢٨١/١ .

(٢) راجع الحديث في صحيح البخاري / كتاب القدر باب العمل ١٤٥/٤ .

(٣) كتاب الطراز : ١٨٣/٣ - ١٨٤ .

والأماني والنصر على الأعداء. وهذا ما فطن له ابن زيدون في مديحه لإبن
جهور عندما دعا له بطول الأجل، ولم يترك لسامعه مطمعا لوراء ما قال:

كَأَمَّتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتَدَمَّتْ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارَ بَعْدَ هَلَاكِ (١)

وكذلك خاتمة ابن حمد يس في مدحه للمعتمد، إذ بناها على الدعاء للمعتمد

بطول الأجل والنصر على الأعداء يقول:

كَأَمَّتْ لَكَ الدُّنْيَا وَنُؤِمَتْ لَهَا وَأَقَامَ سَيْفُكَ كُلَّ ذِي مَيْلٍ (٢)

وقد يختم الشعراء قصائدهم المدحية بالإشارة إلى قوة كلامهم، وبديع
شعرهم، وجمال منظومتهم التي يزجونها بين يدي ممدوحيه، حتى يحملوهم على
العطاء الذي يناسب قدر القصيدة الرفيع، وقد يفتخر الشاعر بشاعريته الفذة،
وامتلاكه لناصية البيان، وزمام الشعر، وتميزه بين الشعراء الكثر الذين يحلقون
حول الملك.

فهذا ابن حصن الإشبيلي يصور لنا كل ما أسلفناه في إحدى مدائحه في
المعتمد، مشيراً إلى جمال نسيج قصيدته، واحكام صياغتها، وقوة قوافيها، وكثرة
أفكارها، ونفاسة معانيها، وسحر بيانها الذي هو السحر الحلال يقول:

وَدُونُكَهَا مَصْبُوحَةٌ رِشَلٌ مِقْسُولٌ أَرْفُ بِهَا بَكْرًا عَوَانًا مُرَاسِلًا
قَوَائِي أَمْثَالُ الصُّخُورِ بَعَثَتْهَا قَدِيمًا عَلَى أَسْمَاعِ قَوْمٍ مَعَاوِلًا
حَوَامِلُ الْأَمَالِ أَجْمَلُ مَنْ غَدَتْ مَطَافِيلُ بِالْمَعْنَى النَّفِيسِ حَوَامِلًا
إِذَا انْتَشِدَتْ فِي مَحْفَلِ الْقَوْمِ أَعْرَبَتْ مِنْ الْغَيْظِ فِي أَضْلَاعِ قَوْمٍ مَحَافِلًا
بَيَانٌ هُوَ السُّحْرُ الْحَلَالُ تَجَبَّوَدَتْ بِهِنَّ فِكْرَةٌ أَضْحَتْ لِبَابِلَ بَابِلًا (٣)

أما خواتيم قصائدهم الغزلية، فقد جاءت في غاية الإقناع المنطقي، وخير

مثال لذلك قصيدة ابن زيدون الغزلية التي لا تزال عالقة بأذهان أهل الأدب إلى

اليوم. فقد قال في خاتمتها:

(١) ديوان ابن زيدون ص: ٢٥١.

(٢) ديوان ابن حمد يس ص: ٢٧٤.

(٣) الذخيرة ج ٢ م ٨ ص: ١١٣.

فَالآنَ أَحْمَدُ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَيَقِينًا نَحْنُ عَشَاقًا (١)

فلا أعتقد أن سامعاً تفرع أذنه هذه الخاتمة. فتتوق نفسه إلى المزيد، لأنها نهاية حتمية لعاطفة صادقة.

ومثلها قوله في قصيدة "أضحى التثاوى .." يدعو لولادة بقوله:

عَلَيْكَ مِنَّا سَلَامُ اللَّهِ مَا كَفَيْتَ صَبَابَةً بِكَ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا (٢)

وإذا كنا نعرف أن الشعر، إما قصيدة، وإما مقطوعة، وبما أننا أفضنا الحديث عن القصيدة. يجمل بنا أن نتعرض للمقطوعات الشعرية عند شعراء هذا العصر الذي ندرسه. والواضح أن المقطوعات الشعرية هي أبيات يسطرها الشاعر، وقد تكون ثلاثة إلى ستة أبيات.

وقد انتشرت ظاهرة المقطوعات الشعرية في عصر الطوائف انتشاراً ملحوظاً ولعلني أعزى هذا الانتشار إلى عدة عوامل:

أولاً: انتشار مجالس اللهو والغناء والمجون، فقد شجعت هذه المجالس على قول المقطوعات الشعرية لملاءمتها لأغراض الغناء واللهو، ومواكبتها لإيقاع الحياة السريع.

ثانياً: انتشار الشعر الحكيم، ف شعر الحكم يراد به التريفة الحسنة والتوجيه والإرشاد. فكان لا بد من هذه المقطوعات حتى يعلق بالأذهان ويستفاد منه.

ثالثاً: انتشار شعر الهجاء، وهذا النوع من الشعر يريد به صاحبه أن يعلق بالأذهان، وتلهج به السنة الناس. وإزاء هذه البغية لم يجد الشاعر أنسب من المقطوعات القصيرة التي يسهل حفظها. أضف إلى ذلك المقطوعات الغزلية القصيرة التي تقال لتغنى، ومقطوعات وصف الطبيعة، فكثيراً ما يخرج الشعراء

في مجموعات، فيثير منظر ما أحدهم فيقول شطر بيت ويجيزه الآخر.

وثمة عوامل أخرى لم يكن للشعراء دور فيها بل كانت بسبب أصحاب المؤلفات الأدبية، الذين اعتادوا اجتزاء أبيات قليلة من قصيدة طويلة للشاعر الذي

(١) ديوان ابن زيدون ص: ١٤٠.

(٢) نفسه ص: ١٤٨.

يترجمون له. كما يجب ألا يغيب عن بالنا ضياع قسم ضخم من تراثنا الشعري، إما بسبب إهمال المؤرخين له، وإما بسبب ما فعلته يد الزمن بذلك التراث، فقد تضيع قصيدة بأكملها، أو تضيع أجزاء كبيرة منها، وتبقى أبيات قليلة.

وعصر الطوائف، من أكثر العصور التي وصفت بعدم الاستقرار وذلك بسبب الحروب بين الممالك الطائفية من جهة، وبين العرب والنصارى من جهة أخرى فقد أدت هذه الحروب بلا شك إلى ضياع الكثير من المؤلفات الشعرية. فنحن نعلم أن الشعراء في عصر الطوائف قد كثروا كثرة لم يشهدها عصر من عصور الأندلس، ومع ذلك لم يصلنا من دواوينهم إلا القليل بالقياس لهذه الكثرة. ووجدنا أكثر شعرهم منثوراً في كتب التراجم كالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وجذوة المقتبس، ونفح الطيب وغيرهم. وأغلب شعرهم في هذه الكتب عبارة عن مقطوعات وقصائد قصيرة.

أما بالنسبة لبناء هذه المقطوعات، فإن الوحدة العضوية تظهر في المقطوعة أكثر منها في القصيدة، لأن المقطوعة تتسع لغرض واحد، وفكرة واحدة فهي بنت ليلتها، ووليدة ساعتها، يترجم فيها الشاعر ما يختلج في نفسه، في دفقة شعورية واحدة في شئ من التركيز والإيجاز، فهي إذاً أشد تماسكاً. وقد عرضنا الكثير من هذه المقطوعات في دراستنا للشعر الحكمي، وشعر الهجاء وغيرهما. وهناك مقطوعة أثارت إنتباهي، وهي للشاعر ابن عمار قالها عندما قبض عليه في شقورة عام ٤٧٧هـ، وعرض للبيع لمن يدفع أكثر^(١).

فقال وقد أحس بالضياع:

أَصْبَحْتُ فِي السُّوقِ يُنَادَى عَلَيَّ
فَهَلْ فَتَى يَبْتَاعُنِي مَا جَدُّ
وَاللَّهِ مَا جَارَ عَلَيَّ نَقْدِهِ

رَأَيْتُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَالِ
أَخْدَمُهُ مَدَّةَ إِهْمَالِي
مَنْ ضَمَّنِي بِالثَمَنِ الْغَالِي^(٢)

(١) ديوان ابن عمار ص: ١٤٨.

(٢) نفسه ص: ١٥١.

ومن أمثلة تبادلهم إجازة الشعر في مجتمعاتهم ما ذكر أنه : مَضَى عند المعتضد عبّاد ليلةً. أبو الوليد بن زيدون، وأبو بكر بن عمار فقال المعتضد:

أَتَاكَ اللَّيْلُ مُعْتَكِرًا

فقال ابن زيدون : يُنَاهِبُهُ سَنَى الْبَدْرِ

فقال ابن عمار:

دَعِ الشَّاعَاتُ تُبْسِطُهُ

سَنَفِيضُهُ يَدُ الْفَجْرِ (١)

الصور والأخيلة:

الخيال هو عنصر أصيل في البناء الشعري بوجه عام. وفي دراستنا الخيال عند شعراء الطوائف نقف عند محاور بعينها وهي التشبيه، والإستعارة، والكناية وتراسل الحواس وتبين كيف توصل الشعراء بخيالهم لإبراز صورهم الفنية. أولاً:

التشبيه ودوره في تشكيل الصور والأخيلة:

التشبيه لغة التمثيل. والتشبيه اصطلاحاً هو: إلحاق شئٍ بآخر بينهما صفة مشتركة، أو هو الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ آخر في معنى ما من المعاني (٢). وقد لعب التشبيه دوراً هاماً في تشكيل الصورة الفنية عند شعراء الطوائف. والملاحظ أن الطبيعة الأندلسية الساحرة هي محور تشبيهاتهم، فربطوا بين الطبيعة والإنسان، وهم في ذلك لم يخرجوا عما فعله المحدثون من المشاركة، ولكن التشبيه ارتقى عند الأندلسيين إلى أعلى درجاته، فحاولوا التفكك من التقليد والتطلع إلى ما هو جديد مبتكر، وحسبنا أن نجد كتابين في أوائل القرن الخامس يكتبان في التشبيهات، أحدهما كتاب أبي الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين

(١) ديوان ابن عمار ص: ٢٠٣.

(٢) شرح الطليحي في علوم البلاغة. للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني. شرحه وخزج شواهد. عماد هاشم

دويرى ط ١٤٠٢/٢هـ - ١٩٨٢م. دار الجليل بيروت ص: ١٢٠.

الكاتب، والثاني كتاب ابن الكتاني الطبيب، وكلاهما مقصور على تشبيهات الأندلسيين دون سواها. وكلما تحضر النوق زاد التفنن في طلب الصورة. وسوف تكون هذه المحاولة في المستقبل قاعدة هامة في النوق أثناء القرن الخامس والقرون التالية^(١).

وقد شهد عصر الطوائف العديد من الشعراء الذين حاولوا أن يأتوا بالجديد المبتكر في معانيهم وأخيلتهم وصورهم الشعرية. فجنان الأندلس ابن خفاجة تستهويه الطبيعة الأندلسية بكل مجالها، وتلتصق نفسه بها التصاق المحب المخلص لوصف جمالها. فتعذب ألفاظه الواصفة لها كعذوبة نسايمها. فمن تشبيهاته الطريفة المبتكرة تشبيهه للجدول والشجرة بزنانر ملتف بخصر حسناء، وذلك في معرض وصفه لشجرة أراك يقول:

| | |
|---|--|
| تَدَدَى وَأَفْلَاكُ الْكُوُوسِ تَدَارُ | وَأَرَاكَةَ صَرَبَتْ سَمَاءَ فَوْقَنَا |
| تَنَزَّرَتْ عَلَيْهِ نُجُومُهَا الْأَرْهَابُ | حَفَّتْ يَدُوحَتِهَا مَجْرَةَ جَدُولِ |
| حَسَنَاءُ شَدَّ بِخَصْرِهَا زِنَارًا ^(٢) | فَكَانَتْهَا وَكَانَ جَدُولَ مَائِهَا |

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: لعل هذا التشبيه مستوحى من وحي الأبيار التي كانت منتشرة في الأندلس، انتشارها في المشرق، وكان الشعراء يؤمنونها ليقضوا فيها أوقات اللذة والبهجة^(٣).

وهذا المثال وغيره ليس دليلاً كافياً على تحلهم تماماً من الصور المشرقية، فهم يقلدون المشاركة أحياناً. فمثلاً يقول ابن حمد يس في معرض وصفه للذيلوفر:

| | |
|--|---|
| تَفْتَحُ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَهُ زَهْرُ | وَنَيْلُوفِرٍ أَوْرَاقُهُ مُسْتَدِيرَةٌ |
| عَوَامِلُ أَرْمَاحِ أَسِنَّتِهَا حُمْرُ ^(٤) | كَمَا اعْتَرَضَتْ حُضْرُ التَّرَاسِ وَبَيْنِهَا |

(١) راجع الحلة السراء، ج ٢، ص ٢٨.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص: ٣٥١.

(٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين ط ٧ بيروت لبنان نوفمبر ١٩٩٢م. ص: ٢٦٩.

(٤) ديوان ابن حمد يس ص: ١٨٥.

ولعل ابن حمد يس في استعماله للرمح والترس متأثر بوصف السرى

الرفاء لهذه الزهرة وتشبيهها بالخنجر في قوله:

كَأَنَّهَا إِذَا زَهَتْ بِالسِّنْبَةِ أَنْطَقَهَا لِلْمُهَيِّزِ الذِّكْرِ
خَنَاجِرٍ مِنْ جَنَاجِرٍ نُزِعَتْ فَهِيَ مِنَ الْمَاءِ مِنْ دَمٍ حُمْرٍ (١)

قصيدة ابن حمد يس، وإن بدت غير متشابهة كل التشابه، إلا أنها قريبة

من صورة السرى إلى حد بعيد.

وبالإضافة إلى هذا التقليد نجد بعض الشعراء الكبار يخفون في

تشبيهاتهم. فابن خفاجة يرسم صورة منفرة أثناء حديثه عن النهر يقول:

وَأَسَابِ بِي نَهْرٍ يُعَبُّ زَوْرُقٌ فَتَحَمَلْتَنِي عَقْرَبٌ وَحَبَابٌ (٢)

ففي صدر بيته صورة مشرقة جميلة، يستريح إليها خاطر لما تضمنته

من مشهد الماء المتدافع ينزلق فيه زورق بخفة ورشاقة. ولكن لم تكن نفوسنا تهدأ

عند هذا المنظر، حتى ألقها بالإتيان بصورة العقرب والأفعى، وما يمكن أن

تثيره من صور مفزعة. إذ لا يمكن أن نتصور إنساناً تحمله حية وعقرب

وتجربان به من غير أن يقترن بتصورنا للسم والأذى، لذا فقد خالفت

صورته الثانية صورته الأولى.

ثانياً:

الإستعارة ودورها في تشكيل الصور والأخيلة:

إن الإستعارة أقوى أثراً وأعمق إيحاءً من التشبيه في بناء الصور الشعرية

ولذلك وجدت الإستعارة من التقرُّيب والمكانة مالم تجده أي أداة من أدوات

التصوير الأخرى. فهذا أرسطو يميزها عن باقي الأساليب بالتشريف: "ولكن

أعظم الأساليب حقاً هو أسلوب الإستعارة وهو آية الموهبة" (٣).

(١) ديوان السرى الرفاء. عتبت بنشره مكتبة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ، ص: ١٤١.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص: ٢٦٥.

(٣) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والتقدي، تأليف الولي محمد، ط١/١٩٩٠م، للركز الثقافي العربي، ص: ٧.

وقد كان للإستعارة مكانة كبيرة عند شعراء عصر الطوائف. فقد طلبها الشعراء في أكثر قصائدهم ميرزین عمق خيالهم، وقدرتهم على النظم الجيد من ناحية، وبيان شعورهم وانفعالهم بالأحداث من ناحية أخرى. فاستخدموها تصریحیة ومكنیة. فابن زیدون یفیض شوقاً لمحبوته فیأتي باستعارة تصریحیة ليعكس بها صورة شوقه الدائم یقول:

بِنْتُمْ وَرَبَّنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحَنَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَنًا مَأْوِينَا (١)

وأكثر ما شاع في أدب هذا العصر الذي ندرسه، هو الإتكاء على ظاهرتي التشخيص والتجسيم، فابن عمار یصور ليلة عابثة له بالسد، جمعت بينه وبين صديقه المعتمد، وسط أحضان طبيعة الأندلس الساحرة، وقد إتكا في رسم جزئیات مشهده على عناصر الطبيعة المختلفة كالنهر المشبه بالأرقام، والروض، والرياح، والنسائم، والشمس، والليل، والنجوم. مشخفاً لها تارة، ومجسماً لها تارة أخرى، لیولد أثراً حسیاً خاصاً یمكن أن یمثل أمام حس السامع، وقد توسل في سبیل ذلك بالمحور التمثیلی الإستعاری، والتشبیهی. مثل قوله: معاطف من النهر، یسناب انسیاب الأرقام، اتخذنا الروض جاراً، تزورنا هداياه، أیدی الرياح، تبلغنا أنفاسه، تسر إلینا، كأنها حواسد، كأنما حللنا مكان السر من صدر كاتم. فكل الجفن بهذه الصور الرائعة. في قوله:

| | |
|--|--|
| وَلَيْلٌ لَنَا بِالسَّدِّ بَيْنَ مَعَاطِفِ | مِنَ النَّهْرِ يَنْسَابُ انْسِيَابِ الْأَرْاقِمِ، |
| بَحْبِثُ اتَّخَذْنَا الرَّوْضَ جَاراً تَزُورُنَا | هَدَايَاهُ فِي أَيْدِي الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ، |
| تَبْلُغُنَا أَنْفَاسُهُ فَكَرْدُهَا | بِأَعْطَرِ أَنْفَاسٍ وَأَنْكَى مَنَاسِمِ، |
| تَسْرُ إِلَيْنَا نَمَّ عَنَّا كَأَنَّهَا | حَوَاسِدُ تَمْشِي بَيْنَنَا بِالنَّمَائِمِ، |
| سَقَنَّا بِهِنَّ الشَّمْسُ لِلنَّجُومِ وَمَنْ بَدَتْ | لَهُ الشَّمْسُ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ فَاجِمِ، |
| وَبِتْنَا وَلَا وَاشٍ يَحْسُ كَأَنَّهَا | حَلَلْنَا مَكَانَ السَّرِّ مِنْ صَدْرِ كَاتِمِ (٢) |

(١) ديوان ابن زيدون، ص: ١٤٢.

(٢) ديوان ابن عمار، ص: ٢١٠-٢١١.

ثالثاً:

الكناية ودورها في تشكيل الصور والأخيلة:

الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه أيضاً، وهذا يشير إلى أن الكناية تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمة^(١). وإذا كان شعراء الطوائف، قد اهتموا بالتشبيه، والإستعارة، في إبراز صورهم الشعرية، فإننا نجدهم أيضاً قد اهتموا بالكناية لما لها من مكانة كبيرة في إبراز الصورة الفنية، ولما تلعبه من دور كبير في عكس مشاعرهم وأحاسيسهم. فاستخدموا الكناية التي تكون عن صفة. كقول ابن زيدون عندما كنى عن الحزن والأسى والكآبة من جانب. وكنى عن السعادة والسرور من جانب آخر. لارتباط الحزن بالسواد، والسرور بالبياض لدى كثير من الناس، ولم يأت الشاعر بهذه الصور، إلا ليتذكر أيام أنسه وليالي غرامه:

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَّتْ سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لِيَالِينَا^(٢)

وتتراءى الصور المشرقية القديمة أمام أنظار الشعراء، فيستخدموها في كنياتهم، مثلما فعل ابن اللبانة الذي أتى بكناية في معرض حديثه عن الغزل فوصف فتاته بأنها بعيدة مهوى القرط - وهي صورة كنيته قديمة - تستلزم طول العنق، وهي كناية عن صفة الجمال يقول:

مَهْفَهْفُ الْكَشْحِ قَرِيبُ الْخَطَى بَعِيدُ مَهْوَى الْقُرْطِ طَوْعَ الْعِنَاقِ^(٣)

واستخدموا أيضاً الكناية عن موصوف كقول المعتمد في حديثه عن

الغزل:

وَلَيْلٍ بِسَدِّ النَّهْرِ لَهْوًا قَطَعَتْهُ بَدَاتِ سِوَارٍ مِثْلَ مُنْعَطِفِ الْبَدْرِ^(٤)

فقوله بذات سوار كناية عن موصوف وهي المرأة.

(١) شرح التلخيص في علوم البلاغة ص : ١٥٥.

(٢) ديوان ابن زيدون ص : ١٤٣.

(٣) شعر ابن اللبانة الثاني ص : ٦٩.

(٤) ديوان المعتمد بن عباد، ص : ٤٨.

أما الكناية عن النسبة، فإننا نلمحها في قول ابن عمار وهو ينسب مناخ

العز إلى عرصات ممدوحه المعتمد في قوله:

وَمَنْ مِثْلَ عَبَادٍ وَمَنْ مِثْلَ قَوْمِهِ
مُلُوكٌ مَنَاخُ الْعِزِّ فِي عَرَصَاتِهِمْ
لِيُوثَّ حُرُوبٍ أَوْ بُدُورٍ نَوَاسِمٍ
وَمَثْوَى الْمَعَالَى بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ (١)

رابعاً:

تراسل الحواس:

لكل حاسة من حواسنا وظيفة معينة لا تشاركها فيها الحاسة الأخرى، فالعين ترى، والأذن تسمع.. وهكذا، فإن أخذت حاسة ما وظيفة أخرى، فسمعت العين ورأت الأذن ولمس النظر، قلنا: إن الحواس قد تقارضت وظائفها (٢). وقد ألفينا الشاعر ابن حمد يس يكثر من هذا الفن في شعره، ومن ذلك قوله يصف فرساً:

كَأَنَّ لَهُ فِي أُذُنِهِ مَقْلَةً يَرَى
بِهَا الْيَوْمَ أَشْخَاصاً تَمُرُّ بِهِ غَدَاً (٣)

وهنا يعطى الشاعر السمع ما للعين.

ومن أمثلة تراسل حاسة السمع مع الشم قوله يصف خمراً:

تَزْدَادُ ضِعْفًا قُوَاهَا كُلَّمَا بَلَغَتْ
لَا يَسْمَعُ الْأَنْفُ مِنْ نَجْوَى تَارُجِهَا
بِهَا اللَّيَالِي كُدُودَ الضَّعْفِ وَالْكَبْرِ
إِلَّا دَعَاوَى تَيْنِينَ الطَّيِّبِ وَالزَّهْرِ (٤)

ولم يصنع الشاعر ذلك في الحواس وحدها، بل جعل التراسل كذلك بين

أجهزة النطق وأجهزة التفكير. فأعطى ما لا حدها للآخر حين قال:

وَأَهَا لِأَيَّامِ السَّبَابِ الَّذِي
ظَلَّ بِهِ يَحْلُمُ حَتَّى اللَّسَانِ (٥)

وهذا جانب من جوانب البراعة والقدرة الفائقة على التصوير.

(١) ديوان ابن عمار، ص: ٢١٦.

(٢) ابن حمد يس الصقلي شاعر أ. د. سعد اسماعيل شلي، دار الفكر العربي بدون تاريخ، ص: ١٨٣.

(٣) ديوان ابن حمد يس، ص: ١٤٤.

(٤) نفسه، ص: ٢٠٥.

(٥) نفسه، ص: ٥٠٧.

الفصل الثاني
اللغة والأسلوب
ويحتوي على مبحثين

المبحث الأول : اللغة
المبحث الثاني : الأسلوب

المبحث الأول

اللغة

اللغة هي أداة الفن الشعري ووسيلة إبرازه، والمحور الذي تكاد تدور حوله معظم البحوث النقدية تنظيراً وتطبيقاً، فهي تلعب الدور الأساسي في نقل التجربة الإنسانية وتوصيلها. وعلى قدر تمكن الشاعر من استغلال الإمكانيات الفكرية الكامنة في اللغة يكون نجاحه في نقل التجارب وتوصيلها. ويمكن أن يتحقق ذلك إذا كان الشاعر يملك حاسة لغوية دقيقة تجعله يقف على الألفاظ الموحية بحيث تخلق لدى المثقفين إحساساً معادلاً لذلك الإحساس الذي تقمصه أثناء عملية الإبداع الفني.

وهناك فرق كبير بين لغة الكلام العادي الذي يرمي إلى نقل الأخبار وبين لغة الشعر التي تصور الفكر. لأن لغة الشعر يجب أن تكون أقدر على التصوير، ويبدو أن طريقة تأليفها، وتنسيق ألفاظها في العبارة الشعرية، يجعلها تنفرد بذلك، وتفترق عن اللغة الأخرى التي تعنيها أساساً الصحة العقلية. وإذا أراد الشاعر أن يبدع، عليه أن يعرف أسرار تلك اللغة، ويقف على خصائصها وكيفية تركيبها.

ونقد الشعر - عندي - يعني في المحل الأول نقد الألفاظ وقدرتها على اكتشاف أعمال الشاعر وتجاربه الإنسانية والشاعر الناجح هو الذي يساعده قاموسه اللغوي على دقة المنطق، والدلالة المسددة، والتوصيل الإيجابي. وإذا حدث أن انتقد هذا القاموس أو عجزت عباراته عن التشكيل المؤثر أو قدم الفكرة على نسيجها فإن أقل ما يطلب منه أن يعود أنواجه فيبدأ من جديد يحفظ ما حفظه من قبل^(١).

وفي نقدنا العربي نرى الجاحظ الذي يعد زعيم أنصار الألفاظ وتغليبها على المعاني يقول: "إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي،

(١) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، د. عدنان قاسم ط ١/١٩٨٠م، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع (والاعلان، ص: ٧٥ - ٧٦).

والبديوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وصحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير^(١).

ومن جانب آخر نرى ابن رشيق الذي يرى ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى يقول: "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقصاً للشعر وهجنة عليه. وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ"^(٢).

ويجمل بنا - قبل أن ندير أنظارنا لدراسة اللغة عند شعراء عصر الطوائف - أن نتوه إلى أن النقاد والبلاغيين والنحويين قد تحدثوا عن معايير حسن الألفاظ، فابن سنان الخفاجي يذكر منها: تباعد مخارج الحروف وذلك: "أن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك في إن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ... وجل كلام العرب مبنى على التأليف من الحروف المتباعدة"^(٣).

وأشار النقاد أيضاً إلى أن لغة الشعر وألفاظه تختلف باختلاف الموضوعات التي يتناولها الشاعر فيقول القاضي الجرجاني: "ولا أمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزل جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والياس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس

(١) الحيوان: للمحافظ "عمرو بن بحر" تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٤٧م، ج ٢، ص: ١٣١ - ١٣٢.

(٢) المعلقة: ٢١٧/١.

(٣) سر الفصاحة، ص: ٦٠ - ٦١.

والمدام؛ فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه^(١).

وإذا مضينا نتفحص لغة الشعر في هذا العصر الذي ندرسه، فإننا نجد الشعراء يسعون في أغلب الأحيان إلى انتقاء أرق الألفاظ وأعذبها وأسهلها، ونراهم يجنحون جنوحاً ظاهراً إلى التأنق في العبارة، مثل تأنقهم في زينتهم، وما ذاك إلا بسبب البيئة الأندلسية التي وصفت بالجمال في كل شيء، في سمائها الصافية، وفي أنهارها الجارية، كل ذلك طبع نفس الأندلسي بشيء من الرقة التي كان لها أن تظهر في لغته، فلانت ألفاظه الشعرية - ولكن كل ذلك لم يمنع شبح التقليد من المثل أمامهم - أعنى تقليد المشاركة - فنراهم أحياناً يأتون بألفاظ غريبة قوية، وربما قديمة بدوية تبعاً للموضوع الذي يتناوله الشاعر. فابن حمديس مثلاً شاعر تمكن من مفردات اللغة، وأحاط بغريبها، واقتنص شواردها، ولعله كان دائب الإطلاع والإستفادة مما تيسر له من معاجم اللغة فقد حرص على تجميل ألفاظه بل وقدم دعوة لكل الشعراء لإنتقاء ألفاظهم يقول:

حَرَّرْ لِمَعْنَاكَ لَفْظاً كَيْ تَرَانِ بِهِ وَقَلِّ مِنَ الشُّعْرِ سِحْرًا أَوْ فَلَا تَقُلْ
فَالْكَحْلُ لَا يَفْتِنُ الْأَبْصَارَ مَنظَرُهُ حَتَّى يُصَيِّرَ حَشْوَ الْأَعْيُنِ النَّجْلَ^(٢)

والحق أن ابن حمد يس كان شاعراً يحرص على جزالة اللفظ، وسلامة التركيب اللغوي سائراً على درب المشاركة يستعير ألفاظهم ومعانيهم، وإن كان يلبسها في أغلب الأحيان أثواباً جديدة لتظهر في أجمل صورها. فابن بسام الذي شاهده وشافهه يقول عنه: (إنه شاعر ماهر يقرطس أغراض المعاني البديعية ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة)^(٣).

وكانت ألفاظه بصورة عامة، نفيسة حقاً، وكان حريصاً كل الحرص على

نفاستها ليضع معانيه في أصدافها فهو القائل:

(١) الوساطة بين المتنى وعصومه/ للقاضي علي بن عبدالمعز الجرحاني/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البحراوي. دار

القلم بيروت، لبنان، بلا تاريخ، ص: ٢٤.

(٢) ديوان ابن حمد يس، ص: ٤٠١.

(٣) الذخيرة، ج ٤، م ١٢، ص: ١٩٢.

زِنٌ بَدِيعَ الْكَلَامِ، وَزَنَا مُحَرَّرٌ
 وَتَكَلَّمُ بِمَا يُزِيهِنِكَ فِي الْحَفَا
 رَوْحٌ مَعْنَاكَ جِسْمُهُ مِنْكَ لَفْظٌ
 فَإِذَا مَا مَقَالَ غَيْرِكَ أَضْحَى
 مِثْلُ مَا يُوزَنُ النَّصَارُ الْمُشَجَّرَهُ
 لِي وَتَقْنَى بِهِ عِلَاءٌ وَمَفْخَرٌ
 وَعَلَى كُلِّ صُورَةٍ يَتَصَوَّرُ
 عَرَضًا فَلْيَكُنْ مَقَالَكَ جَوْهَرٌ (١)

ولكن ابن حمد يس كغيره من الشعراء لم يسلم من الوقوع في الأخطاء اللغوية والنحوية والبلاغية، وسنذكرها في موضعها.

نقول عن لغة الشعر في هذه الفترة : إن لكل غرض من أغراض الشعر ما يناسبه من الألفاظ. فشعر الغزل، ووصف الطبيعة والخمر، لا بد لكل غرض منهم من رقة الألفاظ التي تضاهي رقة النسائم العليلة، كما لا بد له من التأنق في العبارة وسلامتها، لأن هذه الأغراض وخاصة الغزل أقرب إلى الصدق الشعري منها إلى الصنعة، لأن الصنعة أقبح ما تكون في الغزل كما قال ابن رشيق: "ينبغي أن يكون حلو الألفاظ: قريب المعاني سهلاً غير كزولاً غامض، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيتار .. شفاف الجوهر، يطرب الحزين ويستخف الرصين" (٢).

وشعراء فترتنا لم يتعدوا حكم ابن رشيق على ألفاظ الغزل. فابن حمد يس :

يترك نفسه على سجيته فيختار أرق الألفاظ وأخفها وأطربها في غزله، مثلما اختار لها المرقص من البحور فمثلاً يقول:

مَلْنِي مَنْ لَا أَمْلُهُ
 رَسَاءُ يَنْفِرُ خَوْفًا
 إِنَّمَا الْحُسْنُ مَحَلٌّ
 بَعْضُهُ فِي أَوْجِهِ النَّا
 وَأَذَابَ الْقَلْبِ دَلْمُهُ
 كَلَّمَا مَا شَاهُ ظَلْمُهُ
 لَكَ أَوْ أَنْتَ مَحَلُّهُ
 سِ وَفِي وَجْهِكَ كَلْمُهُ (٣)

وبالرغم من أن ابن زيدون كان شاعراً يسير على درب المشاركة، إلا أنه كان يلبس ألفاظه - وخاصة الغزلية - ثوباً جديداً، فتبدو وكأنها تسمع منه لأول

(١) ديوان ابن حمد يس، ص : ٢٠٤.

(٢) المصنوع: ١٨٧/٢.

(٣) ديوان ابن حمد يس، ص : ٣٦٣ - ٣٦٤.

مرة وقد كان يختار ألفاظاً رقيقة جزلة، وليس أدل على جزالة ألفاظه ورقتها من قصيدته القافية. فأنت تطالع هذه القصيدة، فلا تجد إلا اللفظ الرقيق، والمعنى الأنيق. ففيها يتغنى بحبه في رحاب الطبيعة، ويتغنى بالطبيعة في رحاب حبه، حتى امتزجت عاطفة الحب عنده بنبضات الطبيعة المتعددة الألوان يقول:

إِنِّي نَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا
وَالنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ
وَالرَّوْضِ عَنْ مَائِهِ الْفِضَى مُبْتَسِمٌ
تَلْهُو بِمَا يَشْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ
وَرَدُّ تَالِقٍ فِي صَاحِي مَنَابِتِهِ
سَرَى يُنَافِحُهُ نِيلُوفَرٌ عَيْقُ
كُلُّ يَهِيحُ لَنَا نِكْرِي تَشَوُّقًا

إلى قوله:

يَوْمٌ كَأَيَّامِ كَذَابٍ لَنَا أَنْصَرَمَتْ
بِنِنَّا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سَرِاقًا (١)

فألفاظ هذه القصيدة وإن كانت متداولة، إلا أن الشاعر قد ألبسها أثواباً جديدة، ووشاها وشياً أنيقاً، والواضح في هذه القصيدة كثرة الألفاظ الطبيعية وهي: الأفق، والأرض، والنسيم، والأصيل، والروض، والزهر، والندى، والضحي، والنيلوفر، والصبح وغيرها. ولعل قدرة الشاعر تجلت في تطويعه لهذه الألفاظ لترتبط بمكنون هواه، فجعل الطبيعة هي الناطقة بحبه، وبعد ذلك يقم الشاعر لفظه "سراقاً"، التي قد تبدو من الوهلة الأولى غريبة، ولكن الشاعر عندما استخدمها إنما كان يعبر عن مشاعره الخاصة، وأحواله السيئة - أعنى أيامه التي قضاها في السجن - فهو عندما يشخص الدهر ويجعله يغفل، إنما يريد الإشارة إلى أن أيام الهناء عنده قصيرة، فما أن يغفل الدهر عنه برهة، حتى يهب يقطاً ليزج به في غياهب السجن، لذا كان لا بد له أن يترصد غفلة الزمن

(١) ديوان ابن زيدون، ص: ١٣٩ - ١٤٠.

ليسرق منه سعادته. وبذا يكون الشاعر قد طوع اللفظة لتعبر عن خواجه، وألبسها من جمال التعبير ما فقدته بمعناها الحرفي عند عامة الناس.

ولم ترق الألفاظ في غزلهم وحسب، بل رقت كذلك في وصفهم للخمر الذي جاء ممزوجاً بألفاظ الطبيعة^(١)، ولعل ألفاظ الطبيعة من أكثر الألفاظ دوراناً في شعرهم، إذ لم يتركوا لفظة إلا ونكروها في شعرهم من سماء، وبرق، ورعد ونجوم، وقطر، وندى، وبحر، وروض، وأشجار. ومن الطبيعة الحية : الأسد، والزرافة وسائر أنواع الحشرات التي ذكرناها سابقاً.

ومن ناحية أخرى نرى ألفاظهم قد قويت في شعر المديح والفخر والحماسة فمن الظواهر السياقية التي اتسمت بها لغة المديح في عصر الطوائف، تأثرها بالبيئة الأندلسية الطبيعية والحربية والثقافية التي يحيا الشاعر بين جنباتها، وكان أول ما يلتفت النظر في هذه اللغة استواؤها وبساطتها وابتعادها عن التعقيد والغموض؛ فاختلفت الألفاظ الخشنة والغريبة التي كان يستعملها قداماء الشعراء، كما كان الحال في المشرق في نفس الفترة؛ لأنها لم تعد تناسب نفسية المجتمع الجديد وذوقه ومصادر إيحائه الأدبي^(٢).

فابن عمار يحاول أن يرسم صورة مثالية للمعتضد فيقول:

أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطَرِ النَّدى وَأَلْذُ فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَّةِ الْكُرَى^(٣)

فكلمة الندى رقيقة عذبة أراد بها الشاعر السخاء والعطاء. وكلمة أذ فيها

طعم الراحة بعد أرق طويل، وهي تعطي معنى ما أوجدته أفضال الممدوح ونعمة من لذة وهدوء لبال الشاعر. وابن عمار قد وفق في اختيار اللفظتين لأنه في الأرجح كان يرمي إلى لفت نظر المعتضد إليه ليكسب رضاه.

وملاحظتنا على لغة المديح نقول عنها: إنها امتزجت بلغة وألفاظ الطبيعة

من ناحية، ومن ناحية أخرى استخدم الشعراء في مدحهم الكثير من الألفاظ التي

(١) راجع ديوان المعتضد بن عباد، ص: ٧٤.

(٢) إشيلية في القرن الخامس الهجري. دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، د. صلاح

خالص، دار الثقافة بيروت، لبنان ١٩٨١م، ص: ٢٣٢.

(٣) ديوان ابن عمار، ص: ١٩٠.

تعكس الموروث الديني، كاستخدام أسماء الأنبياء، مثل "سيدنا يوسف، وسيدنا سليمان"^(١)، كما أنهم يضمنون الفاظ القرآن الكريم ومعانيه في شعرهم كقول ابن حمد يس في مدح المعتمد واصفاً داراً له:

وَيَا حَبِذَا دَارٌ يُدُّ اللَّهُ مَسَّحَتْ
عَلَيْهَا بِتَجْدِيدِ الْبَقَاءِ فَمَا تَبَلَّى
مُقَدَّسَةٌ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِمَتُهُ
مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النَّجْلَ (٢)

واضح اقتباس الشاعر لقلوبه تعالى: "قَلَمًا أَنتَهَا نُودِي يَمْوَسِي لِي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوِي" (٣). كما استخدموا الفاظ الشيعة - كما مر بنا - واستخدم الشعراء في مدحهم الألفاظ التي تدل على إمامهم بالتاريخ ممثلة في أسماء أعلام التاريخ مثل: "كسرى، وشيرين، وقسطنطين، وهرم بن مسنان وحاتم الطائي"^(٤) وغيرهم. كما استخدموا ألفاظ الموروث الثقافي ممثلة في الأمثال العربية^(٥)، ثم توظيف ألفاظ مصطلحات العلوم في مدائحهم مثل قول إدريس بن اليمان في إحدى مدائحه مضمنا لفظتي "الفعل" و "الفاعل":

وَتَوَدُّ سَابِجَةَ الْكَوَاكِبِ أَنَهَا
لَكَ سَابِجَاتُ وَالْدُّجُونِ قَسَاطِلُهُ
تَجْرِي بِمَا مِنْهَا تَشَاءُ كَانَمَا
حَرَكَاتُهَا فِعْلٌ وَأَنْتَ الْفَاعِلُ (٦)

ولغة الغربة والحنين والشكوى عندهم رقيقة، فيأضه بكل ما تحمله من معنى الحنين إلى الأوطان. وتدل من جهة على الآلام التي يعتصمها الشاعر بين جوانحه^(٧).

أما لغة الهجاء فهي لغة بسيطة، وألفاظه يختارها الشاعر سهلة ليضمن لها الذبوع والانتشار. وقد يستخدم ألفاظا تثير الإشمئزاز^(٨).

(١) - راجع قلادة العقيان، ق ٣٠، ص: ٧١٢.

(٢) ديوان ابن حمد يس، ص: ٣٧٨، وراجع الذخيرة ج ٢ م ٣٠، ص: ٤٧٠.

(٣) سورة طه الآية: ١٢.

(٤) راجع شعر أبي عبدالله بن الحناد، ص: ٨٥، وراجع الذخيرة ج ١ م ٢٨، ص: ٤٢٩.

(٥) راجع ديوان ابن زيدون، ص: ٣٤٠.

(٦) الذخيرة، ج ٣، م ١٥، ص: ٢٢٨.

(٧) راجع مثلاً ديوان ابن حمد يس، ص: ٢٧٤، وص: ٤٣٢ وما بعدها، وراجع ديوان ابن زيدون في الشكوى، ص: ٢٤٦ وما بعدها.

(٨) راجع الذخيرة، ج ١ م ٣٥، ص: ٥٥٣.

الألفاظ الفارسية عند الشعراء:

أ/ المَهْرَجَانُ : وهي كلمة فارسية عربت قال ابن اللبانة:

بَشْرَى بِيَوْمِ الْمَهْرَجَانِ فَإِنَّهُ
يَوْمٌ عَلَيْهِ مِنْ اِحْتِفَالِكَ رَوْنَقٌ^(١)

ب/ النَّيْرُوزُ: وقد استخدم الشعراء لفظة "النيروز" يعنى بداية عيد الربيع-

يقول ابن اللبانة:

يَا كَوَكْبُ النَّيْرُوزِ فِي بَهْجَةٍ
أَسْنَى مِنَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ اللَّيَاحِ^(٢)

المعجم اللغوي عند الشعراء:

من تمام الفائدة أن نذكر ما يعرف بالمعجم اللغوي عند الشعراء، وسأشير إلى بعض منهم. يقول صاحب ديوان الحصري القيرواني: "الرجل - أي الحصري - يملك ناصية اللغة، ويختزن في حافظته ثروة ضخمة منها .. وقد تعثر كثيراً في شعره على ألفاظ حوشية غريبة حتى تظن أنه يتكلف ذلك. ولكن اطلاعك على شعره يمكنك من تخطئة هذا الظن. فالرجل لا يعتمد ولا يتكلف إلا في بعض ألوان التورية والجناس، أما الألفاظ الغريبة المنثورة في شعره فهي بالنسبة إلى اتساع مادته اللغوية ألفاظ مأنوسة لا غرابة فيها - مثل ألفاظ: البرجيس - هو نجم المشتري -، والفليز - النحاس - والأجز - البخيل - ونشصت - المرأة نشزت، والهيف - الخصب وحسن الحال -، والمرغوس - المتعم ... الخ^(٣) ومعجم ابن عبدون يحوى ألفاظ الموروث الثقافي خاصة في

رثائه، فيعدد أسماء الملوك القدماء مثل: ابن ساسان، ويونان، وكليب، ومهلل، والضليل، وحجر كما يذكر طسم وعاد، وجرهم، وسبا .. الخ.

(١) شعر ابن اللبانة السابق، ص: ٧٢.

(٢) نفسه، ص: ٣٦.

(٣) أبو الحسن الحصري القيرواني عصره - حياته - رسالته، ص: ٨٣.

وابن حمديس يكثر من ألفاظ الداء والدواء، والمرض والطبيب^(١) كما تدور في شعره ألفاظ الصبا والديور والشمال والجنوب والذمر "الشجاع" - بصفة خاصة - والكمى والقرم "السيد أو الفحل"، والسبلاه "الطويلة"، والطرف "الكريم من الخيل" والنقس "المداد" والفرصاد "الصبغ الاحمر" والحيازم "الحناجر" والمادى "الدرع" والطفى "الاعناق"^(٢).

وابن الحداد كان يميل إلى الغريب من الألفاظ فيهمز ما لا يهمز من أحرف العلة، متصرفاً في اللغة كما هو الحال في كلمة "مأقئ" في قوله:

وَأَلَّ الْهَوَىٰ جُرْجِي وَكَانَ زِمَاؤُهُمْ كُمُوعٌ هَوَامٍ وَالْجُرُوحُ مَأَقِي^(٣)

ويكثر من ألفاظ العلوم النحوية كالمعرفات والضمائر. وعلم العروض كالدوائر والبسيط، والوافر، كما يكثر بشكل خاص من ألفاظ الدين المسيحي فيذكر: المسيح، والإنجيل - والقس، والكنايس، والرهبان، والصلبان. والفاظ الدين الإسلامي السنة - الفرض - الصيام - الحجيج - عرفات - منى - مكة - مدين - شعيب.

ولعلمه بالرياضيات يذكر الأعداد: الجذر - الربع - الخمس - العشر - النصف ... الخ.

الأخطاء اللغوية والبلاغية عند الشعراء:

وشعراء الطوائف مثلهم مثل باقي الشعراء لابد لهم من الوقوع في الأخطاء، فابن زيدون ينزلق في بعض الأخطاء اللغوية والمعنوية ويخرج عن المألوف أحياناً، ومنها حذفه "ذا" بعد هاء التثنية في قوله:

فَهَا أَنَا قَدْ ثَمَلْتُ مِنَ الْأَيْدِي إِذِ اتَّصَلَتْ أَغْتِبَائِي فِي اصْطَبَائِي^(٤)

(١) ديوان ابن حمديس، ص: ٢.

(٢) ابن حمديس المصطفى شاعراً، ص: ١٨٣.

(٣) شعر أبي عبد الله بن الحناد، ص: ٣٠.

(٤) ديوان ابن زيدون، ص: ٤٣٦.

والأفصح "هأنذا" ومثله فعل ابن حمد يس^(١).

ومن الأخطاء قول ابن حمد يس عن الموت:

وَرَيْتَمَا سَالَ بَعْضُ النَّفُوسِ وَبَعْضٌ لَهَا بِالْمَنَى مُشْتَغَلٌ^(٢)
والمشهور "ربما".

ومن الأخطاء البلاغية عنده "الحشو" كقوله يصف العقرب:

وَذَاتِ خَلْقِي تَرْيِبُ الْخَلْقِ صُورَتُهُ فَكُلُّ نَاطِرٍ عَيْنٍ كَيْسَ يَأْلَفُهُ^(٣)
فكلمة "عين أو ناظر" حشو.

(١) ديوان ابن حمد يس، ص: ٢٢٢.

(٢) نفسه، ص: ٤٠٢.

(٣) نفسه، ص: ٣١٦.

المبحث الثاني الأسلوب

الأسلوب هو طريقة التعبير، ولكل شاعر طريقته الخاصة في عرض أفكاره. وقبل أن نعرض أسلوب الشعراء في عصر الطوائف نشير إلى اتجاهين، يمكن أن نستخلص منهما أساليب الشعراء بسهولة. وأعني بالاتجاهين - الاتجاه المحدث، والاتجاه المحافظ الجديد، والحق أن شعر الطوائف عامة: لم يعرف غير هذين الاتجاهين .. وأن الشعراء لم يلتزموا باتجاه واحد، بل تجد للشاعر الواحد منهم بعض قصائد تلوح فيها صفات وخصائص أحد الاتجاهين الشعريين. في حين تجد بعضها الآخر ينضوي تحت الاتجاه الشعري الثاني فيكون الشاعر بذلك قد مارس النظم في الاتجاهين الشعريين المعروفين في وقته. وقد كان التفريق دائماً حسب الموضوع المعالج، فهناك موضوع وجود بطريقة المحدثين، وآخر وجود بطريقة المحافظين^(١).

الاتجاه المحدث:

لقد أثرت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر الطوائف، فقد كان التنافس السياسي بين الأمراء سبباً في استقطاب الشعراء. فشجعوا الأدب وأباحوا الكثير من الحريات. ثم كان لطبيعة الأندلس الجميلة دوراً في رقة قرائح الشعراء، أضف إلى ذلك شيوع العلوم بمختلف أنواعها، كل هذه العوامل مجتمعة كانت أرضاً خصبة لنمو وترعرع الاتجاه المحدث، وقد اتسم هذا الاتجاه عندهم بعدة أساليب منها:

(١) الشعر في ظل بني عباد، ص: ٢١٢-٢١٣.

١/ الأسلوب السهل:

وقد تميز هذا الأسلوب بالسلامة والسهولة والرقّة، والميل إلى التفصيل، فأضحى يستوحى مضامينه من أجواء حضرية، ويبعد عن الآفاق البدوية الصحراوية فرقت ألفاظه وسهلت تعابيره المفصلة لجزيئات الصورة التي يعكسها الشاعر.

وقد كثر أنصار هذا الأسلوب، وهذه الكثرة راجعة إلى تغير المجتمع الأندلسي من شعب يستعمل لغة الآباء والأجداد الأقدمين، إلى مجموعة من الأجناس الذين يتكلمون اللغة في سهولة ويسر، وفي صعوبة أحياناً لمجموعة أخرى، فأصبح الشاعر يخاطب هؤلاء وأولئك، وهم جميعاً يشاركونه في الحركة الأدبية. فمثل هذا المجتمع لا يميل كثيراً إلى الأساليب القوية. فانتشر بذلك الأسلوب السهل لمشاركة غير العرب في الحركة الأدبية. وظهرت فنون من الشعر لا تحتل الأساليب المصقّلة القوية، كوصف الطبيعة، والمجون، وغيرهما، وأصبح الغرض الواحد يختلف أسلوبه تبعاً لإختلاف حال السامعين، فمثلاً نجد فرقاً بين غزل يقوله ابن حمد يس في مقدمة يمدح بها المعتمد في قوله:

| | |
|---|---|
| لَمْ نُؤْتْ لَيْلَتَنَا الْغَرَاءَ مِنْ قِصْرِ | لَوْلَا وَصَالُ ذَوَاتِ الدَّلِّ وَالخَفْرِ |
| السَّافِرَاتُ شُمُوساً كُلَّمَا أَنْتَقَبَتْ | تَبَرَّجَتْ مُشَبَّهَاتُ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ |
| مِنْ كُلِّ حَوْرَاءٍ لَمْ تُخَذَلْ لَوَاحِظُهَا | فِي الْفَتَكِ مَذْ نَصَرَتْهَا فَتَكَةُ النَّظْرِ (١) |

وبين غزل يقوله في مجلس أنس:

| | |
|--|---|
| أَذَابِلُ النَّرْجِسِ فِي مَقْلَبَتَيْكَ | أَمْ نَاضِرُ الْوَرْدِ عَلَى وَجْنَتَيْكَ |
| لَا تُتَكْرَى أَنَّكَ حَوْرِيَّةٌ | فَنَفْحَةُ الْجَنَّةِ نَمَتْ عَلَيْكَ |
| وَغَرَّبَا صَدْعِيكَ مِنْ عَنَبٍ | سَهْوُهَا وَيْلَاهُ مِنْ عَقْرَبِيكَ (٢) |

وواضح أن أسلوب الغزل في القصيدة الأولى قوياً جزلاً لإرتباطه بقصيدة مدح يقال لملك، أما القصيدة الثانية فلا تجتمل الجزالة لأنها يقال في مجلس أنس يجتمع فيه الناس للترويح عن أنفسهم بطلب الملهيات بين رقص المغنيات.

(١) ديوان ابن حمد يس، ص: ٢٠٤.

(٢) نفسه، ص: ٣٤٥.

وغشى هذا الأسلوب وصف الطبيعة، عندما أقبل الشعراء على وصف طبيعتهم وصفاً دقيقاً مفصلاً لكل جزئياتها، واتخذوها أرضاً ثابتة للولوج إلى مختلف أغراض الشعر، بل ومزجوها به أحياناً، كل ذلك في أسلوب ميسر مهضوم وفي كتاب "البديع في وصف الربيع" قصائد كثيرة لوصف الطبيعة. وأيضاً غشى هذا الأسلوب وصف مجالس شرب الخمر والغناء ورسم الشعراء به لوحات شعرية غاية في رقة اللفظ وعذوبة المعنى، كذلك اللوحة التي رسمها خيال ابن حمديس في تفصيل وتدقيق مستخدماً أسلوباً قصصياً في قصيدة طويلة نذكر منها قوله:

| | |
|--------------------------------------|--|
| وَرَاهِبَةٌ أَغْلَقَتْ دَيْرَهَا | فَكُنَّا مَعَ اللَّيْلِ زَوَارَهَا |
| هَدَانَا إِلَيْهَا سَدَا قَهْوَةٌ | تُذْبِحُ لِإِنْفِكَ أَسْرَارَهَا |
| فَمَا فَازَ بِالْمَشْكِ إِلَّا فَتَى | تَيَمَّمُ دَارِينَ أَوْ دَارَهَا |
| وَقَدْ سَكَنَتْ حَرَكَاتِ الْأَسَى | فَيَانُ تُحَرِّكُ أَوْتَارَهَا |
| فَهَذِي تُعَانِقُ لِي عُوْدَهَا | وَتِلْكَ تُقَبِّلُ مِزْمَارَهَا ^(١) |

وكذلك غشى هذا الأسلوب شعر الغزل الشاذ الذي أفجش فيه بعض الشعراء، وتجاوزوا فيه حد الوقار^(٢)، وكذلك غشى الأسلوب السهل شعر الزهد والتقوى وهو الأسلوب المناقض لتيار المجون^(٣).

٢ / أسلوب الترويح عن النفس:

وهو من الأساليب المحدثة عندهم، ولعل هذا الأسلوب كان متصلاً بما عناه الشعراء من فراغ عريض، فلبأوا إلى الألغاز والمطيرات والتلاعب بالألفاظ، وقد كان أسلوب الألغاز وخاصة المطيرات من اختصاص شاعرين هما المعتمد ابن عباد، وابن زيدون^(٤). ولعل هذا الفن قد قبر معهما وهو أسلوب استخدامهما لتزجية أوقات فراغهما.

(١) ديوان ابن حمديس، ص: ١٨١-١٨٢.

(٢) راجع الفحوة، ج ٢ م ٦، ص: ٩١.

(٣) راجع ديوان أبي إسحاق الألبيري، ص: ٥٧.

(٤) راجع مثلاً ديوان المعتمد، ص: ١١١ وما بعدها، وراجع ديوان ابن زيدون، ص: ٥٩٤ وما بعدها.

٣/ البعد عن التفلسف:

ومن أساليب الشعر - في هذا العصر الذي ندرسه - هو الوضوح والبعد عن التفلسف الذي يغطي بظلاله مفهوم العبارة، فيغم معناها، ويبهم مراد الشاعر منها، ففي كل الأمثلة التي مرت بنا لم نجد للفلسفة مكاناً فيها، اللهم إلا ما كان من أمر ابن وهبون المرسي، والقليل جداً من الشعراء.

وليس معنى هذا أن الشعر في الأندلس كان سطحياً لا عمق فيه مثلما قال الدكتور جودت الركابي: "وقد ظلت معاني الشعر الأندلسي سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعاني الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولإتصافهم إلى اللهو والحياة السهلة^(١). فالركابي يقرن الشعر بالفلسفة مع أنه ليس من المفروض على الشاعر أن يكون فيلسوفاً حتى يرقى شعره ليحوز على تقدير الناس، كما أن الحكمة ليست دائماً ما يسعى إليه الشاعر، وإنما قياس الشعر بصدق التجربة، وسعة الخيال، وجمال الأسلوب. ولم يركن الشعر الأندلسي - وخاصة في عهد الطوائف - إلى حياة اللهو مستأنساً بها بل وجد الشاعر نفسه أمام مزيج من الأجناس، فكان لابد له من طرح فكرته بأسلوب يفهمه كل الناس.

ومع ذلك لم يخل هذا العصر من الشعراء والأدباء الفلاسفة كابن وهبون المرسي، وابن حزم الظاهري، وأبو الوليد الباجي وغيرهم.

ب/ الإتجاه المحافظ الجديد:

كان إلى جانب الإتجاه المحدث، إتجاه آخر يضاهيه، بل وقد يتفوق عليه في كثرة الإنتاج، وفي إقبال الشعراء عليه، وهذا الإتجاه هو: الإتجاه المحافظ الجديد^(٢).

(١) في الأدب الأندلسي، ص: ٥٩.

(٢) الشعر في ظل بني عماد، ص: ٢٢١.

قلنا: إن الشعراء لم يلتزموا في أسلوبهم الشعري بمنهج واحد بل نظموا في الإتجاه المحدث، والإتجاه المحافظ الجديد، أما كثرة إقبالهم على الإتجاه الثاني، فقد كان له أسبابه منها أن "الثقافة العربية التي أخذ الشعراء .. بها أنفسهم كانت في الغالب ثقافة عربية قديمة يستوعبها الأديب ويتمثلها ويهضمها فتؤثر على وجدانه وذوقه. وأيضاً انتشار دواوين وأشعار أعلام هذا الإتجاه من المشاركة مثل أبو تمام والبحتري والمعري، ومنها نمو الصراع بين العرب المسلمين والأعاجم النصاري .. فكان هذا الموقف السياسي والديني يدعو إلى التمسك في بعض المواقف بالتقاليد العربية الموروثة، ومنها ما دار بين ملوك الطوائف من خصومات .. فلم يجد الشاعر في مثل تلك المواقف ما يناسب المقام ويثير الإهتمام غير منهج القصيدة التقليدية وألفاظها الجزلة"^(١).

ولذلك فقد كان معظم شعر المديح والحماسة، ووصف المعارك الحربية يتسم بمميزات الإتجاه المحافظ الجديد.

وقد تميز شعر هذا الإتجاه بالمحافظة على نمط القصيدة العربية القديمة في منهجها وهيكلها الخارجي، ومن حيث فخامة موسيقاها وجزالة لغتها .. واتسم بالتجديد من حيث مما شأنه للتطور ومجاراته لروح العصر والبيئة، فقد عبر عنها وعكس مظاهرها، وتمازج معها بعمق وشمول، فجاء بروحه ومحتواه وكثير من صورته جديداً وطريفاً مبتكراً، مع تجميل في الأسلوب وتأنق في التعبير وتتميق في العبارة مما تضيفه عليه مجملات البلاغة ومحسنات الكلام من طباق وجناس ومقابلة^(٢).

وهذا الأسلوب الذي يسير في الإتجاه القديم الممتزج بالإتجاه الجديد كان شائعاً في شعرهم. فمن حيث تجميل الأسلوب وتتميق عباراته وتحسينها بألوان المحسنات اللفظية أو المعنوية قول ابن زيدون في مدح المعتضد:

هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلِّهِ
تُكْفُ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصَرَّفُ

(١) الشعر في ظل بني عماد، ص: ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) نفسه، ص: ٢٢٣.

وَيَحْمَدُ مَشْعَاهُ حَسَامٌ وَمُضْحَفٌ يَبِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِثْبَرٌ
 وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطِرُ يَذَلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خَيْفَةً بِأَسِيهِ
 وَجَنَّةٌ عَدْنٌ لِلْمُطْبِعِينَ تَزَلْفُ جَحِيمٌ لِعَاضِيَةِ يَسْبُ وَقُوْدُهُ
 كَهَامٌ وَسَمَلٌ الْمَجْدُ فِيهَا مُؤَلَّفٌ (١) مَحَاسِنُ عَزْبُ الذَّمُّ عَنْهَا مُفَلَّلٌ

لقد حاول ابن زيدون رسم صورة مثالية للمعتضد فاستخدم الأسلوب القوي المصقول، والألفاظ الجزلة، ثم وشى صورة فجانس بين لفظتي "صروف" و"تصرف" جناساً ناقصاً، وقام البيت الرابع على حسن المقابلة. فيتضح من هذا مدى مقدار اهتمام شعراء هذا الإتجاه بتوشية الأسلوب، وإضفاء البهرجة عليه بتطعيمه بالمحسنات البيانية والبديعية، وهذا جانب من جوانب الأخذ بطريقة المجددين التي تصرف جهداً إلى العناية بالصياغة.

ج/ الصدق:

وأعنى بالصدق، الصدق الشعوري الذي يسود القصيدة، وفي هذا الأسلوب يعمد الشاعر إلى وصف أشياء تختلج في نفسه ولها ارتباط حقيقي ببيئته، وذلك مثل تصويرهم للنكبات التي حدثت لمدنهم وممالكهم الزائلة. وقد وقفنا على نماجه.

د/ الاتكاء على التراث القديم:

لقد كان عصر الطوائف عصر علم وأدب، وكان الأدباء مطلعين على تراثهم القديم وقد تناولوا في شعرهم شتى أنواع العلوم والمعارف الموروثة، ومزجوها في شعرهم وهي موروثة لغوية، ودينية، وتاريخية. فقد ذكروا في شعرهم العلوم اللسانية والعلوم الدنيوية: كالتاريخ، والجغرافيا، والفلك، والطب،

(١) ديوان ابن زيدون، ص: ٤٨٦ وما بعدها.

والكيمياء^(١)، وربما كان لبعض الشعراء اشتغال بعلم الكلام أو كان على صلة به، وهذا ما وجدناه في أساليب بعضهم كقول ابن زيدون في حديثه مع محبوبته:

كَأَنَّكَ نَاطِرَتِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَأُوتِيَتْ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَلْعِ^(٢)

واتكاء الشعراء على الموروث القديم جعل بعضهم يضمن أشعاره بعض أشعار أعلام الشعر المشرقي، مثلما فعل ابن عبدون عندما سطر قصيدة خاطب بها المتوكل وضمن اعجاز قصيدته لامية امرئ القيس فقال:

أَيُّ سَامِيًّا مِنْ جَانِبَيْهِ إِلَى الْعَلَا "سَمَوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالٍ عَلَى حَالٍ"^(٣)

فقد قال امرؤ القيس:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا "سَمَوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالٍ عَلَى حَالٍ"^(٤)

وهذا الإتكاء على الشعر المشرقي جعل بعض الدارسين يقول بعدم استقلالية الشعر الأندلسي عن الشعر المشرقي مثلما قال أحدهم: "أياً ما كان، فشعراء الأندلس في نظرنا لم يفلحوا كثيراً في استقلالهم عن المشرق، وابتكارهم وتجديدهم" ويقول: "لو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة أهو مشرق أم أندلسي، لم نكد نحكم حكماً صحيحاً على الشاعر أغربي هو أم مشرقياً. ولذلك كثيراً ما تتسبب بعض الأبيات إلى أندلسي، وينسبها بعينها بعضهم إلى مشرقياً"^(٥). ولكن هذا الرأي - في نظرنا - ينطبق على الشعر الذي قيل في العهود الأولى في الأندلس منذ الفتح إلى عصر الخلافة، فقد كان الشعراء في تلك العصور متمسكين بتراثهم القديم، وكان شعرهم طبق الأصل من الشعر المشرقي. أما في عصر الطوائف وما تلاه من عصور، فقد تميزت وظهرت فيه شخصية الشاعر الأندلسي جلية واضحة خاصة في شعر الطبيعة. فقد كانت طبيعتهم

(١) راجع ديوان ابن شرف القيرواني، ص: ٨٥، وشعر ابن اللبانة الثاني، ص: ١٧، وديوان للحد من: ٨٠.

(٢) ديوان ابن زيدون، ص: ١٨٨.

(٣) ديوان ابن عبدون، ص: ١٧١.

(٤) شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقبة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام. ص: ١٤٠. تأليف حسن السنوي للكعبة التجارية الكبرى بدون تاريخ.

(٥) ظهر الإسلام. تأليف. أحمد أمين ط ٣. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢م، ج ٣، ص: ١٠٤-١٠٥.

ملهمة لهم، وهي طبيعة بلا شك أجمل من طبيعة المشاركة .. أضف إلى ذلك ما قيل في شعر الحنين إلى الأوطان، وشعر رثاء المدن والممالك الزائلة. يكفي الإطلاع على هذه الأغراض لمعرفة ابتكارهم وتجديدهم في الشعر.

الفصل الثالث

الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة

الفصل الثالث

الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيد

تعتبر قضية الوحدة الموضوعية والعضوية، من أكثر القضايا التي أثارت جدلاً كبيراً بين النقاد الذين انقسموا إلى عدة فرق، وسطروا العديد من النظريات في هذه القضية^(١)، وبما أن المقام لا يسعنا أن نتبع آراء النقاد في هذه القضية، إلا أننا نرى أن القصيدة التي توصف بالوحدة الموضوعية والعضوية هي تلك القصيدة ذات الموضوع الواحد المترابطة الأجزاء، والتي يؤدي فيها كل جزء وظيفته ويتلاحم مع ما بعده، فتكتمل صورة القصيدة بتوالي الأجزاء وتلاحمها، وإذا أسقطنا أي بيت منها اخلت نظامها.

وإذا رجعنا تطبيق هذه القضية على شعراء عصر الطوائف، فإننا نجد أشعارهم قد جاءت على ثلاثة أقسام : قسم انعدمت فيه الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية، وقسم حظى بالوحدة الموضوعية دون الوحدة العضوية، أما القسم الثالث، فقد تحققت فيه الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية معاً.

أما القسم الأول، وهو الذي لم تتوفر فيه الوحدة الموضوعية ولا العضوية، فهو ذلك الشعر الذي مثله أغلب شعرهم، والذي تطرقنا لنماذج منه في دراستنا للتخلص. ففي هذا القسم تكونت القصيدة من مقدمة، وموضوع، وخاتمة. وأما القسم الذي تحققت فيه وحدة الموضوع دون الوحدة العضوية، فإننا نلمس ذلك في قصائد الرثاء لأنه لا يحدب فيها مقدمات غزلية كانت أم طبيعية،

(١) للتوسع في هذه القضية راجع قضايا النقد الأدبي. د. بدوي طبانة ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١م، ص: ١٥ وما بعدها. وراجع الأصول التراثية في نقد الشعر العربي، المعاصر ص: ١٩٩ وما بعدها. وراجع حديث الأربعاء د. طه حسين ط دار المعارف، مصر ١/٣١-٣٢- وراجع فصول من النقد عند المقاد. محمد خليفة التونسي، ط مكتبة الخانجي، مصر ص: ٧٩. وراجع ما قاله الدكتور شوقي ضيف عن وحدة القصيدة في كتابه في النقد الأدبي ط دار المعارف، مصر ١٩٦٢م ص: ١٥٣-١٥٤ وراجع النقد الأدبي الحديث. د. محمد غنيمي هلال ط ٣ دار الثقافة بيروت - لبنان ١٩٧٣م، ص: ٢١٤ وما بعدها وراجع نظرية المعنى في النقد العربي. د. مصطفى ناصف ط دار القلم ١٩٦٥م، ص: ١٣١-١٣٢، وراجع النقد والنقاد المعاصرون. د. محمد منور ط مكتبة النهضة مصر بلون تاريخ ص: ١١٣.

وأيضاً نجد وحدة الموضوع في قصائد الغزل، وفي الوصف الخالص للطبيعة، ووجدناها أيضاً في المدح، كذلك القصيدة التي سطرها ابن زيدون في تهنئة المعتمد بعد عودته منتصراً في إحدى الحروب. فقد بدأ ابن زيدون قصيدته بون مقدمة بغزل أو بغيره لأن قصائد التهنة - كما أسلفنا - لا تحتل التقديم، لذا استهلها الشاعر بوصف ظفر ممدوحه، ومشاركة الناس له فرحة النصر، وحق لمدوحه أن يتفياً ظل السعد، وأن يجنى الأمانى. ثم يذكر نجم البرجيس - وهو نجم المشتري - طلع ليبين فآله الحسن لأن هذا النجم كان طالعه سعد عند المنجمين يقول:

| | |
|--|--|
| أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرِ | وَاجْتَلِ التَّائِبِدَ فِي أَهْبَى الصُّورِ |
| وَتَقِيًّا ظِلَّ سَعْدٍ، تَجْتَبِي | فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمُنَى أَحْلَى النَّمْرِ |
| وَرِدِ الصُّبْحِ فَكُمْ مُسْتَوْجِسِ | غَرَضٍ مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدْرِ |
| كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشِ نَدِ | عَطْرِ الْأَصَالِ وَضَاحِ الْبُكَرِ |
| كُلَّمَا شَاءَ تَأْتِي أَنْ يَرِي | خُلُقَ الْبَرْجِيسِ فِي خَلْقِ الْقَمَرِ |

ثم يستمر في مدحه إلى أن يقول:

تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ عَنَّا كَمَا
ضَحِكَ الرَّوْضَةُ عَنْ ثَغْرِ الزَّهْرِ (١)

والملاحظ أن هذه القصيدة منذ بدايتها طالعتنا صورة المعتمد إلى آخر بيت فيها، وهذا ما جعلنا نحكم بوحدة موضوعها.

أما عن الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة، فإننا نلمسها أكثر في شعر الزهد والتصوف، ويمكن الوقوف على أكثر من قصيدة في ديوان أبي اسحاق الالبيري. وإيضاً نلتقي بالوحدة العضوية في تأملات الشعراء في الطبيعة واستخلاص العبر منها - مثلما فعل ابن خفاجة عندما نظر إلى القمر - وجاء في

ديوانه تمهيد لهذه القصيدة - قال: "... وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجعل يطرق في معنى كسوفه وإقماره، وعلّة إهلاله تارة وسراره، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره معتبراً (٢) فقال الشاعر وقد آمن بأن الإنسان

(١) ديوان ابن زيدون، ص: ٥١٤ وما بعدها.

(٢) ديوان ابن خفاجة، ص: ١٣٠.

مغادر - مهما طالبت به الحياة - ودار البلى تجمع الأحياء في القبور شباباً، وأصدقَاء، و أصحاباً وقراناً، فالكل صائر إلى التراب إلى حيث الحشر والجزاء، وهذه الحقيقة أطال عندها الوقوف، تأملها في قرص القمر، فجاءت تجربته الشعرية في وصف القمر متلاحمة مترابطة. فأحاسيس الشاعر ومشاعره، وخياله العميق كل ذلك تجسد في قصيدته التي صدرها بقوله:

لَقَدْ أَصَحَّتْ إِلَى نَجْوَاكَ مِنْ قَمَرٍ وَبِتُّ أُذِلِّجُ بَيْنَ الْوَعَى وَالنَّظْرِ

ويسبغ الشاعر على مشهد القمر من خياله الشيء الكثير، فهو بعد أن تأمل روعة القمر وملاً بصره من حسنه، تمنى أن يملأ آذانه بحديثه ومحاورته يقول:

وَقَدْ مَلَأَتْ سَوَادَ الْعَيْنِ مِنْ وَضْحٍ فَفَرَطِ السَّمْعِ فَرَطَ الْأَنْسِ مِنْ سَمْرِ

فَلَوْ جَمَعْتَ إِلَى حُسْنِ مُحَاوَرَةٍ حُزَّتِ الْجَمَالَيْنِ مِنْ خُبْرٍ وَمِنْ خُبْرِ

لكنه لا يملك إلا أن يجد في صمته عظة ما وراءها عظة، فالقمر في اختلاف أحواله، يلقنه درس الحياة، فهو يبدأ هلالاً، ثم يستوى بدرأ، ويتناقص حتى ينتهي بالمحاق، ويرتقي طوراً وينحدر آخر، فمثله في ذلك مثل الإنسان يبدأ رحلته نطفة فعلاقة، فمضغة مخلقة، فطفلاً فصبياً ثم شاباً ورجلاً مكتمل الرجولة، - كالقمر في ليلة تمامه -، ثم يمضي في التقهقر والإنحدار إلى الموت والفناء. فكل الناس المبصرون يرون القمر، لكن ليس جميعهم يتفكر فيه ويتعظ بأحواله، فهم كما قال ابن خفاجة: أصناف، معرض لاه، وملتفت راع، وذاهل ناس، ونبيه مذكر:

وَإِنْ صَمَّتْ فِي مَرَاكٍ لِي عِظَةٌ قَدْ أَفْصَحَتْ لِي عَنْهَا أَلْسُنُ الْعَبْرِ

تَمَرُّ مِنْ نَاقِصِ حَوْرٍ وَمُكْتَمَلِ كَوْرٍ، وَمِنْ مُرْتَقٍ طَوْرٍ وَمُنْحَدِرِ

وَالنَّاسُ مِنْ مُعْرِضٍ يُلْهَى وَمُلْتَفِتٍ يَرْعَى وَمِنْ ذَاهِلٍ يَنْسَى وَمَذْكَرِ

تَلْهُو بِسَاحَاتِ أَقْوَامٍ تُحَدِّثُكَ وَقَدْ مَضَوْا فَقَضَوْا أَنَا عَلَى الْأَنْثَرِ

ثم يختم قصيدته بالشجو والأنين والبكاء، لأن الحزن الدفين للهو الناس وعينهم، وعدم تدبرهم لحواقب الأمور، يفجر عين الماء في الحجر يقول:

فَإِنْ بَكَيتُ وَقَدْ يَبْكِي الْجَلِيدُ فَعَنُ شَجْرٌ يُفَجِّرُ عَيْنَ الْمَاءِ فِي الْحَجَرِ (١)
وواضح أن القصيدة قد جاءت أبياتها متلاحمة، يسودها جو واحد أوجده
الشاعر بتأملاته في الكون، وقد أعانه خياله الخصب على صياغة هذه القصيدة
التي جاءت كالجسد الواحد لكل عضو فيه وظيفته.

وقد علق الدكتور منجد على هذه القصيدة وقصيدة أخرى للشاعر نفسه
وهي قصيدة "الجبل" وقال عنهما : "إنهما نفحتان إيمائيتان ونسمتان روحائيتان" (٢).

(١) ديوان ابن خفاجة ص : ١٣٠ - ١٣١.

(٢) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأنثلي ص : ٥٠١.

الفصل الرابع

الموسيقا والأوزان والقوافي

ويحتوى على مبحثين

المبحث الأول: الموسيقا الخارجية

المبحث الثاني: الموسيقا الداخلية

الفصل الرابع الموسيقا والأوزان والقوافي

أولاً: الموسيقا الخارجية:

عنى نقاد الشعر في الآداب العالمية - قديماً وحديثاً - بموسيقى الشعر من حيث أنها عنصر أصيل في البناء الشعري، والشعر كلام له زخرفة موسيقية وهذه الزخرفة في رأي الدكتور عدنان قاسم، لا تعنى الوزن إطلاقاً، وإنما تعنى ما أسماه بالحيل النغمية التي تعتمد على مثل التكرار والمزاوجة والتنسيق والتآلف اللفظي أو تنافره ونحو ذلك^(١).

وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه^(٢).

وأغلب شعراء - هذا العصر الذي ندرسه - لم تصلنا دواوينهم، ووجدنا شعرهم منشوراً في كتب التراجم ما بين مقطوعة قصيرة، أو قصيدة إلى ثلاث قصائد، أو تزيد بقليل. لذا فإننا نكتفي بدراسة موسيقا الدواوين التي بين أيدينا ونسجل ملاحظتنا على الموسيقا الشعرية عندهم. ومن أهم هذه الملاحظات:

أولاً: أن البحور التي نظم عليها الشعراء شعرهم بلغت في مجملها إثني عشر بحراً، وأقلها ثمانية بحور، عدا مجزوءات بعض البحور كالكامل، والبسيط، والرجز، والخفيف، والوافر، والمتقارب، والرمل.

ثانياً: وبعد استقصاء كامل للبحور الشعرية التي نظموا عليها شعرهم، يمكننا أن نقرر مطمئنين أن بحر الطويل استغرق أغلب شعرهم، ونال حظاً وافراً من الشيوع والإستعمال. ثم يليه البحر الكامل، ثم البسيط، فالمتقارب، والسريع،

(١) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر ص: ١٣٥.

(٢) عبار الشعر ص: ١٥.

والوافر، ثم بعد ذلك الخفيف، والرجز، والمنسرح، والرمل، والهزج، والمجتث على الترتيب.

ومن هذا نخلص إلى أن أغلب الشعراء قد ساروا في موسيقاهم الشعرية على نهج الشعراء القدامى في ركوبهم البحور الفخمة: الطويل - الكامل - البسيط، المتقارب، وهي البحور الأكثر دوراً في الشعر العربي القديم وأهملوا بحوراً بعينها وهي: المقتضب، المتدارك، والمضارع. وهي أيضاً من البحور التي أهملها الشعر القديم. فقد أهملها ابن عمار، وابن اللبانة، وابن الحداد وغيرهم.

أما الشاعر ابن زيدون فقد قال عنه الأستاذ على عبدالعظيم: "إنه يجيد الإنشاد والترجيع .. وشعره التقليدي غير متنوع الأوزان فإن ٧٥% من شعره في المديح تستغرقها ثلاثة بحور هي: الطويل، والكامل، والمتقارب، وشعره في الرثاء تستغرقه ثلاثة بحور نصيب الطويل منها ٨٠%.

وقد قال الأستاذ على عبدالعظيم أن بحر الطويل، وزميله البسيط والمتقارب يصلح كل منهما للأهداف التالية:

أ. الشعر الذي تتغلب فيه الفكرة على العاطفة فتهدئها وتجعلها تنساب في موجات متسقة غير متدفقة ولا صاخبة.

ب. الشعر التقليدي الذي يهتم الشاعر فيه بسرد الأفكار والتأنيق فيها وحشد الصور المختلفة، فإن الإطار يتسع في هذه البحور لتعدد الأشكال والأوزان.

ج. الشعر العاطفي العميق الذي يشيع فيه اليأس .. لا الشعر الغاضب الثائر العنيف^(١).

ولكن هل كان شعراء عصر الطوائف يتخبرون لشعرهم من الأوزان ما يلائم عواطفهم؟ وهل جاءت أوزانهم المختلفة تبعاً لاختلاف مشاعرهم؟

(١) ابن زيدون عصره حياته أدبه ص: ٤٧٠-٤٧١.

للحقيقة أن هذه القضية من أعقد القضايا النقدية فمن النقاد من ربط بين موضوع القصيدة والبحر، ومنهم من رفض هذه الفكرة. وفي رأي أن ربط موضوع القصيدة ببحر معين جهد ضائع. فقد يستخدم الوزن الواحد لعدد من الأغراض الشعرية. وهذا ما فعله شعراء الطوائف فقد ركبوا مثلاً البحر الطويل في مدائحهم مثلما فعل ابن الحداد في قوله:

مَضَاوِكَ مَضْمُونٌ لَهُ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ وَسَعْيُكَ مَقْرُونٌ بِهِ الْيَمْنُ وَالنُّجْحُ (١)

ويستخدم المعتمد البحر الطويل في رثائه لولديه المأمون والراضي في

قوله:

يَقُولُونَ صَبِراً لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ سَأَبِي وَأَبِي مَا تَطَاوَلَ مِنْ عُمْرِي (٢)

وقد استخدم هذا البحر الشاعر ابن خفاجة في وصفه للطبيعة، وابن زيدون في الشكوى والعتاب، وتغزل فيه ابن اللبانة. وعلى هذا تصبح مسألة ربط الوزن بعاطفة معينة من الأشياء التي يصعب تحديدها على نحو ما رأينا.

ولكن التطور الحضاري الذي حدث في الأندلس، خاصة بعد دخول زرياب، كان لا بد له من أن يحدث أثراً في الأوزان. فقد أصبح الكثير من أهل الأندلس يميلون إلى الغناء والخلاعة والمجون. وإلى التمرد على كل ما يرون فيه قيئاً، وهذا ما جعلهم يلتفتون إلى أوزان تناسب ترفهم وذوقهم الحضاري. فتحلوا من أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وركبوا فناً آخر له أوزان مختلفة هو فن الموشحات.

وهناك سؤال يفرض نفسه هل كانت الموشحات من نتاج أهل الأندلس

وخاصة العصر الذي ندرسه. أقول: نعم هي من نتاج أهل الأندلس، وبعد تطورها في فترة نشأتها الأولى، أصابها أهم تطور في العصر الذي ندرسه على يد الشاعر أبي بكر عبادة بن ماء السماء الذي كانت صنعة التوشيح حتى عهده - على حد قول ابن بسام - : "غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام

(١) شعر ابن عبد الله بن الحداد ص: ٤٧.

(٢) ديوان الحمد بن عبادة ص: ١٦٢.

عبادة هذا منادها، وقوم ميلها وسنادها، فكانها لم تسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته^(١).

إذا فعصر الطوائف هو العصر الذي كان له الفضل في إخراج شكل الموشح النهائي الذي نراه في ترتيب أجزائها.

وقد اتخذ الموشح من حيث بناؤه شكلاً مقنناً، بحيث أصبح كل موشح يشتمل على أجزاء بعينها في نطاق مسميات اصطلاح المشتغلون بفن التوشيح عليها وهي:

- | | |
|---------------------------|-----------|
| ١ / المطلع أو المذهب | ٢ / الدور |
| ٣ / السمط | ٤ / القفل |
| ٥ / البيت | ٦ / الغصن |
| ٧ / الخرجة ^(٢) | |

ومضامين هذه الموشحات لا تختلف عن مضامين الشعر التقليدي فقد قال ابن سناء الملك: "الموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد"^(٣).

وفي عصر الطوائف دارت في موشحاتهم مضامين بعينها وهي الغزل كقول ابن ليون في إحدى موشحاته التي يشبه فيها فتاته بالرشاء، ويصف خصرها النحيل، وخذها المورد الأسيل، وردفها الذي أشبه الحقف، وقامتها الشبيهة بالغصن. وبهذه الأوصاف حوت فتاته جمالا لا حدود له يقول:

| | |
|--------------------|--|
| عَلِقْتُ رَشَا | مِنَ الْغُنْجِ وَالْهَجْرِ جُنْدُهُ |
| هَضِيمَ الْحَشَا | قَدْ أَيْعَ بِالْوَرْدِ خَدُهُ |
| يُزْرِي إِنْ مَشَى | بِالْحَقْفِ وَبِالْغُصْنِ قَدُهُ |
| مَا يُمْتَلُّ | جَمَالاً وَمَا أَنْ يُحَدِّدُ ^(٤) |

(١) الذخيرة، ج ١ م ١٩، ص: ٢٩٢.

(٢) راجع تعريف كل جزء من الأجزاء المرقمة في كتاب الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص: ٣٧٥ وما بعدها.

(٣) دار الطراز في عمل الموشحات/ تاليف/ القاضي السيد أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك. تحقيق د. جودت الركابي ط ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م. دار الفكر ص: ٥١.

(٤) ديوان الموشحات الأندلسية، تحقيق، د. سيد غازي، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩م، ج ١ ص: ١٤٤-١٤٥.

ثم مضامين وصف الخمر^(١)، ووصف الطبيعة^(٢) والمدح^(٣) والرثاء^(٤) ولغتهم في موشحاتهم بسيطة ولينة تقترب - أحيانا - من الضعف والركاكة والهلالة. وذلك بسبب ما سنه الوشاحون من تفضيل عامية الخرجة وتحبيب كونها ذات صفات وخصائص تدينها كثيراً من أذواق العامة وتسمها بروح الشعبية.

أما عن أوزان هذه الموشحات المستحدثة عندهم فقد قال عنها ابن سناء الملك: "إنها تنقسم إلى قسمين: الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إمام له بها" وقال أيضاً: "والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب، وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير، والعدد الذي لا ينحصر، والشارد الذي لا ينضبط. وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفترها لحسابها وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعز ذلك وأغوذ؛ لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف، وما لها عروض إلا التلحين، ولا ضرب إلا الضرب، ولا أوتاد إلا الملاوي ولا أسباب إلا الأوتاد؛ فبهذا العروض يعرف الموزون من المكسور، والسالم من المزحوف. وأكثرها مبني على تأليف الأرغن، والغناء بها على غير الأرغن مستعار وعلى سواه مجاز"^(٥).

ولكي يسهل دراسة أوزان الموشحات في هذا العصر الذي ندرسه نقسمها

إلى الآتي:

- ١/ الموشحات التي نظمت في بحور الشعر الخليلية.
- ٢/ الموشحات الموزونة المختلطة
- ٣/ الموشحات المختلطة الموزونة وغير الموزونة
- ٤/ الموشحات غير الموزونة ذات العبارات النثرية
- ٥/ الموشحات ذات الأوزان الجديدة.

(١) ديوان الموشحات الأندلسية، ١٧٩/١-١٨٠.

(٢) نفسه، ٦٢/١-٦٣.

(٣) نفسه، ٢٤٠/١-٢٤١.

(٤) نفسه، ٢٣٢/١-٢٣٣.

(٥) دار الطراز ص: ٤٤ وما بعدها.

أولاً: الموشحات الموزونة على بحر الخليل:

* البحر الطويل:

لم نجد موشحات ذات تفعيلات كاملة لهذا البحر، إنما هناك موشحة لابن
لبون استخدم فيها منهوك الطويل المسبغ مع وجود تفعيلات مفردة من جنس بحر
الطويل من اليمين ومن اليسار وهي الموشحة التي يقول فيها:

سَكَا جِيبِي * بِمَا أَتَلَفَ السُّقْمُ * أَنَا أَرْضَاهُ * وَإِنْ تَلَفَ الْكُلُّ (١)
مفاعيلن فَعولن مفاعيلن مفاعيلن فَعولن مفاعيلن.

ثانياً: الموشحات الموزونة المختلطة:

نظم الوشاحون موشحات تعددت فيها الأوزان، بحيث يستخدم الوشاح
أكثر من بحر. مثل موشحة ابن رافع رأسه التي استخدم فيها بحر الرجز وخطه
بمنهوك المنسرح يقول فيها:

الرَّاحُ وَالرُّضَابُ مَا فِيهِمَا حَرَجٌ
إِلَّا لِكَلِّ يَدِّعٍ عَن دِينِنَا حَرَجٍ (٢)
مستفعلن فَعولن مستفعلن فَعَلٌ

ثالثاً: الموشحات المختلطة الموزونة وغير الموزونة:

هناك موشحة للأصبحي عدّها صاحب الديوان من بحر الرجز وفيها
شطور موزونة، وشطور غير موزونة فمثلاً يقول فيها:

| | | |
|---------------------------|--------------------------|----------------|
| مَنْ يُسْعِدُ الْمَعْنَى | يَسْكِبُ الدُّمُوعَ | فَعولن فَعولن |
| يَا صَاحِبِي إِنَّا | أَرْبَابُ الْوُلُوعِ | مفعولن فَعولن |
| كَمْ وَقْفَةٍ وَقَفْنَا | بِنَاكِ الرَّبُوعِ | فَعولن فَعولن |
| نَطْوِي الضُّلُوعَ مِمَّا | نُكَابِدُ أَشْجَانَا (٣) | فَعولن مفاعيلن |
| مستفعلن فَعولن | | |

(١) ديوان المرشحات الأندلسية ١٠٣١-١٠٤٠.

(٢) نفسه ١٩/١ وما بعدها.

(٣) نفسه ١٩٦/١-١٩٧.

في هذا الموشح الأسطر الموزونة "مستفعلن فعولن" في الدورين الأول والثاني وهذا الوزن من المنسرح وليس من الرجز - كما قال صاحب الديوان - والأسطر غير الموزونة هي : "مفعولن فعولن".

رابعاً : الموشحات غير الموزونة ذات العبارات النثرية:

ونمثل لذلك بموشحة ابن الخباز التي يقول في أولها:

عُنَوَانُ الْهَوَى لَهُ كَلَائِلٌ - مفعولن مفاعلن فعولن
مِنْهُمْ كُمُوعِي الْهَوَامِلُ^(١) - مفعولن فعولن فعولن

خامساً: الموشحات ذات الأوزان الجديدة:

وجدنا موشحات من منهوك المديد، المقطوع الذي يمكن عده من الأوزان

الجديدة كقول ابن عباد القزاز:

| | |
|-------------------------|--------------------------------------|
| عَدْلُ أَهْلِ الْعَشَقِ | فِي الْهَوَى مَرْبُودٌ |
| لَيْسَ كُنْهُ الْحُبِّ | عِنْدَنَا مَحْدُودٌ |
| فَاعِلَاتِنِ فَعَلْنَ | فَاعِلَاتِنِ فَعَلْنَ |
| كَمْ قَتِيلٍ طُلَّ | قَتَلَتْهُ الْغِيْوُدُ |
| فَاعِلَاتِنِ فَعَلْ | فَاعِلَاتِنِ فَعَلْنَ |
| يَا أُولِي النَّفِيدِ | لَوْ مَلَكَتْ نَفْسِي |
| لَرَأَيْتُ السَّحْرَا | كَالْكِتَابِ النَّصِّ ^(٢) |
| فَاعِلَاتِنِ فَعَلْنَ | فَاعِلَاتِنِ فَعَلْنَ |

ثانياً: القوافي:

أما القافية فهي عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية حيث يتوقع السامع تردها، ويستمتع بهذا التردد، لأنه يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من المقاطع ذات النظام الخاص التي يحددها الوزن^(٣).

(١) ديوان للموشحات الأندلسية ١٢٦/١-١٢٧.

(٢) نفسه ١٨٧/١.

(٣) الشعراء للروائيون في الأندلس ص: ٣٣١.

ونظام القافية معروف في الشعر العربي، ولم يخرج شعراء الطوائف عن هذا النظام في شعرهم التقليدي، وخرج بعضهم عنه في موشحاتهم - كما سئرى - .

وقد اهتم الشعراء كثيراً بقوافي أشعارهم، وكان من مظاهر هذا الإهتمام انتشار التصريح في الكثير من شعرهم بوصفه نوعاً من أنواع التحسين الشكلي وهو أن يجعل الشاعر عروض مطلع قصيدته مثل ضربه كقول المعتمد بن عباد لما حمل أسيراً، وأطل على جبال درن:

هَذِي جِبَالٌ تَرَنُّ قَلْبِي بِهَا نُو تَرَنُّ (١)

ومثلما استخدم شعراء الطوائف حروف الروي المطلقة في معظم قوافيهم استخدموا كذلك الروي المقيد مثل قول ابن حمديس:

نَنَزَّ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرْدٌ أَيُّ نَرٍّ لِنُحُورٍ لَوْ جَمَدٌ (٢)

وقضية ارتباط القافية بالموضوع - عندي - مثل قضية ارتباط الوزن بالموضوع، فقد ترد قافية يمدح فيها أحد الشعراء، وفيها يتغزل الآخر وهكذا ... الخ.

قلنا : إن بعض الشعراء منحوا لأنفسهم فرصة تنوع القوافي في الموشحات وذلك لأن من شروط التوشيح تنوع القوافي. ونمثل لذلك بجزء من موشحة الحصري "أبو الحسن على ت ٤٨٦هـ"، وهي موشحة مكونة من ستة أفعال وخمسة أدوار، وقد اعتمد لتقفية المطلع على حرفي الطاء، والراء وكذا بقية الأفعال. أما الدور الأول فقد ركب في تقفيته حرف الميم. وأخذ ينوع في باقي الأدوار يقول:

مَنْ عَلَّقَ الْقُرْطَا فِي أُنْ الشَّعْرِي
وَالْحَفَّ الْمَرَّطَا الْغُصْنَ النَّصْرَا

• • •

(١) ديوان المعتمد بن عباد ص: ١٥١.

(٢) ديوان ابن حمديس ص: ١١٧.

عِنْدِي وَمَأْنُومُ
وَالْقَلْبُ مَظْلُومُ
يَعْتَشِقُهُ الرَّيْمُ
وَلَا رَعَى السَّدْرَا
قَدْ سَكَنَ الْقَصْرَا^(١)

الْحُسْنُ مَرْحُومُ
وَالطَّرْفُ ظَلُومُ
وَبِأَبِي رِيْمُ
كَمْ يَأْكُلُ الْحَمَطَا
وَلَا تَرَى الْأَرْطَا

(١) راجع تنوع نوال أحوار هذه الموشحة في ديوان الموشحات الأندلسية ٢٠٢/١ وما بعدها.

المبحث الثاني الموسيقا الداخلية

ويقصد بالموسيقا الداخلية جرس اللفظة المفردة ووقعها على السمع الناشئ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها، ومدى توافق هذا الإيقاع الداخلى مع دلالة اللفظة^(١).

ولقد افتن شعراء عصر الطوائف، في موسيقا شعرهم الداخلية، وتوسلوا بالجانب الصوتي لإكساب شعرهم نغمات موسيقية موحية، فجانسوا في شعرهم، وطابقوا، وقابلوا، وقسموا أبياتهم تقسيمات رائعة، وردوا الأعجاز على الصدور، وراعوا النظر، إلى غير ذلك من فنون البديع الرائعة. فمن قولهم في الجناس التام ما صاغه ابن زيدون في مدح ابن جهور حين قال:

فَقَبِلْتُ الْيَدَ مِنْ بَطْنِ يَدٍ ظَهَرَهَا الدَّهْرُ مَحَلَّ الْقَبْلِ^(٢)

فقد وقع الجناس هنا بين لفظتين احدهما مجاز - اليد - بمعنى النعمة والإحسان ويد الأخرى حقيقة بمعنى الكف التى خلقت للتقبيل مدى الأيام.

أما الجناس الناقص، فإننا نجده في قول ابن الحداد عندما جانس بين

"الأَمْلَاقُ وَالْأَفْلاكُ" في قوله:

وَبِأَلْمَعَالِ لِلْأَمْلَاقِ مُقْتَنَعٌ وَمَالُهُ يَسْتَوِي الْأَفْلاكِ مُجْتَرَأٌ^(٣)

وقد أكثر شعراء الطوائف من المطابقة، فأكسبوا شعرهم روعة وجمالاً،

لأنها تجلو الوجهين المتقابلين في الفكرة أو العاطفة، والضحك يظهر حسنه الضد. فانظر مثلاً إلى قول ابن اللبابة في المدح:

(١) الشعراء المروانيون في الأندلس، ص: ٣٣٣.

(٢) ديوان ابن زيدون ص: ٣٤٣.

(٣) شعر أبي عبد الله بن الحداد، ص: ٣٦.

مغالق الارزاق من كفه
ولم يضق دهر على أمة
قد أذن الله لها بانفتاح
الا أصابوا بذراه انفساح

الشاعر عندما جاء بالطباق في البيتين ، بين مغالق الارزاق وانفتاحها وبين الضيق والانفساح ، إنما كان يعبر عن حالته النفسية القلقة في مجتمع مثل مجتمع الطوائف الذي بات فيه الشعراء يرقبون رزقهم في انتجاع الملوك . أما المقابلة فهي في قول ابن زيدون الذي تفنن فيها كثيراً :

وقد نكون وما يخشي تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

وبما أن الموشحات الاندلسية قد أنشأت اصلاً للغناء ، فإن فن البديع هو من أميز ما تركز عليه في موسيقاها الداخلية . فيكثر الوشاح من تجانس الكلمات مثلما فعل الحصري عندما جانس بين ظلوم ومظلوم في قفل موشح غزلي في قوله :

و الحسن مرحوم عندي وماثوم
و الطرف ظلوم و القلب مظلوم (٣)

ويطابق الجزار في موشحه فيقول :

اهوى الوصال وتهوى صدى ظلماً وتنفّر (٤)

هذا بعض ما افنتوا فيه في موسيقاهم الداخلية في قصيدهم وفي موشحاتهم . وبهذا اصل الى ختام هذا البحث وارجو من الله تعالى أن أكون قد عرفت طريقى اليه .

النتائج :-

بفضل الله تعالى أختتم هذا البحث في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، وقد أثبت هذا البحث عدة نتائج وهي:

١- إن اضطراب الحالة السياسية في هذا العصر كانت سبباً في ازدهار

الحركة الأدبية لسعى كل أمير لضم أكبر عدد من الشعراء

٢- توصل البحث إلى أن الشعراء، كانوا على طبقات لدى الأمراء تتفاوت أقدارهم.

٣- كثر الشعر المنظوم في الطبيعة، وليس لهم في ذلك فضل عن

المشاركة، إلا في هذه الكثرة، والابتكار في الصور الشعرية

٤- رصد البحث الشعر المنظوم في الغزل، وأشار لمشاركة النساء فيه

٥- رصد البحث الشعر المنظوم في الشكوى والغربة والحنين، وهو شعر ظهر فيه الصدق الشعوري

٦- توصل البحث إلى انعدام الفخر بالقبيلة عند عامة الشعراء

٧- رصد البحث الشعر المنظوم في الزهد والتصوف والحكم، وأشار

لشعر الجهاد، الذي كان ذا أثر في حث المسلمين للجهاد ضد عبادة الصليب، كما تناول رثاء المدن والممالك الزائلة وهو شعر صادق:

كشف عن عمق المأساة التي حلت بالاندلس

٨- توصل البحث إلى أن شعر الهجاء كان على نوعين هجاء اجتماعي

وآخر سياسي، وأشار إلى شعر المطارحات الذي هو نوع من الرياضة العقلية

٩- رصد البحث الشعر المنظوم في المدح، بأنواعه التقليدية، والمدح

المنظوم في حركات التمرد والحروب الداخلية، والصراع بين

العرب والبربر وتوصل البحث إلى قلة النماذج التي تظهر فيها ذاتية الشاعر

١٠- أثبت البحث كثرة القصائد التي تتعدم فيها الوحدة الموضوعية والعضوية

١١- صدر بعض الشعراء قصائدهم بمقدمات جديدة كالشكوى، والحكمة والفلسفة

١٢- أشار البحث إلى كثرة القصائد التي أحسن فيها الشعراء تخلصاتهم إلى موضوعاتهم، ودقة اختيارهم لخواتم قصائدهم

١٣- بين البحث كثرة المقطوعات الشعرية، إما بسبب الكتاب أو بسبب الحروب كما أثبت تفننهم في الصور والأخيلة

١٤- ضمن الشعراء في لغتهم الشعرية ألفاظ القرآن الكريم وانقسم أسلوبهم الشعري إلى اتجاهين : محدث، وآخر محافظ جديد

١٥- أثبت البحث أن عصر الطوائف يعتبر من أهم العصور التي طورت فيه الموسيقى الشعرية، وهو تطور ظهر في الموشحات ليس في موسيقاها وحسب بل في قوافيها

التوصيات والمقترحات:

ومن المتأمل يتضح من البحث مدى الرقي الأدبي والحضاري في الأندلس

أولاً: مواصلة البحث حول الشعراء المغمورين في عصر الطوائف كإدريس بن اليمان، والأسعد بن بليطة، والحصري الكفيف. وشعر كل واحد منهم جدير بالدرس ونفض غبار الزمن عن نتاجه الأدبي.

ثانياً: إحياء التراث الأدبي في الأندلس، وتحليل النصوص الأدبية الواردة فيه.

وأخيراً كل عمل لا بد أن يتخلله بعض النقص. فاستميت القارئ عندي إن تسرب إليه بعض النقص.

فهرس الآيات القرآنية

١/ القرآن الكريم

٢/ قال تعالى (فَمَنْ أَضْطَرُّ عَلَيْهِمْ غَيْرِ نَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِمْ) سورة البقرة

الآية ١٧٣ (٧٥)

٣/ قال تعالى : (فَكُنْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا أَكَلُ الْمَشْرُومِينَ) سورة الأنعام الآية

١٦٣-١٦٢ (٥٠)

٤/ قال : (قَالَتَا أَهَذَا نُودِيَ بِمُوسَى (١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) سورة

طه الآية (١٢١) (١٢١)

٥/ قال تعالى : (وَلَمْ الْجَوَارِ الْمُنشَفَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) سورة الرحمن الآية (٢٤)

..... (٢٤)

٦/ قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) سورة النحر الآية (٨)

..... (٥٣)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١- ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس. تأليف سالم يفوت. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب.
- ٢- ابن حمديس الصقلي شاعراً. الدكتور سعد اسماعيل شلبي. دار الفكر العربي بدون تاريخ.
- ٣- ابن زيدون. عصره وحياته وأدبه. على عبدالعظيم. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٥م.
- ٤- أبو الحسن الحصري القيرواني عصره - حياته - رسائله. محمد المرزوقي الجيلاني ابن الحاج يحيى. مكتبة المنار تونس بدون تاريخ.
- ٥- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين. الدكتور. منجد مصطفى بهجت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م. مؤسسة الرسالة بيروت.
- ٦- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. الدكتور مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين. الطبعة السابعة. بيروت. لبنان تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٢م.
- ٧- الأدب العربي في الأندلس. الدكتور عبدالعزيز عتيق. الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م. دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت.
- ٨- أسس النقد الأدبي عند العرب. الدكتور أحمد بدوي. دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة بدون تاريخ.
- ٩- إشبيلية في القرن الخامس الهجري. دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية. وتطور الحياة الأدبية فيها. الدكتور صلاح خالص. دار الثقافة بيروت - لبنان ١٩٨١م.
- ١٠- الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر. الدكتور عدنان قاسم. الطبعة الأولى ١٩٨٠م. منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان.

- ١١- ألبديع في وصف الربيع. للحميري "أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن
عمر بن حبيب الحميري الإشبيلي. إعتنى بنشره وتصحيحه الأستاذ
هنري بريس ١٩٤٠م - ١٣٥٩هـ. المطبعة الإقتصادية بالرباط.
- ١٢- بهجت المجالس. وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس. تأليف الإمام
أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي.
تحقيق. محمد مرسي الخولي. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان بدون
تاريخ. المجلد الأول من القسم الأول.
- ١٣- ألبينة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف. الدكتور. سعد
اسماعيل شلبي. طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر بدون تاريخ.
- ١٤- ألبیان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي.
تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وليفى بروفنسال. الطبعة الخامسة
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م دار الثقافة بيروت - لبنان.
- ١٥- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. إحسان عباس طبعة
سنة ١٩٩٧م. دار الشروق.
- ١٦- تاريخ الفكر الأندلسي. أنخل جنثالث بالنتيا. نقله عن الإسبانية حسين
مونس. الناشر مكتبة الثقافة الدينية بدون تاريخ.
- ١٧- التصوف في الشعر العربي. الدكتور عبدالحكيم حسان. طبعة الرسالة
الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٥٤م.
- ١٨- الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصدائها في الأدب. الدكتور صالح
أدم بيلور. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. مكة المكرمة.
- ١٩- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. تأليف الحميري "أبي عبدالله
محمد ابن أبي نصر (٤٢٠هـ - ٤٨٨هـ) (١٠٢٩م - ١٠٩٥م)". حققه
وقدم له ووضع فهرسه ابراهيم الأبياري. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ -
١٩٨٣م. دار الكتاب المصري القاهرة.

٢٠- الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطليوسي. تأليف حسن عبدالرحمن علقم. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. دار البشير للنشر والتوزيع.

٢١- حديث الأربعاء. الدكتور طه حسين. طبعة دار المعارف بمصر بدون تاريخ.

٢٢- حضارة العرب في الأندلس. ليفي بروفنسال. ترجمة ذوقان قرقوط. طبعة دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ.

٢٣- ألحمة السَّيراء لابن الأبار "أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي" ٥٩٥هـ-٦٥٨هـ- "١١٩٩م-١٢٦٠م". حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس. الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م. الجزء الثاني دار المعارف.

٢٤- الحيوان: للجاحظ "عمرو بن بحر". تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة ١٩٤٧م الجزء الثاني.

٢٥- دار الطراز في عمل الموشحات. تأليف القاضي السعيد أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك. تحقيق الدكتور جودت الركابي. الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، دار الفكر.

٢٦- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. تأليف محمد عبدالله عنان الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م. القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢٧- ديوان ابن حمد يس. صححه وقدم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر بيروت بدون تاريخ.

٢٨- ديوان ابن خفاجة. تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي. الناشر منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٦٠م.

٢٩- ديوان ابن رشيق القيرواني. حققه الدكتور محي الدين ديب. إشراف ياسين الأيوبي. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م. المكتبة العصرية.

- ٣٠- ديوان ابن زيدون ورسائله. شرح وتحقيق علي عبدالعظيم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. بدون تاريخ.
- ٣١- ديوان ابن شرف القيرواني. تحقيق الدكتور حسن نكري حسن. مكتبة الكليات الأزهرية بدون تاريخ.
- ٣٢- ديوان ابن عمار. الدكتور صلاح خالص. مطبعة الهدى بغداد ١٩٧٥م.
- ٣٣- ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي. حققه وشرحه وقدم له الدكتور محمد رضوان الداية الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
- ٣٤- ديوان السرى الرفاء. عنيت بنشره مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٥هـ.
- ٣٥- ديوان عبدالمجيد بن عبدون اليابري. تحقيق سليم التتير الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. دار الكتاب العربي.
- ٣٦- ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق الدكتور رضا الحبيب السويسي الدار التونسية للنشر ١٩٧٥م.
- ٣٧- ديوان الموشحات الأندلسية. تحقيق. الدكتور سيد غازي الناشر منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٧٩م. الجزء الأول.
- ٣٨- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفي سنة ٥٤٢هـ. تحقيق سالم مصطفى البدري الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م. منشورات دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
- ٣٩- رايات الميرزين وغايات المميزين. لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي "٦١٠هـ-٦٨٥هـ". حققه الدكتور محمد رضوان الداية الطبعة الأولى ١٩٨٧م. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.
- ٤٠- ألهاء، الدكتور شوقي ضيف الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر بدون تاريخ.
- ٤١- رثاء المدن في الشعر الأندلسي. عبدالله محمد الزيات. الطبعة الأولى ١٩٩٠م. منشورات جامعة قارونس.

- ٤٢- سر الفصاحة. ابن سنان الخفاجي. صححه وعلق عليه عبدالمتعال الصعيدي. طبع مكتبة ومطبعة محمد علي صبح وأولاده. ١٩٥٢م.
- ٤٣- شرح التلخيص في علوم البلاغة. للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني شرحه وخرج شواهد. محمد هاشم دويدري. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م. دار الجيل بيروت.
- ٤٤- شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقبة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الاسلام. تأليف حسن السنوبي. المكتبة التجارية الكبرى. بدون تاريخ.
- ٤٥- الشعراء المروانيون في الأندلس. الدكتور مصطفى فتحى أبوشارب الطبعة الأولى. دار المفردات للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- ٤٦- شعر ابن الأبنية الداني. جمع وتحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد. منشورات جامعة البصرة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- ٤٧- شعر أبي عبدالله بن الحداد الأندلسي. تحقيق منال منيزل. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٤٨- شعر بنى أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري. الدكتور السيد أحمد عمارة. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م. مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- ٤٩- شعر الطبيعة في الأدب العربي. الدكتور سيد نوفل. القاهرة. مطبعة مصر ١٩٤٥م.
-
- ٥٠- الشعر في ظل بنى عباد. تأليف محمد مجيد السعيد. ساعدت وزارة التربية على نشره. بدون تاريخ.
- ٥١- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس. الدكتور محمد مجيد السعيد. الطبعة الثانية ١٩٨٥م. الدار العربية للموسوعات.
- ٥٢- الشعر النسوي في الأندلس. تأليف محمد المنتصر الريموني. قدم له عبدالله كنون. دار مكتبة الحياة بيروت - لبنان.

٥٣- صحيح البخاري. للإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي. ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجملته وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهرسه. مصطفى ديب البغا. اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الرابعة.

٥٤- الصناعتين الكتابة والشعر. لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري المتوفي سنة ٣٥٩هـ. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البجاوي طبع دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

٥٥- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي. تأليف. الولي محمد. الطبعة الأولى ١٩٩٠م. المركز الثقافي العربي.

٥٦- الطبيعة في الشعر الأندلسي. الدكتور جودت الركابي. الطبعة الثانية مطبعة الترقى بدمشق ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٥٧- ظهر الإسلام. تأليف. أحمد أمين. الطبعة الثالثة. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢م. الجزء الثالث.

٥٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني "٣٩٠هـ-٤٥٦هـ"، "١٠٠٠م-١٠٦٤م". قدم له وشرحه وفهرسه الدكتور صلاح الدين الهوارى، والأستاذة هدى عودة، دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٩٦م-١٤١٦هـ.

٥٩- عيار الشعر. تأليف محمد أحمد بن طباطبا العلوي شرح وتحقيق عباس عبدالماتر. مراجعة نعيم زرزور. الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

بيروت. لبنان.

٦٠- الغربية والحنين في الشعر الأندلسي. تأليف فاطمة طحطح. الطبعة الأولى ١٩٩٣م. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب بالرباط.

٦١- ألفت والنكبات العامة وأثرها في الشعر الأندلسي. الدكتور فاضل فتحي والي. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م. دار الأندلس للنشر والتوزيع.

- ٦٢- فصول من النقد عند العقاد. محمد خليفة التونسي. طبعة مكتبة الخانجي بمصر بدون تاريخ.
- ٦٣- في الأدب الأندلسي. الدكتور جودت الركابي. الناشر: دار المعارف بدون تاريخ.
- ٦٤- في النقد الأدبي. الدكتور شوقي ضيف. طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- ٦٥- قضايا النقد الأدبي. الدكتور بدوي طبانة. طبعة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١م.
- ٦٦- فلاند العقيان ومحاسن الأعيان. تأليف أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ٥٢٩هـ. حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خربوش. مكتبة المنار الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٦٧- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. للعلوى اليمني. طبع دار الكتب بيروت لبنان بدون تاريخ.
- ٦٨- ألمطرب في أشعار أهل المغرب. تأليف ابن دحية. حققه مصطفى عوض الكريم. الطبعة الأولى مطبعة مصر. الخرطوم ١٩٥٤م.
- ٦٩- ألمعجب في تلخيص أخبار المغرب. تأليف عبدالواحد المراكشي. ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان. ومحمد العربي العلمي. الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م. مطبعة الاستقامة القاهرة.
- ٧٠- المغرب في حلى المغرب. لابن سعيد المغربي. حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف. الطبعة الثالثة. دار المعارف بدون تاريخ.
- ٧١- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول. الدكتور حسين عطوان. دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٤م.
- ٧٢- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني. الدكتور حسين عطوان. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م. دار الجيل لبنان - بيروت.

- ٧٣- ملامح الشعر الأندلسي. الدكتور عمر الدقاق. دار الشروق. بيروت بدون تاريخ.
- ٧٤- مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح. الدكتورة مريم قاسم طويل. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م. دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
- ٧٥- نظرية المعني في النقد العربي. الدكتور مصطفى ناصف. طبعة دار القلم ١٩٦٥م.
- ٧٦- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفي سنة ١٠٤١هـ- حقه ووضع فهارسه الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ٧٧- النقد الأدبي الحديث الدكتور محمد غنيمي هلال. الطبعة الثالثة. دار الثقافة بيروت - لبنان ١٩٧٣م.
- ٧٨- النقد والنقاد المعاصرون. الدكتور محمد مندور. طبعة مكتبة نهضة مصر. بدون تاريخ.
- ٧٩- ألهاء في الأدب الأندلسي. الدكتور فوزي سعد عيسني. دار المعارف بدون تاريخ.
- ٨٠- ألهاء والهجاؤون في الجاهلية. الدكتور محمد محمد حسين. المطبعة النموذجية مصر. الطبعة الأولى بدون تاريخ.
- ٨١- الوساطة بين المتنبي وخصومه. للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. وعلى محمد البجاوي. دار القلم بيروت- لبنان. بدون تاريخ.
- ٨٢- وصف الحيوان في الشعر الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين. الدكتور حازم عبدالله خضر. دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٧م.

٨٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ٦٠٨هـ - ٦٨١هـ، حققه وعلق حواشيه، وصنع فهرسه محمد محي الدين عبدالحميد. الطبعة الأولى. مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م. الجزء الرابع.

فهرس الموضوعات

| رقم الصفحة | الموضوع |
|------------|--|
| ج | الآية |
| د | الإهداء |
| هـ | الشكر والتقدير |
| و - ي | المقدمة |
| ١٠ - ١ | الباب الأول صورة العصر |
| ٥ - ١ | الفصل الأول : الحالة السياسية |
| ٨ - ٦ | الفصل الثاني : الحالة الاجتماعية |
| ١٠ - ٩ | الفصل الثالث : الحالة الادبية والفكرية |

الباب الثاني

أغراض الشعر وموضوعاته في عصر الطوائف

| | |
|---------|--|
| ١٣ - ١١ | الفصل الأول : طبقات الشعراء |
| ٤٧ - ١٤ | الفصل الثاني : الشعر الوجداني |
| ٢٨ - ١٤ | المبحث الأول : شعر الطبيعة |
| ٣٨ - ٢٩ | المبحث الثاني : شعر الغزل |
| ٤٢ - ٣٩ | المبحث الثالث : وصف الخمر |
| ٤٦ - ٣٤ | المبحث الرابع : الشكوى والغربة والحنين |
| ٤٩ - ٤٧ | المبحث الخامس : الفخر |
| ٦٣ - ٥٠ | الفصل الثالث : الشعر الديني |

| | |
|---------|---|
| ٥٨ - ٥٠ | المبحث الأول : الزهد - التصوف - الحكم |
| ٦٣ - ٥٩ | المبحث الثاني : شعر الجهاد والمعارك الإسلامية |
| ٩٠ - ٦٤ | الفصل الرابع : الشعر الاجتماعي : |
| ٧٤ - ٦٤ | المبحث الأول : الرثاء |
| ٧٨ - ٧٥ | المبحث الثاني : الهجاء |
| ٨١ - ٧٩ | المبحث الثالث : الاخوانيات |
| ٨٨ - ٨٢ | المبحث الرابع : المدح |
| ٩٠ - ٨٩ | المبحث الخامس : الشعر الفلسفي |

الباب الثالث

الدراسة الفنية لشعر القصيد التقليدي

| | |
|-----------|---|
| ١١٤ - ٩١ | الفصل الأول : بناء القصيدة وبناء المقطوعات |
| ١٠١ - ٩١ | المبحث الأول : مقدمة القصيدة |
| ١٠٤ - ١٠٢ | المبحث الثاني : التخلص و الخروج |
| ١١٤ - ١٠٥ | المبحث الثالث : خاتمة القصيدة |
| ١٤٧ - ١١٥ | الفصل الثاني : اللغة و الأسلوب |
| ١٢٤ - ١١٥ | المبحث الأول : اللغة |
| ١٣٢ - ١٢٥ | المبحث الثاني : الأسلوب |
| ١٣٦ - ١٣٣ | الفصل الثالث : الوحدة الموضوعية و العضوية في القصيد |
| ١٤٧ - ١٣٧ | الفصل الرابع : الموسيقى و الأوزان و القوافي |
| ١٤٥ - ١٣٧ | المبحث الأول : الموسيقى الخارجية |
| ١٤٧ - ١٤٦ | المبحث الثاني : الموسيقى الداخلية |
| ١٤٩ - ١٤٨ | الخاتمة و النتائج : |
| ١٥٨ - ١٥٠ | المصادر و المراجع : |